د. محمود ماهر

وداعا طليطلة

روايـة أندلسية

مكتبة 1672

عصير الكتب

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

وداعا طليطلة

مكتبة | 1672

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

- العنوان: وداعًا طليطلة
- المؤلف: د. محمود ماهر
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- الطبعة الأولى: يناير 2023م
- رقم الإيداع: 2022/25522م
- الترقيم الدولي: 5-178-992-977-978

د. محمود ماهر

وداعًا طليطلة

روايـة أندلسية

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

الإهداء

إلى الرجل الذي كسر قلبي وظهري فراقه،
فصرت دونه وحيدًا في هذه الدنيا لأفقد مع وفاته الأمان والسند، وأخرج بموته من عباءة الصغر إلى شيخوخة مبكرة!

إلى أبي رحمه الله

اللهم ارحم من مات بالدنيا ولم يمت بقلوبنا،
اللهم ارحم أبي واسكنه جنتك، اللهم اغفر لوالدي وللمسلمين والمسلمات.

راوي الأندلس

تنـويه

وقعت أحداث هذه الرواية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وجميع ما ورد فيها من أحداث ومعلومات هي حقائق وليست من نسج الخيال!

راوي الأندلس

الفصل الأول

ممــا يزهّدنــي فــي أرض أندلــس
أسمــاءُ معتضــدٍ فيهــا ومعتمــد
ألقــابُ مملكةٍ في غــيرِ موضعهــا
كالهــرِّ يحكــي انتفاخًا صولة الأســدِ

ابن رشيق القيرواني

(1)

امتطى «مَسْلَمة» جواده الأبيض الذي راح يصهل صهيلًا خافتًا، ويضرب بأرجله الأرض قبل أن يميل برأسه للخلف، ليمد «مَسْلَمة» يده إلى عنق الفرس ويربت عليه ربتة خفيفة ويقول:

- أتأبين الخروج من قُرْطُبَة يا ورهاء؟! ومَن يريد ذلك؟ وهي جوهرة الدنيا، ومنارة العلوم والفنون، ورمز الوحدة والخلافة. لولا ما وقع فيها من فتن ومحن...

ثم رفع وجهه إلى السماء واستطرد:

- آهٍ يا ورهاء، لقد تغير الزمان، وتبدل الحال، ولم يعد هناك رجل رشيد كـ«الداخل» أو «الناصر» والله، لو لم ينته هؤلاء لينتزعن النصارى بلادهم، ولن يراعوا منهم أحدًا، ولن يرقبوا فيهم ذمة.

صمت قليلًا، ونظر يمينًا ويسارًا كأنه يملي عينه من «قُرْطُبَة» ويحتضنها بجفونه قبل أن يلكز بطن «الورهاء» برفق، ويقول في حزن وأسى:

- هيا، لقد حان وقتُ الرحيل.

تحركت «الورهاء» في خفة كعادتها، تضرب بأقدامها بلاط «قُرْطُبَة» وتقطع شوارعها الجميلة، وأزقتها الضيقة، حتى إذا مرت من أسفل باب «المدور» وصارت خارج الأسوار، سحب «مَسْلَمة» اللجام، فحمحمت، وتوقفت، واستدارت بوجهها للخلف، ليلقي صاحبها نظراته الأخيرة وهو يقول:

- وداعًا يا قُرْطُبَة! يا مدينة «الناصر» وأعجوبة الدنيا في عصره، يا مدينة العلم والعلماء، يا قبلة الملوك والسفراء، يا عاصمة «الداخل» يا جوهرة الدنيا وزينتها، يا حجر الأساس... قديمًا خرجت منك الجيوش

مجاهدة حتى ارتمى على أعتابك البيضاء ملوك «نبرَّة، وقشتالة، وليون، وجليقية» يطلبون منك العفو والرضا! أمَّا الآن فقد خرجت منك الوفود إلى «نبرَّة، وليون» طلبًا للعون والفتنة! وداعًا يا قُرْطُبَة، يا حامية الديار، وعاصمة الخلافة، وأم البلاد... وداعًا لا لقاء بعده.

ترقرق الدمع في عينه، وقال بصوت شجيّ:

- هيا يا ورهاء! هيا إلى الغرب حيث لا قتال ولا فتن، هيا لنزرع، ونبتعد عن معترك الفتنة.

وقبل أن تتحرك «الورهاء» شاهد جوادًا قادمًا نحوه في سرعة، وعليه فارس يقول:

- توقف يا مَسْلَمة... توقف يا رجل!

مكتبة
t.me/soramnqraa

حتى إذا اقترب منه قال وهو يلهث:

- إلى أين؟

- سأعود إلى «بازو[1]» موطني حيث أهلي وعشيرتي، فقد خرجت منها منذ سنين لأكون أحد جنود الحق في جيش الخلافة، أمَّا الآن فقد رضيت من الدنيا بالعمل في مزرعتي الصغيرة، والحياة في تلك البلدة التي ولدت فيها.

- يا رجل! أتترك «قُرْطُبَة» من أجل «بازو» وأنت من أنت؟!

- عسى الله أن يجعل لنا إليها عودة، ومَن يدري فلعل تلك السيوف تعود إلى أغمادها فلا تخرجن إلا للجهاد في سبيل الله! فلم آتِ إلى هنا من أجل بهرجة «قُرْطُبَة» وزخرفها، أما وقد انتهى عصر الجهاد، وتحولت من منارة للعلم ودار للأمن إلى مجمع للشرور في غياهب الفتن، واشتداد الوغى، وتناحر الإخوة فيما بينهم، يتقاتلون حول عرشها بعد أن فرغ كرسي الخلافة من الأمويين، وصار حكرًا على من غلب؛ فقد آثرتُ الانسحاب من هذا المعترك الوخيم، فرارًا من حروب لا تنتهي وفتن لا تنقضي.

- أبعد ما كنت فارسًا عظيمًا وبطلًا مجربًا تترك كل هذا، وتتجه إلى مجاهل النسيان في الغرب؟

---

(1) Vizeu.

- أخذت على نفسي عهدًا ألا أحمل سيفي أو أرفعه في وجه مسلم ما حييت، ولا يخرج سهمي إلا لصدور الأعداء لا وجوه المسلمين.

الجندي متأثرًا:

- ألا تودعني إذًا؟!

نزل «مَسْلَمة» وتقدم من الجندي، فاحتضنه، ثم عاد إلى ظهر «الورهاء» ولكز برفق بطنها، فتحركت إلى الغرب، بينما الحزن يخيم على وجهه وهو يخفضه اتقاء أشعة الشمس في مثل هذا الوقت من النهار.

***

(2)

انتفضت معرفة «الورهاء» ورفعت رأسها تستقبل الخيوط الأولى للشمس مطلقة صهيلًا خافتًا قبل أن يستفيق «مَسْلَمة» من نومه وينظر إليها مبتسمًا:

- صباحك خير يا ورهاء! علك حظيتِ بنومٍ هادئ عميق في هذا المكان النائي بعيدًا عن «قُرْطُبَة» وصخبها.

ثم نهض، وكان ينام تحت ظل شجرة تين، ومد يده إلى رقبة الورهاء، وداعب شعرها الطويل المسدل على عنقها، وتابع يقول:

- اليوم سنعمل معًا في حرث الأرض وزراعتها، ننثر القمح فينتج سنابل ذهبية يأكل منها الطير والبشر، آهٍ يا ورهاء، لقد مر على ذلك زمن طويل حتى ظننتُ أنني لن أعود إلى الفلاحة أبدًا، رحم الله أبي؛ كان حاذقًا في الزراعة وهو من علمني كيف أعتني بالزروع والثمار.

ثم حمل فأسه، وامتطى فرسه، حتى نزل بأرض أبيه، وكانت عند النهر تملؤها الحشائش والنباتات، فأوقف الورهاء وقال:

- هنا سنزرع ونكمل ما تبقى لنا من حياة.

ثم بدأ في نصب خيمة كبيرة حتى إذا أكملها ربط «الورهاء» بجانبها بعد أن جمع لها الكثير من العشب لتأكله، وجلس بعيدًا عنها مسندًا ظهره إلى جذع نخلة، ونظره يتردد بين الفضاء الشاسع هنا وهناك، وبعد أن استراح قليلًا، قام فأمسك فأسه، وبدأ في نثر الخير في تلك الأرض، ومرتِ الأيام، وكبر

الزرع، وظهرت سنابل القمح الذهبية تحت أشعة الشمس ليمر بينها «مَسْلَمة» ويده تداعب السنابل الجميلة ثم أمسك ببعض منها، وفركها بيده، وأطعمها الورهاء وقال:

- الآن يا ورهاء، تأكلين ونأكل من خير ما زرعنا، هذا خير من خروجنا لقتال المسلمين، واشتراكنا في هذه الفتنة الكبيرة!

رفعت «الورهاء» رأسها إلى أعلى، فعرف «مَسْلَمة» أنَّ غريبًا قادمٌ إليهم، فالتفت فإذا هو شاب في العشرين من عمره قصير القامة يميل للنحافة يرتدي حلة صفراء، يتقدم نحوه حتى إذا اقترب، قال بصوت ساخر:

- مَن كان يظن أن «مَسْلَمة بن عبد الله» أمهر رامٍ في الأندلس كلها يكون مصيره هكذا بين الزروع؟ وهنا في هذا الجزء الموحش من الأندلس، يعمل بالزراعة شأنه شأن مَن لا يستطيع أن يركب خيلًا!

- وما الضير في ذلك؟

- كنت أظن أنك ستعود يومًا، ولكن لتكون حاكمًا للمدينة، لا راعيَ غنم وزرع فيها!

- أنا لا أحسن ذلك يا سِسنانڈُ.

- وهل تحسن الزراعة؟

- كما ترى! واطمئن سأعود يومًا إلى حمل السهم، وضرب الرمح عندما تعود الأندلس إلى سابق عهدها؛ فاليد التي تزرع الخير، لن تعجز عن الدفاع عن أرضها وبلادها.

سِسنانڈُ مبتسمًا في خبث شديد:

- ربما أنت محق في ذلك، وإن كان الأمر كما تقول؛ فلا فائدة من تعلم فنون الحرب فالزراعة خير مما دونها!

- بل نكون مزارعين وقت السلم محاربين وقت الحرب!

- إن كان القتال فتنة، فاعتزاله نعمة.

ضحك «سِسنانڈُ» اليهودي، بينما حاول «مَسْلَمة» كتمان غيظه، وهو يرى الشماتة في عينه، وهو يقول:

- ألا تأتي اليوم إلى حانتي وتكون ضيفي؟
- تعلم أنني لا أرتاد الحانات ولا أحبها.
- كنت أعلم ذلك، كما كنت أعلم حبك للقتال، فإن كان هذا قد تبدل، فلماذا لا يتبدل الحال؟ أم تراك يا مَسْلَمة ستقضي حياتك كلها بين الزَّرْع والضَّرْع بعيدًا عن أعين الناس؟! لماذا لا تشاركهم الحياة؟ فهو أفضل لك، ولعلك تجد عندي ما ينسيك ما أنت فيه!
- أنا لا أريد أن أنسى ما أنا فيه، ولا ما نمر به، أنا هنا لفترة قصيرة لن تطول، وتذكر أن الأندلس مرت من قبل بمثل تلك الفتن فكيف انتهت؟ لقد انتهتِ الفتن ودامتِ الأندلس.

رسم «سِسنانذُ» ابتسامته الخبيثة مجددًا وقال:

- إن أردت أو غيرت رأيك، فحانتي مفتوحة لك.

صمت «مَسْلَمة» بينما امتطى «سِسنانذُ» صهوة جواده وابتعد عنه، والفرحة تسيطر عليه، ولسان حاله:

- الآن نحقق ما سعينا خلفه قرونًا، الآن فقط نجني ثمارَ ما صنعنا، الآن يترك المحاربون السيوف، ويرعون الأغنام، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة؛ فلا تكن لهم سيوف تحميهم أو تدافع عنهم إلا سيوفنا!

***

(3)

هبط «سِسنانذُ» بفرسه من فوق التلة الخضراء متجاوزًا الصخور وجداول المياه، وسار حتى دخل المدينة ووصل إلى خان «بازو» في وسطها، فنزل عن ظهر الجواد وربت على عنقه، وتحسس سرجه لحظة، وهو ينظر هنا وهناك، وقد امتلأت نفسه غبطة وفرحًا؛ عندما شعر أن المدينة فارغة من الجند والحراس، وسكن كل رجل بيته فبدت كقرية مهجورة لا حركة فيها فقال:

- أنا ملك تلك الديار! ومَن ملك لها غيري؟ وقد حق لصاحب الخان الذي يجتمع فيه جل أهل المدينة أن يكون ملكًا عليهم، وكيف لا يا سِسناندُ؟ ومَن يدخله يشعر بالحياة، ليس كهذا المعتوه «مَسْلَمة» الذي يظن أن الأندلس ستعود إلى سابق عهدها!

ثم ترك الحصان، وولج إلى الحانوتِ (دار ذات صحن واسع مخصص لرواد الشراب، وبها طابق علوي به عدة غرف منفتحة بعضها على بعض، منها ما تجهز فيها جواري لبيعهن، وأخرى لتعليمهن العزف وآلات الطرب، وكذا التدريب على الرقص والغناء العربي) الذي كان يضج بالضحكات هنا وهناك، وكؤوس الخمر تقارع بعضها بعضًا، فبه حياة أخرى غير تلك الموجودة خارجه؛ الجميع هنا أتوا لملذاتهم وقد انحصرت حياتهم في كأس خمرهم.

نظر «سِسناندُ» إلى وجوه الحاضرين يتفحصهم، ثم دخل إلى غرفة جانبية مليئة بزجاجات الخمور، فأغلقها على نفسه، وكان من عادته إن دخلها، لا يدخل عليه أحد حتى يخرج، وقد أوهم الجميع أنه يدخلها ليقارع خمره بعيدًا عن أعين الناس.

وما إن أغلق الباب، حتى أظلمتِ الغرفة، فأنارها بقنديل زيت معلق في أحد الجدران، وفي ضوئه الخافت رفع بعضًا من صناديق الخمور، فإذا أسفلها لوح خشبي يشبه الباب، فرفعه، فإذا أسفله فوهة ودرجات تنتهي إلى سرداب يسع الإنسان واقفًا، ثم سار في خط مستقيم، حتى ولج غرفة لتملؤها القناديل، وتفوح منها رائحة الأوراق والحبر (لقد كانت مكتبة كبيرة عامرة بكل أنواع الكتب، بينما هناك أربعة نساخ يعملون بجهد لا يكاد الرجل منهم يرفع رأسه من الكتاب إلا لينظر في غيره).

تحرك «سِسناندُ» وأمسك بأحد الكتب، وراح يقرأ فيه بتمعن قبل أن يلتفت إلى أحد النساخ:

- عمل عظيم! أريد أن ننقل كل هذه العلوم يجب أن تنتهوا منها سريعًا.

- إنها مؤلفات كثيرة يا سيدي، وتحتاج إلى وقت طويل.

- أخالك سيدي حصلت على كل الكتب في مكتبة قُرْطُبَة؟

- لا شأن لكم بذلك، إنما عليكم نقل كل هذه الكتب من العربية إلى اللاتينية فقط.

- وهل ننقل أسماء المؤلفين أيضًا؟

- دع هذه لي، أما أنتم فعليكم ترجمة ما بين الجلدتين فقط.

ثم أخرج من طيات ثيابه صرة من الدنانير الذهبية، ورجها في يده:

- أسرعوا العمل ولا تتكاسلوا؛ فالمال رهن لما تعملون.

ثم تركهم، وعاد إلى الغرفة المظلمة، فأعاد ترتيب الصناديق كما كانت، ثم فتح الباب وخرج إلى الحانوت، وجلس في أحد أركانه، فاقترب منه أحد العبيد وقال:

- لقد زاد الطلب على الخمر يا سيدي، فلماذا لا نرفع سعرها؟ والله، إني لأظن أن كل أهل «بازو» صاروا عملاء لدينا!

- صهٍ يا غلام، بل لو أملك النقود، لجعلتها لهم بلا ثمن؛ هؤلاء يجب أن يظلوا على ما هم فيه.

الخادم متعجبًا:

- وتخسر نقودك يا سيدي!

سِسنانْدُ بمكر واستخفاف:

- إن كانتِ الخسارة هكذا؛ فمرحبًا بها.

وأشار للخادم فانصرف؛ ليتابع أعماله بينما نظر «سِسنانْدُ» إلى حانته، وقد امتلأت عن آخرها، وبينما هو كذلك إذ ارتفع صوت من الخارج، وإذا بكهل من أهل «بازو» يقتحم الحانوت، ويتجه صوبه يقول:

- أما علمت أن أمير المؤمنين «الحكم بن عبد الرحمن» قد منع شرب الخمر في كل الأندلس؟!

نظر «سِسنانْدُ» بتجاهل وقال:

- مرحبًا بك يا شيخنا.

- لم آتِ إلى هنا لترحب بي.

- فلمَ إذًا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لأعلم كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا؟!

نظر «سِسناندُ» بهدوء يمنة ويسرة:

- إننا نخفف عن هؤلاء، ونواسيهم في شقائهم.

- تواسيهم أم تغيبهم عن حاضرهم!

- وهل هناك حاضر أجمل مما نحن فيه الآن؟ هذه الكأس تجعلهم يفعلون ما يريدون، وبه يتناسون ألمهم ومحنتهم، وبهذا نخفف عنهم، أمَّا أمير المؤمنين «الحكم» فقد أفضى إلى ما قدم. رحمه الله، رحمه الله، فأين «الحكم المستنصر» الآن؟

- إن كان الحكم قد مات، فرب الحكم، ومحرم الخمر لا يموت!

- تعلم أنني لا أدين بدينكم، ولا أتبع نبيكم.

أشار بيده إلى الجالسين في حانوته، وتابع:

- أمَّا هؤلاء، فأنا لم أجبرهم على المجيء، فإن أردت فلتخرجهم بنفسك، أنت وشأنك أو عد من حيث أتيت.

ثم اتجه صوب صاحب العود:

- أطربنا يا فتى.

***

(4)

لقاء دون موعد

بعد يوم عمل طويل شاق جلس «مَسْلَمة» تحت شجرة زيتون يستظل بظلها من حرارة الشمس وهو يتناول وجبة الغداء، بينما راح يراقب «الورهاء» بعينيه ويتحدث إليها فقد كانت خله الوحيد في هذا الجزء من الأندلس:

- مَن كان يظن أن نحيا ما تبقى لنا من حياة هنا؟ بعيدًا عن «قُرْطُبَة» وعن أنفاس الناس نتناول غداءنا وسط الزروع والثمار، آهٍ يا ورهاء، لقد اشتقتُ إلى ضرب السيف، وقذف الرمح، ورمي السهم.

أتم طعامه، ورقد وهو ينظر إلى السماء الصافية فوقه:

- لقد كانتِ البلاد صافية كهذه السماء الزرقاء، حتى امتلأت بالفتن!

شرد بذهنه قليلًا حتى أخذته سنة من النوم، ليستيقظ على صوت «الورهاء» وهي تصهل بصوت مرتفع، وتحمحم، وتضرب الأرض بأقدامها، وتحاول خلع رباطها، وكأنها تحاول إيقاظ «مَسْلَمة» الذي لم يستيقظ بسهولة، فاستمرت في أفعالها وصهيلها حتى أزعجته، ورفع رأسه، ونصب ظهره ونظر إليها:

- ما بك يا ورهاء؟ لماذا تفعلين كل هذا؟

نظر حولها وتحت أرجلها؛ علَّ زاحف أراد أن يؤذيها أو مفترس اقترب منها، ولكنه لمْ يرَ أيّ شيءٍ، ولم تتوقف عن صهيلها، وظلت تضرب الأرض بأرجلها، وهي تنظر إلى جهة مجهولة، ربت على عنقها علها تهدأ ولكن دون جدوى، فحل رباطها وبقفزة واحدة كان على ظهرها، فانطلقت به تسابق الريح دون أن يدري وجهتها، وما إن ابتعد قليلًا عن مزرعته، حتى سمع صوت يستغيث ويصرخ في طلب النجدات!

عرف سر صهيلها، فلكز بطنها فنهبتِ الأرض نهبًا في اتجاه الصوت، وما هي إلا لحظات حتى شاهد امرأة تستغيث من لصين يحاولان اختطافها وماشيتها وهي تصرخ:

- وا غوثاه، وا غوثاه!

وقد ساق أحد اللصين الأغنام، بينما يحاول الثاني الإمساك بالفتاة وهو يَحزِق بها بصوت ماكر:

- لا سبيل لك، ولن ينجيك منا أحد، فتعالي معي خير من أن آخذك بالقوة.

ثم تقدم صوبها، فأمسكتِ الفتاة بفرع شجرة، وقالت بشجاعة:

- إن اقتربت مني، سأقتلك!

قهقه اللص طويلًا:

- بهذا تقتلينني!

ثم نزل عن صهوة جواده، واقترب منها في بطء، وهي تحاول إبعاده وتهديده، حتى إذا رفعت يدها تضربه، أمسك بفرع الشجرة بقوة وألقاه بعيدًا؛ فسقطتِ الفتاة على الأرض، واللص يقهقه، ويقترب منها، وهي تزحف إلى الخلف على الرمال، حتى إذا صارت بين يديه صرخت بقوة كبيرة، فلم يعبأ

بصراخها، وقد وطن نفسه على الإمساك بها وسبيها، حتى إذا مد يده للإمساك بها، سمع من يقول:

- إليك عنها أيها الحقير!

نهض اللص بسرعة كبيرة، وشهر سيفه في وجه «مَسْلَمة» الذي لم يكن يحمل سلاحًا:

- ومن أين لك أن تحميها مني؟ أيها الفلاح الحقير!

وثب «مَسْلَمة» من فوق «الورهاء» مبتعدًا للخلف، وبخفة التقط فرع شجرة ولوح به، وقال بقوة:

- ما رأيك في مبارزة قصيرة؟

- مبارزة! إنما تكون المبارزات بين الفرسان، لا أنت يا راعي الأغنام!

وانقض عليه فتلقى ضرباته ببراعة شديدة، بينما نهضتِ الفتاة، وهي تراقب ما يحدث من كثب، وتردد صوت المبارزة في الفضاء طويلًا، وتوقف اللص الثاني ينظر نتيجة ما يحدث وهو واثق من فوز صاحبه وخصوصًا أن «مَسْلَمة» كان يرتدي لباس الفلاحين ما يعني أنه لا يحسن حمل السلاح، واستمر القتال قصيرًا حتى استطاع «مَسْلَمة» أن يضرب على سيف اللص بقوة فسقط السيف من يده، فسارعتِ الفتاة إلى الإمساك به، وقد انفرجت أساريرها وشعرت بالأمان، وقد انهزم خاطفها وخشي على نفسه؛ ففر من أمام «مَسْلَمة» وهو لا يكاد يصدق ما حدث.

ولكنَّ الثاني هجم على «مَسْلَمة» الذي واجهه وقبض على معصميه بقوة، ثم لوى ذراعه خلف ظهره، وأحاط هو بذراعه اليمنى رقبته وحبسها بين عضده وهو يضغط عليها حتى كاد أن يخنقه، وبأنفاس نفثة:

- في أعوام الفساد والضعف تنتشر اللصوص، ويضعف الدين، وتسقط المروءة، حتى يهاجم الرجال النساء.

ظل اللص يركل بقدميه الأرض يحاول الفكاك، وقد ظهر الألم على وجهه:

- اتركني ولن أعود... اتركني سأموت!

أرخى قبضته عنه، ودفعه إلى الأمام، فهرول بعيدًا ناجيًا بحياته، بينما لم تجد الفتاة في الكلمات ما يعبر عما بداخلها من فرح وامتنان لهذا الفارس الذي أنقذها من أغلال السبي:

- لقد أسديت إليَّ معروفًا لا أستطيع رده، فالحمد والشكر لله!

اقترب منها، وقد خفض رأسه وقال يوبخها برفق:

- كيف لفتاة مثلك أن تخرج في هذا الوقت، وفي هذا المكان بمفردها دون حماية بعيدًا عن موطن الأقدام؟

- هذا المكان ليس بعيدًا عن العمران كثيرًا حتى أخشاه، ولا نملك العبيد ليرعوا أغنامنا، والأرض القريبة ليس بها ما يكفي الأغنام من حشائش، وهذه ليستِ المرة الأولى التي أخرج فيها وقد اعتدته، ولكن هذه أول مرة أتعرض فيها لمثل ما حدث.

- ذلك لأن الزمان تغير، فلسنا في أيام «الناصر[1] وابنه الحكم أو الحاجب المنصور» حتى يأمن الرجل على أهله، وتأمن الفتاة على نفسها. والله، لقد كانت في هيبة مَن ذكرت ما يردع اللص عن السرقة، والغادر عن غدره، أما الآن فلمَن يقيم اللصوص وزنًا؟ والناس على دين ملوكهم، وربما تعلمين أن دين ملوكنا اليوم الفتنة والتقاتل فيما بينهم. على أنه عليك ألا تخشي فقط اللصوص، ونحن هنا على ثغور الأندلس وقريبون من «ليون[2]» وجنودها، وربما أغاروا، وأنت وحدك في المرعى!

شعر أنه أطال الحديث، وذهب به بعيدًا، فاستطرد:

- أليس لك إخوة يغنونك عن رعي الأغنام؟

- ليس لي إلا أب كبير لا يستطيع فعل ذلك.

- ألا تخبرينني باسمك؟

- لا داعي لذلك.

تحركت صوب الأغنام، فانتقت منهم واحدة، وقالت:

---

(1) راجع رواية «ربيع الأندلس».

(2) Reino de León مملكة النصارى تقع في شمال غرب الأندلس، وكان شعارهم الأسد.

- هذه لك.

مَسْلَمة مغاضبًا:

- هل تعطينني نظيرًا وإحسانًا؟ لا أنتظر منك ردًا للمعروف وقد كنت أظنك ستحسنين الظن بي!
- لا تحسبها هكذا.
- ولكن...
- هي تعبير عن شكري لما أسديت في حقي.
- أنا لم أنهض طمعًا في شكر أو غنيمة، إنه الواجب الذي يفرض نفسه علينا أن نغيث الملهوف، فاحفظي أغنامك.

ثم امتطى «الورهاء» وقال بملامح جادة:

- سأسير أمامك، وتسيرين خلفي، حتى تصلي إلى العمران؛ فإني أخشى أن يعودا فينتقمان منك، وقد لا يسمعك أحد حينها، فتكونين غنيمة لهما.

***

(5)

كانتِ الشمس تميل للغروب، والسحب تتزاحم فوق بعضها بلون وردي، تقدمتِ الفتاة وأمامها أغنامها، وقد اقتربت من الدار، وأثارت بأغنامها الأتربة، حتى إذا اقتربت أكثر إذ بفتاة صغيرة تشير إليها من بعيد وتصيح:

- ها قد عادت يا أبي!
- الحمد لله على سلامتها!

تقدمتِ الفتاة صوب أبيها الذي تجاوز الثمانين من عمره، وفقد بصره وقالت:

- ليست المرة الأولى التي أتأخر فيها، فلمَ كل هذا القلق؟
- قد كان شيء ما يؤرقني، ويلهب قلبي خوفًا عليك يا سارة.

أخفت «سارة» في نفسها ما حدث:

- اطمئن يا أبي، فلن يحدث إلا ما أراده الله.

- لن أطمئن، ما دمتِ بعيدة عني، والآن ألا تخبرينني بأسباب تأخرك؟

بدأتِ السحب في التكاثف، فأظلمتِ السماء وبرقت، وهتفت «سارة» متحدية صوت الرعد:

- سأخبرك بكل شيء، ولكن بعد أن نبيت الأغنام في حظائرها، فقد تلبدتِ السماء بالغيوم ولن تبرح حتى تمطر.

- كوني مع أختك يا صغيرتي، وساعديها!

- أمرك يا أبي، ولكن لأدخلك أولًا.

- بل كوني معها، وأنا سأعرف طريقي إلى الدار جيدًا.

ثم تحرك ممسكًا بعصاه يتحسس طريقه، وفجأة انهمرتِ الأمطار في غزارة، وراحت تروي تراب «بازو» ففاحت منها رائحة المطر في كل مكان.

ابتسمت «سارة» فظهرت غمازة خدّها المتورد، وقالت وهي تمد يدها حتى تبللها بماء المطر:

- كم أحب هذه الرائحة وقطرات الأمطار!

بينما أخرجت أختها الصغرى لسانها تحاول إدخال قطراتِ الماء بفمها، فهتفت سارة:

- ستبللين ثيابك!

- لا بأس، مادامت تغسل قلوبنا وتسعد نفوسنا.

وما إن دخلتِ الأغنام حظائرها حتى عادت «سارة» إلى أبيها ولم تشأ أن تخبره بما تعرضت له، رغم أن الرهبة ما زالت تتملكها.

***

بحث «مَسْلَمة» عن مكان يحميه من الأمطار؛ فالخيمة التي كان يقعد وينام فيها كانت كفيلة بحمايته من الشمس ومن البرد، ولكنها لم تكن كذلك مع الأمطار التي ظلت لساعات طويلة حتى ظن الرجل أنها لن تنقطع، لتشرق الشمس على «مَسْلَمة» وهو لم يكد يعرف للنوم سبيل.

صهلت «الورهاء» لتيقظه من نوم لم يكن هانئًا، ففتح عينيه وقال:

- صباح الخير يا ورهاء! لقد كانت ليلة لم تكتحل عيناي فيها بالنوم!

ثم نهض وربت على عنقها، وقال:

- لا أعلم كيف غفلت عن الأمطار وما يحمينا منها؟ ولكن لا بأس يا صديقتي فلنفعلنَّ الآن ما نريد.

ثم امتطها بحثًا عن أحجار وأخشاب تصلح لبناء الدار التي أراد أن يبتنيها وهو يقول في نفسه:

- هل سألتقيها مجددًا؟ أم تراها لن تعود بعد الذي حدث لها بالأمس؟

تنهد وأكمل:

- آهٍ يا مَسْلَمة، لم تفكر يومًا في الزواج ولم تطرق قلبك امرأة من قبل.

ثم تحرك حتى وصل إلى ذلك المكان الذي التقاها فيه، فلم يجدها فشعر بخيبة أمل قال بعدها للورهاء:

- هل خرجنا لنبحث عن أحجار ونجلب أخشابًا، أم ترانا خرجنا بحثًا عن الفتاة ؟

حمحمتِ «الورهاء» وكأنها تجيب على صاحبها فقال:

- وتعلمين ما يدور بخلدي.

ثم نظر إلى تلة عالية وقرر أن يرتقيها؛ فلعله ينظر من الأعلى فيجد ما يريد، وفجأة دقَّ قلبه بشدة، وعيناه لا تزيغان عما يرى وقال:

- أيعقل هذا؟ نعم إنهم هم، وهذه رايتهم!

ثم لوى رسن «الورهاء» ولكز بطنها بقدمه، فانطلقت بقوة تقطع الأرض صوب «بازو» التي ما إن دخلها حتى صاح بأعلى صوته:

- أغلقوا الأبواب؛ الصليبيون قادمون!

نزل صوت «مَسْلَمة» على الأهالي نزول الصاعقة، وغشيهم الخوف، وتسمروا مكانهم، فراح يصرخ فيهم:

- أغلقوا الأبواب! واحملوا سهامكم وسيوفكم، واستفيقوا من غفلتكم قبل أن يدخلها عليكم الليوني! هيا أسرعوا!

انتبه الغافلون من سكرتهم، ولهث الحراس صوب الأبواب يغلقونها، بينما خلع «مَسْلَمة» ثياب المزارعين، وارتدى ثوب الجند، ولأْمَةَ الحرب كلها، وقال:

- الآن يا ورهاء، تعودين إلى ساحة الوغى، ولكن ليس لقتال المسلمين بل لقتال أعدائنا كما ترغبين.

ثم صاح بصوت عالٍ:

- هلموا إليَّ يا جند بازو!

ولأنهم يعرفون مكانته، فقد اجتمعوا حوله وأولوه قيادتهم، فقال:

- أريد أن يتقدم أماهركم في ضرب السهم.

فتقدمتِ إليه مجموعة منهم، فقال لهم:

- اعتلوا الأسوار، ولا تسمحوا لهم بالاقتراب منها مهما كلف الأمر! صوبوا على أعينهم وقلوبهم فلا يقترب منهم حيٌ أبدًا.

تحرك حملة السهام إلى أماكنهم فوق الأسوار ومعهم حملة الرماح، حتى إذا ظهر «الفونسُ الخامس» بجيشه كانتِ المدينة على أهُبة الاستعداد للمقاومة والدفاع، فلما رأى المدينة قد أغلقت أبوابها؛ قرر ضرب الحصار حولها حتى يجبرها على التسليم أو يقتحمها وينتزعها من المسلمين، وكانت «بازو» تابعة لـ «ابن الأفطس» صاحب «بَطَلْيُوس» ولكنه لم يكن يعتني بها لبعد المسافة، وقربها من بلاد العدو فلما علم بما نزل بها، لم يتقدم لنجدتها بل تركها لمصيرها المجهول!

وعولت «بازو» على الصبر في قتال الأعداء، وركب جنودها الأسوار يضربون بسهامهم كل من يقترب، ونجحوا بالفعل في قتل الكثيرين من جيش الأعداء، وساعدتهم الأمطار في ذلك بعد أن حولتِ الأرض إلى برك مياه، فلم يقدر الجند على نصب الخيام، وطالب بعضهم بالرحيل والعودة إلى «ليون» غير أن «الفونس الخامس» رفض أن يفك الحصار وعول على تجويع المدينة إن أبتِ الاستسلام.

ضاق الحال بمَن داخل المدينة وبدأ «سِسنانْدُ» يبث سمومه في أهلها ويقول:

- لا جدوى من المقاومة، ولئن استسلمنا الآن ربما لن يقتلنا ملك «ليون» ولكن، إن نحن قاتلناه لن يرحم أحدًا منا!

ولكن سمومه لم تنل من عزيمة أهل المدينة شيئًا، بل إن كثيرًا من الماجنين انضموا إلى صفوف المقاتلين، ونسوا خمرتهم وملذاتهم، حتى

إذا طال الحصار حمل «الفونسُ» حملة شديدة على المدينة، وقرر أن يحرق الأبواب! فدفع بجنوده دفعًا صوب الأسوار لا يبالي بمن سقط منهم قتيلًا أو جريحًا، وزاغت قلوب أهل «بازو» وارتعدت فرائص الضعفاء منهم، وبدا للقوم أنه سيملك المدينة عاجلًا غير آجل، وفكر بعضهم في كلام «سِسناندُ» وشعروا أن به حياتهم، غير أن «مَسْلَمة» كان له رأي آخر فقد رفض كل حديث عن التسليم، وبقلب شجاع، وفدائية كبيرة قرر فعل شيء سيبدل حال المدينة والجيش المحاصر.

فترك السور ونزل يبحث عن إناء كبير، فجاءوا له بواحد فطلب منهم أن يملأه بالسم ففعلوا، فدس «مَسْلَمة» سهامه في الإناء حتى تشبعتِ السهام، ثم رفعها، وأمسك بسهم منها وعيناه لا تنزلان عن نصله وقال:

- إما حياة «بازو» أو حياة ملك ليون!

ثم امتطى الورهاء، واختار عشرة من أشد جنوده، وأوصى حملة السهام ألا يقذفوا أحدًا بسهامهم؛ حتى يظن جيش «ليون» أن عزيمة أهل المدينة قد خارت، فتضعف حراستهم ويزيد استهتارهم. وقد حدث ما أراده «مَسْلَمة» فتقدم الجيش وعلى رأسه الملك صوب الأسوار، وقد ظنوا أن أهل المدينة قد أعياهم القتال.

وفي لحظة معينة كُتمت فيها الأنفاس فتحت أبواب «بازو» وانطلقتِ «الورهاء» منها منقضة على جيش «الفونسُ الخامس» الذي تقهقر من عشرة فرسان، وكأن المفاجأة قد أذهلتهم، فتسمر الجيش، بينما أخرج «مَسْلَمة» سهمه، وحدد هدفه، وشد قوسه، وضرب ضربة أصابت كتف ملك «ليون» فاختل حال الجند، حتى إنهم لم يدروا ماذا يفعلون؟ وأوقف «مَسْلَمة» جواده وقال لجنده:

- انسحبوا، وتراجعوا!

وحاول المهاجمون رميهم بالسهام، ولكن رميتهم كانت طائشة خائفة؛ فلم تصب منهم أحدًا، وما هي إلا ساعة حتى انتشر السم في جسد «الفونسُ» وأصيب بالحمى والغثيان، والقيء الشديد، فلم يأتِ الغروب إلا وقد هلك مكانه وسط جنوده الذين اختل أمرهم، وتشتت شملهم، بعد أن فقدوا ملكهم، فتراجعوا حاملين جثته، ونجتِ المدينة من سقوط أكيد.

***

(6)

كانت «سارة» تشاهد الاحتفالات من خلف النافذة، وهي ترى الشباب يهتفون، ويكبرون، ويحمدون الله على ذهاب الغمة، وقد تنفس الجميع الصعداء بعد أن نجتِ المدينة من سقوط محقق، وخرج الناس إلى الشوارع والطرقات يحتفلون بالنصر، أمَّا كبراء المدينة فقد اجتمع رأيهم على وجوب تحصين المدينة من أي غدرٍ جديدٍ يحيقُ بهم، فحدثوا «مَسْلَمة»:

- تعلم ما يحدث في الأندلس من فتن ونحن هنا في «بازو» في أقصى بلاد المسلمين بعيدًا عن حواضر ملوك الأندلس قريبون من العدو المتربص بنا، وقد خبرنا أن مدينتنا لن يحميها سوى رجالها، فلن يهتم لنا «ابن الأفطس» أو غيره إن حاقت بنا المقادير، وهؤلاء أبناء المدينة وشبابها، لا هم لهم اليوم غير أن يتعلموا فنون القتال، وقد علموا أنَّ اللهو والخمر لن ينقذ يومًا مدينتهم، وأنَّ النساء والأمهات والبنات رهنٌ لما تفعله أيديهم، فإما أن يدافعوا عنهن وإما يصرن سبايا للروم، فخذهم ودربهم، وحصن المدينة كما يجب أن تحصن لتصمد أمام غرور «ليون، وجليقية».
- إذًا ليعاهدوا الله ألا يستخدموا ما أعلمهم في التناحر فيما بينهم، وألا يرفعوا سلاحًا في وجه مؤمن قط!
- لك ذلك يا مَسْلَمة.

هتف بها الشباب، وتحرك الجميع يتابعون الاحتفالات، أما «سارة» فقد أغلقتِ النافذة، وأرخت الستار، وجلست وهي لا تكاد تصدق أن الفلاح الذي أغاثها هو أمهر رجال الأندلس في التصويب بالسهم، فزاد ذلك من إعجابها به؛ فهو لم يكن مغترًا يوم أن أنقذها، ولم يكن مغترًا حين ساهم في الدفاع عن المدينة وقتل «الفونسُ الخامس» وطال تفكيرها ومعه صمتها ذلك الصمت الذي يهيم بالخيال إلى حيث من نحب ونهوى.

وفي اليوم التالي وبعد أن استقرت أحوال المدينة، وأمن من فيها على أنفسهم، وتيقنوا من جلاء الغازي، خرجت «سارة» بأغنامها إلى حيث المرعى القريب من أرض «مَسْلَمة» تؤمل أن تراه وقد رفرف قلبها، وتبدل حالها،

وغارت الابتسامة من وجهها، وهي تفكر فيه؛ فسرحت بذاكرتها إلى يوم اللصوص، حتى مالتِ الشمس إلى المغيب، ولم يأت «مَسْلَمة» أو تظهر فرسه أو تسمع صهيلها، فعادت إلى دارها حزينة النفس، ولكنها قررتِ العودة مرات أخرى؛ علها تلتقيه، وفي اليوم الثاني خرجت «سارة» للرعي، وقلبها أشد تعلقًا مما ذي قبل، ولكن حدث كما حدث بالأمس، وتكرر الأمر عدة أيام، وهي لا تعلم لماذا اختفى بطلها؟ وهل يجب عليها أن تقع مرة أخرى في يد لصوص أو تصرخ مستغيثة عله يخرج وينقذها؟!

مرتِ الأيام، وذبلتِ الفتاة، وتبدل حالها كحال كل العاشقين المحرومين من حبيبهم، وعافتِ الطعام والشراب، وجفت شفتاها، وطال صمتها وليلها، ولكن ما إن يبزغ الفجر حتى تخرج بأغنامها ليس بحثًا عن مرعى لهم؛ ولكن عما يروي قلبها، وبينما تجلس وهي ممسكة بعصاة ترسم بها في الأرض، إذ سمعت صهيل «الورهاء» فلم تكد تصدق نفسها، ولم تتمالك أعصابها حتى سقطت منها العصا في الأرض فرفعتها ونظرت إلى «الورهاء» ومن يمتطيها، وقد زادت ضربات قلبها، وتدفق الدم في أوعيته بقوة أعادت له الحياة، حتى وضعت يديها على صدرها، وكأنها تحاول كتم تلك الصرخات التي تكاد أن تفضح ما في نفسها، ولم تبادر بالكلام حتى ترجل «مَسْلَمة» وقال:

- ما كنت أظن أن تأتي إلى هنا مرة أخرى.

التفتت إليه وقالت:

- قد خاب ظنك.

- أمَا خفتِ عودة اللصوص؟!

ابتسمت سارة:

- كيف أخافهم وفي «بازو» رجل اسمه «مَسْلَمة»؟

- عرفتِ اسمي! ولم أعرف اسمك بعد.

- ما أنا إلا فتاة من أهل «بازو» فلست «ولادة بنت المستكفي» ولا «صبح البشكنسية» حتى يعرف الجميع اسمي، ومن يهتم لفتاة مثلي؟!

- أنا أهتم لذلك.

- لو كان، لرأيتك هنا منذ أيام، ولم تنقطع كل هذا الوقت.

- ما انقطعتُ إلا لظني أنك لن تأتي إلى هنا مرة أخرى بعد الذي حدث، وقد خرجت ثاني يوم لقيتك، وبحثت عنك فلم أجدك، فاشتد حزني، ولكن بعد أن رأيتُ العدو حمدتُ الله أنك لم تخرجي.

احمر وجهها الرقيق سرورًا، وترددت:

- حقًا! خشيت عليَّ.

- أجل.

- فلمَ خرجت اليوم وقد انقطع أملك؟

- لا، لم ينقطع أملي يومًا.

عضت بأسنانها شفتها السفلى، وصمتت، فقال:

- أخبريني ما اسمك يا...؟

- سارة... ذاك اسمي.

ابتلعت ريقها خجلًا من نظراته، ورفعت وجهها إلى السماء، وقالت وهي في أشد الارتباك:

- لقد قاربتِ الشمس على الغروب؛ يجب عليَّ أن أعود.

نهضت وتحركت تسوق غنمها لتعود إلى بيتها، فصاح بها:

- سأنتظرك غدًا.

التفتتِ إليه، ولم تتحدث، ولكن عينيها ابتسمت ابتسامة عرف منها أنها ستعود.

***

(7)

حُمل جثمان الملك القتيل حتى وصل إلى «ليون» تتبعه الصرخات والعويل وأعلامٌ منكسة، وما إن دخل إلى بلاده، حتى ارتفع العويل، وشيعتِ الجنازة إلى أحد الأديرة وجلس وريثه «برمودو الثالث» مكانه، وكان ملك «نبرَّة: سانشو الكبير» وابنه «فِرْنَانْدُ: ملك قشتالة» يسعيان للاستيلاء على «ليون» الكبيرة، وكان «فِرْنَانْدُ» قد تزوج «سانشا» ابنة «الفونسُ الخامس» لهذا السبب، فلما قُتل وجد فرصته للمطالبة بالعرش، ولكن والده «سانشو

الكبير» لم يتمهل، ولم يعمل بالحيلة، بل تقدم في قواته حتى اقتحم «ليون» وأعلن نفسه ملكًا عليها، ففر الوريث «برمودو» متحينًا الفرصة للعودة، ومرت بضع سنوات مات خلالها «سانشو الكبير» فاستغل «برمودو» ذلك، وعاد إلى «ليون» واشتبك مع زوج أخته «فِرْنَانْدُ ملك قشتالة» في حرب طويلة انتهت بمقتله واستيلاء الأخير على كل ملكه، واتسعت طموحات فرناند، وقضى على كل أعدائه، وقتل أخيه «غرسية ملك نبرَّة» بعد حروب طويلة بينهما. وتطورتِ الأحداث، ومرتِ السنون، وفي قصر «برغش» عاصمة مُلكه.

كان سِسنانْدُ يقطع الممر بخطوات سريعة، وقد تجاوز الأعمدة الرمادية، حتى وصل ودخل قاعة المحكمة الكبيرة المحاطة ببنود وأعلام الممالك التي توحدت «قشتالة، وليون، ونبرَّة، وجليقية» انحنى وألقى التحية على الملك الأربعيني وكان ذا كتف عريضة، وجبين أبيض مهيب، وعينين زرقاوين جادتين، وأنف مستقيم كان جالسًا ومن حوله أولاده الذكور «سانشو، والفونسُ، وغرسية».

- لمَ تأخرت يا سِسنانْدُ؟

- عفوًا سيدي، كنتُ أنهي أعمالي مع السفراء.

نهض «فِرْنَانْدُ» من مجلسه وتقدم نحوه:

- سِسنانْدُ بن داوود[1]! لا شك لدي بأنك تؤدي عملك على أكمل وجه، وما اخترتك إلا لمعرفتك التامة بلغة العرب، ودينهم، وأحوالهم، وعاداتهم.

- هذا شرف أن أعمل في خدمتكم، وتحت رعايتكم يا سيدي.

نظر إليه «فِرْنَانْدُ» بإعجاب، وهو يرى فيه جزءًا من تحقيق بغيته، فعندما ترك «سِسنانْدُ» «بازو» خوفًا من انتقام أهلها، التجأ إلى مدينة «قُلُمْرِيَة» ومن ثمَّ أسره «القاضي بن عبَّاد»[2] وأعجب بمواهبه، وقربه واستخدمه في السفارة بينه وبين «فِرْنَانْدُ»، ثم بعد ذلك التحق بالبلاط القشتالي، فابتسم له الملك قائلًا:

---

(1) يعرف بالإسبانية Sesnando Davidez.

(2) مؤسس سلالة بني عبَّاد في الأندلس، وأول حكامهم في مملكة «إشبيلية».

- سنوات طويلة ضاعت في الصراع بين ممالكنا، حتى ظن المسلمون أنَّا تاركيهم! لقد بذلنا جهدًا طويلًا في توحيد المملكة، حتى استقامت لنا وصارت قوة يرهبها الجميع، ولكني لم أفعل ذلك إلا ليدخل الجميع في طاعتي، وخاصة ملوك المسلمين هنا، وإلا فلستُ أنا ملك الجزيرة!

- لقد تسارعوا جميعًا في طلب الود يا سيدي، ووصلتِ إلى «برغش» مقادير كبيرة من: الذهب، والفضة، والأقمشة الفاخرة، والهدايا، وأعلن ملوك «سرقسطة، وإشبيلية، وطُلَيْطِلَة» اعترافهم بطاعتك، وتعهدوا جميعًا بأداء الجزية في موعدها.

تحدث الطفل «الفونسُ» وهو ذو شعر ذهبي مشعث وفم جميل متغطرس في تعبيره والابن الأوسط والأقرب شبهًا بأبيه:

- وهل المال هو الغاية يا أبي؟

اقترب «فِرْنَانْدُ» من ولده، وكان يحبُ تدريب أبنائه على أمور الحكم والسياسة، وبلهجة الشارح:

- المال هو عصب الدولة وعمادها، به نجهز الجيوش، ونصنع الأسلحة، ونشتري الذمم، ونحدث الفتن، على أنه ليس غايتنا في النهاية، ولكنه الوسيلة لصنع ما نريد إذ يجب قبل أن نخضعهم، أن نستنزف أموالهم وأقواتهم، فتفتقر شعوبهم وتتمنى زوالهم، ومَن كرهه شعبه، هان على عدوه.

أغمض «الفونسُ» عينيه وفتحهما:

- ما كنت لأفكر في هذا من قبل!

- بل يجب عليك أن تحسب كل شيء؛ إفقار العدو هو أول ما تنزله به من هزيمة تتلوها الهزائم، على أن الأمر لن يتوقف على إفقار الشعوب فقط، بل بهذه الأموال نشتري المرتزقة لقتالهم، ولا تنس يا الفونسُ، أنهم حتى هذا الحين أكثرية في الجزيرة ونحن بحاجة إلى أموال؛ لجلب المزيد من الرجال من خلف «البُرتات»[1]، على أن هذه مرحلة

---

(1) سلسلة من الجبال الفاصلة تمثل حدودًا طبيعية بين إسبانيا وفرنسا ومن ورائها باقي أوربا.

تتبعها مراحل، فإن سلبنا أموالهم، أضعفناهم فوق ضعفهم، وزرعنا الشقاق في نفوس شعوبهم، إذ إنه سيفرض عليهم الضرائب والمكوث لتلبية ما نريد، فيتذمرون ويثورن على حكامهم، وحينها يعلم الحكام أن جيش مملكتنا وحده من يستطيع حفظ كراسيهم وعروشهم.

هز «الفونسُ» رأسه عجبًا مما سمع، وسرت في دمائه أمنية حمل السيف وقتل كل مسلمي الأندلس، أما «فِرْنَانْدُ» فقد وجه بصره إلى وزيره «سِسنانْدُ»:

- أخبرتني عن «طُلَيْطِلَة، وسرقسطة، وإشبيلية» فماذا عن «بَطَلْيُوس» وملكها «ابن الأفطس»؟

سِسنانْدُ مترددًا وبصوت مضطرب:

- لقد رفض دفع الجزية يا سيدي.

ظهر على وجه «فِرْنَانْدُ» صدمة غريبة واحمر غضبًا، وعاد يجلس على كرسيه وقال:

- كيف يجرؤ؟! كيف سولت له نفسه أن يرد رسولي هكذا؟ ألا يعلم الحقير أنني آمر، فأطاع؟ وما هو وأصحابه إلا عمال عندي! ولكن لا بأس فليكن «ابن الأفطس» أول من نجرد له السيف، وليكن عبرة لهم جميعًا.

- لماذا لا نهاجم «طُلَيْطِلَة» وهي القريبة منا، وعاصمة ملكنا قبل دخول المسلمين إليها؟

قالها «سانشو» الابن الكبير، فالتفت «فِرْنَانْدُ» إليه:

- يجب أن نخضع كل صاحب مروءة منهم لسطوتنا؛ وإلا رأت فيهم شعوبهم المنقذ والقدوة لهم، وربما قويت نفوسهم، والتفوا حول هذا الملك أو ذاك، وعاودوا سيرتهم الأولى، ثم رأتِ الشعوب الأخرى خيانة ملوكهم الأذلاء لنا، فلربما يخلعونهم، وأخشى ما أخشى أن يؤول حكمهم لرجل رشيد، فيكون عدوًا لنا، ومواردهم كثيرة لا نستطيع مجابهتهم، إن صلح أمر قادتهم.

- تعني أن تحارب النبيل فيهم ونحمي الخائن!

- أجل يا «الفونسُ» الخائن عميلنا والنبيل عدونا.

اندفع «الفونسُ» عن كرسيه:

- دعني يا مولاي، أخرج إلى ضرب «ابن الأفطس» هذا.

- لا، لن يقود غيري هذه الحرب، فامكث أنت، وإخوتك هنا.

عبس وجه «الفونسُ» بينما قال سانشو:

- ألا يصاحبك أحد منا يا سيدي؟

- سيصاحبني «سِسنانڈُ» خبير بتلك المناطق، ونشأ فيها؛ وسيدلنا على عوراتها.

- إنه لشرف لي يا سيدي.

هز فِرْنَانْدُ رأسه:

- لتشرف على تجهيز الجيش يا سِسنانڈُ، وليستعد الجميع.

ثم تحرك تاركًا مقر الحكم، ودخل حيث زوجته الملكة «سانشا» التي كانت منشغلة بتهذيب شعرها، ولكن ما إن رأته حتى بادرت إليه:

- ما الذي غير وجه الملك؟

- الخبيث «ابن الأفطس» رفض دفع جزية المنبوذين.

- لقد كنت تتوقع مثل هذا من قبل، فلمَ الضجر من ذلك؟

- كنت أريد أن أؤخر هذه الخطوة، حتى تكتمل عدة جيشنا الذي خرج منذ فترة قليلة من حرب داخلية أرهقته.

- فلتفعل إذًا.

- لا أستطيع؛ وقع القدر! ولو لم أبادر إليه الآن؛ لاجتمع حوله الناس، وتمرد عليَّ باقي ملوك الأندلس، يقولون: هذا ملك «بَطَلْيُوس» رفض دفع الجزية، ولم يُصب بأذى؛ فلماذا لا نفعل مثله؟!

- إذًا، لا تنس ثارات أبي، لا تنس «الفونسُ الخامس» الذي سمينا به ابننا.

- ومَن ينسى إلا رجل فقد عزيمته؟ ولأجعل من ثأره نارًا تحرق ولا تبقي!

- أريد الخروج معك في هذه الغزوة، يجب أن أرى مصرع مَن قتلوا أبي.

***

(8)

بازو

أشرقتِ الشمس من خلف الآكام في مشهد بديع، وألقت بأشعتها على سنابل القمح الذهبية لتصهل «الورهاء» كعادتها، وكأنها توقظ صاحبها الذي خرج من بيته:

- صباح الخير يا ورهاء!

ثم أمسك برقبتها، وراح يداعب شعرها المسدل على رقبتها:

- يوم جميل، السماء صافية، والريح هادئة.

وبينما هو كذلك إذ سمع صوتًا:

- صباح الخير يا أبي.

التفت «مَسْلَمة»:

- أين كنت يا هشام؟

نزل «هشام» عن صهوة جواده:

- أردت أن أستنشق نسماتِ الصباح، بينما يخلو الجو من أنفاس الخلائق.

استنشق «مَسْلَمة» نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- ما أجملها مِن أيام!

- أي أيام تقصد يا أبي؟

وضع «مَسْلَمة» يده على كتف ابنه، ودخلا إلى المنزل، وكانت «سارة» تعد لهم الطعام فنظر إليها:

- أتذكرين يا سارة تلك الأيام الخوالي؟ زمن رعي الأغنام والاعتكاف وسط الأشجار، أيام الصبا!

سارة وهي تحمل الأطباق وتضعها على المائدة:

- لقد كانت أيامًا جميلة.. كم أتمنى أن تعود.

مَسْلَمة ضاحكًا:

- ورغم مرور السنين إلا أنكِ تظلين شابة في عيني كأول يومٍ رأيتك فيه.

دخلت «فاطمة» تحمل ما تبقى من طعام، ووضعته على المائدة:

- أرأيت يا هشام؟ كيف يرى عمي مَسْلَمة زوجه؟!
- ليس أحد في النساء كأمي؛ لذا خطفت قلب أبي.

فاطمة بدلال:

- وأنا ألم أسرق قلبك؟
- بلى، فعلتِ يا حبة القلب وغذاء الروح.

احمر وجه فاطمة خجلًا، ولم تتفوه بكلمه واحدة، ثم مد «مَسْلَمة» يده إلى الطعام، وكذا فعل الجميع وهم ينظرون بعضهم إلى بعض بحب وسعادة.

***

(9)

خرج الجيش الهادر من «برغش، وليون» يقطع طرق الغابات والممرات، وينتهب كل ما يقابله في طريقه، حتى عبر «فِرْنَانْدُ» في قواته نهري «دويرة، وتورمس»، ونفذ إلى ولاية «لوزيتانيا»[1]، فاجتاحها وعاث فيها، واستولى على بعض الحصون، ثم قصد مدينة «بازو» مصطحبًا معه وزيره «سِسناندُ» الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة في أراضي «الغرب» وكان يمني نفسه الرجوع يومًا إلى منشأه وموطنه الأول.

سارع أهل «بازو» إلى إغلاق أبوابها، وحدث النفير، واستعدتِ المدينة للحصار، وعادت سيرتها الأولى، وتذكر من تذكر منهم أفعال «مَسْلَمة» وفرقته زمن «الفونسُ الخامس» ونسي «مَسْلَمة» تقدم الزمان به واشتعال رأسه شيبًا، وامتطى صهوة «الورهاء» وخرج مندفعًا من بيته صوب الأسوار؛ يتفقدها ويلقي الأوامر على الرماة وحملة الرماح:

- لا تأتينا الهزيمة من قبلكم، اقتلوا كل من يحاول الاقتراب من الأسوار، مدينتنا يمكن أن تصمد لعشر سنوات، فلا يغرنكم كثرة عددهم،

---

(1) شمال «البرتغال» وهي قاصية أراضي المسلمين في ذلك الوقت من الشمال الغربي، وكانت منطقة منعزلة نائية تابعة لمملكة «بطليوس»، بيد أنها كانت لبعدها تكاد تكون مستقلة بشؤونها، وتعتمد في الدفاع على نفسها.

إنكم لا تغلبون عدوكم بعدد ولا عُدة، ولكن تغلبونهم بقوة اليقين، فاستقيموا واستعينوا بالله.

أما «هشام» فقد أراد الخروج، ولكن «فاطمة» وقفت في وجهه، وقد فزعت فزعًا شديدًا:

- لا، لن تخرج يا هشام.
- تمنعينني من الجهاد يا فاطمة؟

وضعت يدها على بطنها وبكت بكاءً شديدًا:

- هو الخوف عليك يا حبيبي، ولم تر ابنك بعد.
- إن تقاعست أنا ومَن مثلي عن الجهاد، فلن تحمينا تلك الأسوار، وسيدخلها علينا الروم، ووقتها لن يدعوا أحدًا يستطيع حمل السلاح إلا قتلوه، ولن يتركوا نساءً ولا أطفالًا.

أمسكت «فاطمة» بتلابيب ثيابه وهي تبكي:

- عد إلينا سالمًا!

ثم أمسك «هشام» بيدها وقبلها، وخرج من بيته ملتحقًا بأبيه وخرجت خلفه واقفة على باب المنزل تودعه بعينين باكيتين وقلب ولهان، حتى إذا غاب عن ناظريها عادت متثاقلة إلى داخل البيت لتجد «سارة» جالسة وهي تدعو الله أما أن يحفظ لها زوجها وابنها، ويرد كيد الكافرين في نحورهم.

***

ما إن أشرف بفرسه على أطراف «بازو» حتى أشار «فِرْنَانْدُ» لوزيره وهو ينظر إلى أسوار المدينة:

- أسوارٌ عظيمة؛ لن نستطيع اقتحامها بسهولة.
- ليس طول الأسوار وقوتها وحده يا سيدي، ولكن مَن بها من حملة السهام، إنهم من أمهر الناس على رمي السهم، وقلما طاش سهمهم.

نزل «فِرْنَانْدُ» عن صهوة جواده، وبدأ الجند في نصب المعسكر، بينما عيون المسلمين تراقب ما يحدث من فوق الأسوار:

- لترسل مجموعات مختارة من الجند تدور حول المدينة، فلا يدخل أو يخرج منها أحد إلا قتلوه، وليبحثوا لنا عن مواطن القوة والضعف في هذه الأسوار، فلعلهم يجدون منفذًا لنا إلى المدينة.

- أمرك سيدي.

تحرك «سِسنانڈُ» بينما ظل «فِرْنَانْدُ» ناظرًا إلى الأسوار، فتقدمت منه الملكة «سانشا» وأشارتِ إلى المدينة:

- هنا قُتل «الفونسُ الخامس» وهنا في قلبي نارٌ لن تهدأ قبل الانتقام له.

- ستشاهدين بنفسك كيف أفعل بهم؟

ثم دخل خيمته الملكية، وكانت قد جهزت له فجلس على كرسيه:

- لا يجب أن يطول الحصار؛ نحن بعيدون عن حاضرة ملكنا، وقريبون من سهام الأعداء، لذا يجب أخذ المبادرة ومهاجمة الأسوار.

سانشا بنبرة متسائلة:

- تريد اختبار عزيمة من فيها؟

- أجل، أريد معرفة قوتهم ومكامن ضعفهم، ولو اضطررتُ إلى التضحية ببعض الجند، فأول النصر معرفة الخصم تمام المعرفة.

مضى وقت قصير وفِرْنَانْدُ لا يقر له قرار داخل الخيمة، فهو يتحرك فيها هنا وهناك وقد وضع في رأسه ما فعله أهل «بازو» بصهره «الفونس الخامس» حتى إذا مالت الشمس صوب الغروب خرج من خيمته ليتفقد جنده وقد أمر أن يكون الجميع على أهبة الاستعداد.

وفي فجر اليوم الثاني للحصار ارتدى فِرْنَانْدُ زيه العسكري، ولبس خوذته وخرج من خيمته، فالتف حوله كبار القادة والجند ينتظرون أوامره، تحرك وسط الحشائش التي كانت تغطي الأرض خارج «بازو» حتى إذا كان في مواجهة أسوار المدينة، صاح بقوة:

- ليبدأ الهجوم الآن، يجب أن نرهقهم ونريهم عزيمتنا.

اندفعت فرقة كبيرة من الجند صوب الأسوار لاقتحامها، وارتفعت صيحات الهجوم، ولكن ما إن اقتربوا منها حتى انطلقت الأسهم ورصاصات البراغي تشق صدورهم وتخترق قلوبهم؛ فوقعوا جميعًا صرعى، ولم ينج منهم أحد،

وقد برع مدافعو «بازو» في صد الهجوم، باستخدام الأقواس المتقاطعة الكبيرة، والنُشّابِيّة التي كانت رائجة لديهم، وكان بإمكانهم إطلاق قذائف بقوة بحيث تخترق براغيهم الدروع والبذلات الواقية، وكيف لا وقد أجاد «مَسْلَمة» تعليمهم!

وهكذا فشل الهجوم الأول، ونجح الرماة المسلمون في جعل المسافة القريبة من الأسوار كخط دفاع لهم، فأُسقط في يدي الغزاة وتوقفوا مكانهم، وقرر «فِرْنَانْدُ» وقف الهجوم؛ كي لا يخسر كل جيشه.

وفي الخيمة الملكية في قلب معسكر النصارى كانت الدوقة «سانشا» تكاد تتميز غيظًا وحقدًا على أهل المدينة، وكان كل سهم يحل في صدر جندي منهم يذكرها بذاك السهم الذي أردى أباها قتيلًا، شعرت «سانشا» بخيبة أمل كبيرة، وخشيت من تكرار ما كان حتى دار في عقلها سؤال أوجعها:

- هل سيكون زوجها قتيلًا آخر تحت تلك الأسوار اللعينة؟

وجمت حتى لاحظ «فِرْنَانْدُ» فتقدم منها، وخلع خوذته قبل أن يجلس جوارها، ويقول مطمئنًا إياها:

- لا تحزني يا سانشا؛ لن أبرح مكاني هذا، ولن أعود إلى «برغش» إلا ومعي مفاتيح تلك المدينة، مهما بلغتِ الخسائر!
- أخشى عليك يا حبيبي من غدر الرماة، فهل تعدني بعدم الاقتراب منهم؟ لا أريد للمأساة أن تتكرر.
- خاب مَن لم يتعلم من دروس سابقيه، والذي حدث منذ ثلاثين سنة لن يتكرر مثله، وإنما أوقفتُ الهجوم لتحقق الهدف منه ثم طبع على جبينها قبلة حارة وأردف قائلًا:
- قريبًا ستقرين عينًا، وتدخلين «بازو» على جثث من فيها.

هزت «سانشا» رأسها، ولم تتحدث، بينما خرج «فِرْنَانْدُ» من خيمته، وراح يدور بعينه حول الأسوار؛ فاقترب منه «سِسنانْدُ» وراح يراقب معه:

- ما الحيلة في هذه المدينة؟ وهؤلاء الرماة الذين لم أر مثلهم!

أمال «سِسنانْدُ» رأسه تبجيلًا، وأظهر دهاءه المعهود:

- عندي خطة، لو أذن لي مولاي.

- هات مَا عِنْدَكَ.

- ليرتدِ الجند عباءة من طبقات ثلاث لقماش سميك مبطن، يضعونها من فوق رؤوسهم فلا يظهر منها غير عين الجندي فقط، وتتأرجح مع حركتهم، وليستخدموا دروعًا كبيرة عليها ألواح ثقيلة تكفي لتغطية الجسم بطوله، هذه الدروع يحملها رجل واحد يتقدم بينما يسير من ورائه رماة السهام، عندها سيعجز المدافعون عن إصابتهم، وإلا فالحديد سيحميهم، وليحمِ هذه الفرقة مجموعة من حملة القلاع الخشبية يشغلون الرماة عنهم، حتى يصلوا إلى أبواب المدينة، ويحرقوها أو يقتحموها.

لمعت عينا فِرْنَانْدُ:

- نعم الرأي! فلتقم أنت على صناعة تلك الدروع.

أومأ «سِسنانْدُ» برأسه، وما إن تحرك من عنده، حتى بدأ في صنع الدروع الكبيرة، والجند كل منهم يصنع عباءته بنفسه، حتى أتم ذلك في فترة وجيزة لم تتجاوز ثمانية عشر يومًا، فلما انتهى أمسك عباءة منهم ونظر إليها وعيونه تلمع قائلًا:

- بهذه ندخلك يا بازو!

ثم تحرك مهرولًا صوب «فِرْنَانْدُ» الذي كان يجلس في خيمته فما إن دخل عليه سِسنانْدُ وأعطاه العباءة حتى تفحصها بعينيه ويديه، وقال في تحدٍ:

- لقد فُتحت لنا بازو! كم صنعت منها إلى الآن؟

- ما يكفي للهجوم على المدينة يا سيدي.

خرج «فِرْنَانْدُ» من الخيمة، ووقف على بابها، وقد وضع يديه على خصريه، وصاح:

- ليرتدِ الجند الدروع، وليتقدموا صوب الأسوار.

كان مسلمو «بازو» يرون ما يحدث، وقلوبهم وجله، وما إن تقدم جنود النصارى صوب المدينة، حتى أمطروهم بالسهام، ولكن سهامهم هذه المرة لم تجد نفعًا، حيث يصعب اختراق قطعة قماش متحركة، واستمر الجنود في التقدم من وراء الدروع صوب المدينة، حتى أحرقوا أبوابها، واستطاع القشتاليون اقتحامها بمنتهى العنف وسط صرخات أهلها وعويلهم، فأمعنوا فيهم قتلًا وأسرًا.

ودخل «فِرْنَانْدُ، وسانشا» المدينة على جثث أهلها، ومعهم «سِسنانذُ» الذي هرول صوب حانوته القديم، فوجده كأن لم يكن، فقد دمره أهل المدينة بعد خروجه، فأمر الجند أن يحفروا، حتى وصل إلى ذلك السرداب الذي كان يخفي فيه كتبه المترجمة، فوجدها كما هي، ووجد عظام النساخ باقية، فأخذ الذهب الذي كان يعطيهم إياه، وأمر الجند بحمل الرفات ودفنها، كما أمرهم بحمل الكتب وهو لا يكاد يصدق أنها ما زالت هنا، ولم يهتدِ لها أحد!

وتفقد «فِرْنَانْدُ» المدينة وأمر من فوره بتحويل مسجدها الكبير إلى كنيسة، وأقام في المسجد قداسًا كبيرًا حضره كل المعاهدين من «بازو»، وما إن انتهى القداس، حتى كان كل الرماة قد قيدوا، وسيقوا إلى ساحة المدينة الكبيرة، وجلس الملكان، وكبار القادة، على منصة عالية، وأعطى «فِرْنَانْدُ» الإشارة لجنده أن يحصدوا الرماة بالسهام انتقامًا منهم، سكتت المزامير، ولم يُسمع سوى صوت خُوار السهام التي شقت الهواء وبدأتِ تنغرز في صدور المسلمين، وصرخت النساء اللاتي جيء بهن ليشهدن مصارع أزواجهن، وأبنائهن، وإخوتهن.

وفجأة، مال «سِسنانذُ» برأسه صوب الملكة وهمس وهو يشير إلى «مَسْلَمة»:

- هذا هو قاتل «الفونسُ الخامس» يا سيدتي.

هبت «سانشا» فنظر إليها «فِرْنَانْدُ» مدهوشًا من اندفاعها، فقالت:

- مُرهم بوقف القتل، أرجوك!

رفع «فِرْنَانْدُ» يده فتوقف الجند عن الرمي، وقال متعجبًا:

- هل أشفقتِ على قتلة أبيك؟

- بل لا أريد لقاتله أن يموت هكذا وسريعًا، أريد أن أقتله ألف مرة.

- أين هو؟ وكيف عرفتِه؟!

- أنا من أخبرتها يا سيدي.

- اذهب، وأحضِره إلى هنا.

تحرك «سِسنانذُ» حتى وصل إلى «مَسْلَمة» فتبادلا النظرات، نظرات الأول تفيض حقدًا وتشفيًا، والثاني نظراته عزة ولا مبالاة، مما أغاظ «سِسنانذُ» الذي قال مدعيًا الرأفة:

- ألا تطلب الصفح مني، والتوسط لدى الملك لتنجو أيها المزارع الحقير؟

بهدوء عجيب وثقة بالغة أجابه مَسْلَمة:

- كل نفس ذائقة الموت، وإنما يحرص على الحياة من أضاع آخرته، أما الحقير فهو الخائن لوطنه وبلاده.

فار غضب سِسنانڈُ، وصاح في الجند:

- خذوه إلى حيث الملك!

رمقه «مَسْلَمة» بنظرة ساخرة ولم يتفوه ولو بكلمة، وتابعه بعينه، وهو يتقدم ليقدمه قُربانًا لمليكه قائلًا:

- «مَسْلَمة بن عبد الله» هذا الرامي الذي قتل الملك «الفونسُ الخامس» منذ ثلاثين سنة.

نهضت «سانشا» وهي تزفر انتقامًا، وقالت بصوت يفوح حقدًا:

- أنت أيها الحقير تقتل «الفونسُ الخامس»، أنت!

وقف «مَسْلَمة» ثابتَ الأركان، ويداه المقيدتان مسبلتان، ونطق الحق على لسانه:

- إنما قتلت مَن اعتدى على دياري، ولو كان في بلده ما قتلته، ولا عار على رجلٍ دافع عن بلاده ودينه، ولكنَّ العار على مَن سلم واستسلم!

هز «فِرْنَانْدُ» رأسه، وتحركت زاوية شفتيه إعجابًا وسخرية في آن واحد:

- أنت فارس نبيل دافعت عن أرضك بقوة وشجاعة، ولكن رغم ذلك لن تنفعك شجاعتك هذه المرة... كيف السبيل لتطهيره يا سمو الملكة؟

ركزت «سانشا» بصرها على «مَسْلَمة» وهي تملي رغباتها:

- لولا حدة نظره ما استطاع أن يقتل أبي «الفونسُ» وهو بين جنده، فلتسمل عينيه.

قام الجنود من فورهم، فسملوا عينيه، وسالتِ الدماء على وجه «مَسْلَمة» وهو صابر لا يتحرك..

- وبيده تلك أطلق السهم؛ فلتقطع يديه.

ففُعِلَ به، وصاحت سانشا:

- ورجليه أيضًا!

فنشرت قدميه، وكانت صرخاته تكبير، ثم أمر «فِرْنَانْدُ» فأشعلوا النيران في جسده الضعيف، وهو يصيح:

- أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَهُ.

أسلم مسلمة الروح، والغزاة يستمتعون برائحة الشواء التي أزكمت أنوفهم، وكأن الحرق هو طريقهم ودأبهم وسلاحهم، وليس حرق المدن فقط، بل حرق الأرواح والقلوب.

***

(10)

استطاعت «فاطمة» أن تنجو بحملها؛ إذ أعملتِ الحيلة لذلك، فعندما ملك القشتاليون «بازو» تنكرت في ثياب الراهبات، ورسمتِ الصليب على يديها، فلم يقترب منها أحد من الجند، وتركوها على حريتها، ولما خرج «فِرْنَانْدُ» ودعتِ المدينة، وسارعت بالخروج مخافة أن يفتضح أمرها، وظلت متنكرة في زي الراهبات حتى اقتربت من حدود مملكة «طُلَيْطِلَة» وحيدة ليس معها أحد، وما إن اطمأنت أن لا أحد يتتبعها حتى استراحت تحت ظل شجرة، وكانت «الورهاء» تحتها.

رفعت «فاطمة» قربة الماء وارتشفت منها القليل، ثم راحت تنظر بعينيها هنا وهناك، وعيناها تدرَّان الدمع حزنًا على فراق أحبة لن تلقاهم مرة أخرى، زوجها الشاب الصغير وأبوه «مَسْلَمة» وأم زوجها خالتها «سارة» تذكرتها وهي بين يديها تعاني آلام مقتلهم، وتوصيها:

- أحسني تربية حفيدي يا فاطمة، واغرسي في قلبه الشجاعة، ليكن كجده لا يخشى إلا الله، اخرجي به من «بازو».

«فاطمة» والدمع يترقرق في عينيها:

- كيف أخرج وأتركك يا خالتي؟

- افعلي ما أمرتك به، واحفظي حفيدي.

لم تتحرك «فاطمة» ولم تدر ماذا تفعل؟ فنهرتها سارة:

- يا بنيتي لن أستطيع الحركة مع هذه السن، ولا يخشى عليَّ هنا؛ إذ إنهم لن يستفيدوا من أسري، ولن يطمعوا في جسدي، أمَّا أنتِ فصغيرة، لن يرحموا بكاءك وتوسلاتك إن وقعت في أيديهم؛ فاخرجي الآن قبل أن يحاط بنا.

نهضت «فاطمة» بعد أن قبلت رأسها، ومسحت عينيها وجففتهما من الدمع، ثم تحركت خطوات للأمام، والتفتت مرة أخرى، وما تمالكت نفسها، حتى عادت وهوت على وجه «سارة» تقبله، ثم نهضت مرة أخرى فقالت سارة:

- في هذا الصندوق ستجدين زيًا للراهبات عليك به؛ فهو ما سيخرجك من هنا.

هرولت «فاطمة» صوب الصندوق ففتحته، وارتدت ما به من ملابس، وخرجت من الباب، بينما تبسمت «سارة» قبل أن تغمض عينيها للأبد.

نزل دمع «فاطمة» مدرارًا ووضعت يدها على بطنها، وانتحبت، ثم قامت وأمسكت بلجام «الورهاء» وقبلتها:

- لم يبق غيري وغيرك يا ورهاء! غرباء في هذا المكان!

ثم مسحت دموعها، وسحبت «الورهاء» حتى أوردتها الماء، وفجأة أتاها المخاض، وشعرت أن رحمها يتمزق، ومطارقًا تطرق بقوة جسدها ورأسها، فصرخت من الألم صرخة مدوية، أفزعت «الورهاء» فركضت بعيدًا عنها، وتركتها بمفردها على ضفة النهر لا حول لها ولا قوة.

***

(11)

لميقُة[1]

وفي «لميقُة» وتحت شمسها الدافئة كان «فِرْنَانْدُ» يعاين المدينة التي اقتحمها بعد خمسة وعشرين يومًا فقط من استيلائه على «بازو» وهو على ظهر حصانه، وبجواره «سانشا» ومن ورائهم «سِسنانْدُ» الذي يدلهم طوال

(1) Lamego الواقعة شمال بازو.

الحملة على مداخل البلاد، ومكامن قوتها وضعفها، والملكة تنظر بعين الإعجاب إلى تلك المباني الجميلة حولها ولا تتحدث، لاحظ «فِرْنَانْدُ» ذلك فقال:

- لمَ الصمت يا حبيبتي؟

- تذكرت دماء سالت هنا، فوجمت للحظة، وتمنيت أن يكون أبي بيننا الآن ينظر إلى مصارع قوم قتلوه.

- قطعًا هو يرانا الآن، وسعيد بما أنجزنا؛ فلا تحزني، لن أجعل لهؤلاء موطن قدم في هذه الجزيرة، ولأكملنَّ ما بدأه الراحل «الفونسُ» العظيم!

ابتسمت «سانشا» سرورًا، ثم ساد الصمت لحظة قالت على إثرها:

- هل جمع «سِسناندُ» الكتب كما قال؟

- أجل يا سيدتي، معي مقادير كبيرة من الكتب، وأستأذنكم في حملها إلى «سلمنقة».

ترك «فِرْنَانْدُ» جيشه في «لميقة، وبازو» بعد أن قتل معظم أهلها، واسترق الأسرى من أهل المدينتين، وأسكن بهما النصارى، وأرسل يطلب من «المظفر بن الأفطس» دفع الجزية والإتاوة، بيد أن الأخير رفض، فاندفع «فِرْنَانْدُ» يُغِيرَ مرَّة أخرى، فبعث بحملة من عشرة آلاف جندي عاثت تخريبًا وقتلًا في أراضي المسلمين، ولم تلقَ مقاومة تُذْكَر، حتى وصلت مدينة «شَنْتَرِين» الواقعة على نهر «التاجة»، وكان «ابن الأفطس» على علمٍ بتحرُّكات النصارى، فسبقهم إلى هناك، وعَلِمَ أنه لا قِبَلَ له بجيشهم، فعرض عليهم الصلح والهدنة، واضطر في النهاية أن يتعهد بدفع الجزية السنوية وقدرها خمسة آلاف دينار.

***

تتابع جريان نهر الحياة، ومرت خمس سنوات.

وبينما هي تتأمل ملامح طفلها الصغير وهو يلعب مع الغلمان، وتلوح له بيدها، فيبادلها، ويفتر ثغره عن ابتسامة جميلة ورثها من جدته «سارة»، تذكرت يوم ولادته بعد أن تركتها «الورهاء» وهي فزعة لتخرج على الطريق، وتعترض قافلة صغيرة، وهي تجلجل وتقبع بحنجرتها، وترفع قدميها الأماميتين وتضرب بهما الأرض بقوة. فنظر «جعفر» وكان رجلًا مفتول

العضلات بارز الصدر يحمل على ظهره كنانة مليئة بالأسهم ليحمي نفسه من قطاع الطرق:

- ما وراء هذا الفرس؟ وأين صاحبه؟

ولكز بطن جواده الأدهم، وانطلق بخفة عجيبة، يعدو وراء «الورهاء» حتى وصل إلى النهر، ووجد «فاطمة» مغشيًا عليها، وهي في زي الراهبات، فحملها مع قافلته، وسار بها إلى أقرب قرية، وهناك قامت القابلة بتوليدها، وخرجت بالمولود الذي علا صوت صراخه، ووضعته في يده مستبشرة ظانة أنه والده.

فحمله «جعفر» بين يديه، حتى هدأ الصغير، وقد ضم كلتا يديه أسفل ذقنه، ونام في حضنه بأمان، فأحس «جعفر» أنه سلبه قلبه، وكساه مما معه من أقمشة، ووضع معه كيسًا من المال، وأرجعه إلى «فاطمة» وانصرف.

لم تدر «فاطمة» عن أي مما حدث معها، ولكنها علمت أنَّ الذي أنقذها، تاجر أقمشة من «طُلَيْطِلَة» وقد اشترت بالأموال التي تركها بضعة أغنام، عملت على رعيها، وعاشت مع صغيرها في خيمة داخل هذه القرية الفقيرة، ولكن هذه الحياة لم ترضها له، وأرادت أن تذهب بابنها «زياد» الذي رأت فيه ملامح النجابة والفطنة لجامع كبير، يدرس فيه العلوم، فاتخذت من «طُلَيْطِلَة» وجهة لها، وشدت إليها الرحال، وما إن وصلت إلى أبوابها حتى وجدت الناس في تخبط، والكثير من المهجرين مثلها ينتظرون فتح الأبواب للدخول، وقد أصابهم الفزع، يستغيثون بملكها، ولا حديث لهم إلا عن «فِرْنَانْدُ».

وكأنَّ عدوها كان وراءها بالمرصاد، فقد أحس بأنَّ الطريق بات مفتوحًا أمامه لمهاجمة مملكة «طُلَيْطِلَة» بغيته الكبرى وأمنيته الأولى، وأخذ يعمل على شق طريقه إليها، ولم يدخر وسعًا، فهاجم حدودها الشمالية الشرقية؛ وأغار على «مدينة سالم، وأوسيدا، وطلمنكة، ووادي الحجارة، وقلعة النهر»(1) وعاث في بسائطها فسادًا وتخريبًا وسبيًا، وما هي إلا أيام وربما يكون على أعتاب «طُلَيْطِلَة».

خشيت «فاطمة» على نفسها، وابنها فضمته إلى صدرها، وهي ترتجف، فهي لم تشأ أن تلاقي في طُلَيْطِلَة ما رأته في «بازو» ولا تريد لطُلَيْطِلَة أن

(1) Medinaceli ،Guadalajara ،Alcalá de Henares.

يكون مصيرها كبازو، وبينما هي تنتظر حولها في حيرة لا تعرف إلا أين تتجه؟ فوجئت بباب يُفتح، ويخرج منه وفدٌ ملكي ومن بينهم الملك نفسه.

وقفت «فاطمة» على جانب الطريق، حتى مرَّ الموكب من أمامها مخلفًا وراءه سحابة من الغبار، وكان به من الأبهة والفخامة ما أذهلها! وسمعت مناديًا يقول:

- يا أيُّها النَّاس! اطمئنوا، وأبشروا، خرج ملكنا «الْمَأْمُون»، لعقد الهدنة مع إمبراطور الروم.

وبالفعل هرع «الْمَأْمُون» مسرعًا إلى معسكر «فِرْنَانْدُ»، وجمع معه الكثير من الذهب والفضة، والأقمشة الفاخرة، وقدم له الهدايا اعترافًا بطاعته، وتعهد بدفع الجزية له، فقبل «فِرْنَانْدُ» المال والعهد، وعاد مثقلًا بالغنائم والتحف. ولما اطمأن إلى ولاء «الْمَأْمُون بن ذي النُّون» خرج بقوَّات كثيفة في العام التالي، وأغار على مملكة «إشبيلية» وأحرق قراها وخرَّب أراضيها، فلم يجد ملكها «المعتضد بن عبَّاد» بُدًّا من أن يحتذي حذو الْمَأْمُون، وهرع مسرعًا إليه في معسكره وقدَّم له الهدايا؛ معلنًا الولاء والطاعة، كما عرض عليه الصلح والمهادنة والسلم فقَبِلَ منه! وطلب منه أن يسلمه رفات القديسة «يوستا[1]» فوافق «المعتضد»، وحقق رغبته، وحُمِلَ الرفات في احتفال فخم، ونقلت إلى «ليون».

***

(12)
معركة جرادوس

8 مايو 1063م

تحت أسوار قلعة «جرادوس» وفى الوادي الواسع قرب النهر، لمعت السيوف تحت أشعة الشمس وانطلق الجيشان، صوب بعضهما، الرماح مشرعة والخيول تعدو، حتى احتدمت في معركة عامة، واصطكت السيوف، وطارت الرؤوس، ومزقت الأجساد، وفوق ربوة عالية قرب المعركة كان الأمير

(1) Santa Justa التي استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودُفِنَتْ بإشبيلية.

«سانشو بن فِرْنَانْدُ» على رأس قوة قشتالية مكونة من ثلاثمئة فارس، وفوق جواده تابع بعينه ما يحدث وهو يبتسم، فقال لصديقه الشاب، ومعاونه وقائد قوته «لُذْرِيق دياث[1]»:

- إنه أمر ممتع يا روي! مشاهدة الحروب أفضل من السماع عنها.
- انظر إلى هؤلاء العرب كيف يقاتلون ببراعة؟
- براعتهم في سيفهم لا عقلهم! إذ كان الأجدر بملكهم «المقتدر[2]» أن يستعين ببني ملته، لا يطلب العون منا، ونحن مَن نريد لهم الزوال.

في نفس اللحظة على الجهة الأخرى كان «المقتدر» يتابع المشهد فزعًا مكفهر الوجه وقد دام القتال صدرًا كثيرًا، والمسلمون في خسران، فدعا رجلًا من رجاله يسمى «سعدارة» لم يكن في الثغور أعرف منه في الحرب فقال له:

- كيف ترى هذا اليوم؟
- هذا يوم أسود، ولكن بقيت لي حيلة.

اختفى «سعدارة» من الميدان، وفجأة بعد لحظات ارتفعت الصيحات:

- قُتل الطاغية... قُتل ملك أرَغون!
- الله أكبر، الله أكبر!

اشرأب «سانشو» بعنقه، وهو يحاول معرفة ما يحدث أمامه، فقد رأى مجموعة من جنود الأرَغون يحتشدون في الوسط، بينما ينسحب البقية للوراء، وجيش «المقتدر» يمعن فيهم القتل:

- ما الذي يحدث يا رُوي؟
- يقولون إن الملك «راميرو» قُتل!

ضحك «سانشو» وقال باستخفاف:

- لن يحزن أبي كثيرًا، فهو وإن كان أخاه الكبير إلا إنه غير شقيق، وقد كان يطمح في توسيع مملكته الصغيرة المحشورة بين الممالك

---

(1) Rodrigo Díaz de Vivar.

(2) أبو جعفر أحمد بن سليمان المقتدر بالله ملك طائفة «سرقسطة» الثغر الأعلى في أقصى الشمال الشرقي للأندلس.

المسيحية، ولكن لأنه يخشى أبي فما كان منه إلا أن سعى نحو جيرانه المسلمين في الجنوب، لكي ينال نصيبه من أراضيهم.. وها هو نال نصيبه من الجنة أو ربما الجحيم.

- أمسرورٌ بقتل عمك؟!

- لن تهمنا النتيجة في النهاية، ما دمنا جئنا لمعاونة «المقتدر» كما أمرنا أبي دون الاشتراك في المعركة، ولكن مَن قتله؟ وكيف؟ أرسل من يأتي لنا بالخبر؟

- سأوافيك به بنفسي.

ركل «لُذْرِيق» بطن جواده حتى دخل معسكر المسلمين، وكانوا يصافحون ويعانقون بعضهم احتفالًا بالنصر وفك الحصار عن القلعة، ورد النصارى يجرون أذيال الهزيمة، عرف منهم ما حدث، وعاد على وجه السرعة إلى أميره يخبره:

- لقد تسلل جندي مسلم يُدعى «سَعْدَارة» يتحدث اللاتينية جيدًا إلى معسكر الأرَغون، فانغمس فيهم متنكرًا في زي مسيحي، ثم صعد إلى الملك «راميرو»، وكان مكفنًا في الحديد مسلحًا من رأسه حتى أخمص قدميه، وقناعه متدلٍ لأسفل، لا يظهر منه سوى عينيه، ولما اقترب منه جعل يتخيله، ويترصد غرته إلى أن أمكنته الفرصة، فاندفع نحوه، وطعنه بحربة في رأسه، فخر صريعًا على يديه وفمه مخضبًا في دمائه، ثم أخذ «سعدارة» ينادي بلسانهم:

- قتل السلطان يا معشر الروم!

فشاع قتله في المعسكر، وتخاذلوا وولوا منهزمين، وولده «سانشو» الآن يولول عليه.

- ويل للعرب! لقد فتحوا على أنفسهم الجحيم! إنهم لا يعرفون مَن يدعم «راميرو» ومَن وراؤه! هيا دعنا نعود أدراجنا؛ انتهى دورنا، وربما نرجع مرة أخرى إلى ملك «سرقسطة» بوجه غير الذي رآه.

***

(13)

قُلُمْرِيَة[1]

- ليكتمل لك الغرب يا مولاي.

قالها «سِسنانْدُ» بينما راح «فِرْنَانْدُ» يفكر كيف سيخرق عهد «ابن الأفطس» إن عاود الإغارة على أراضيه:

- ولكن يا سِسنانْدُ «قُلُمْرِيَة» ليست بالمدينة السهلة، كما أن لها حواجز منيعة.

- سيدي، لقد جئت من هذه المنطقة وأعرف مداخلها ومخارجها وموطن ضعفها وقوتها والأنهار والجبال، سأوافيك بخبرها إذا كنت ترغب في ذلك، كما يمكنني إخبارك بعدد المسلمين الموجودين هناك، وكيف أن الحُرَّاس لا يهتمون بالمدينة.

نظر «فِرْنَانْدُ» إلى من حوله، ثم ثبت بصره على «لُذْرِيق» الجندي الشاب الذي ذاع صيته، لمهارته الحربية، ودرايته بعادات العرب فقال:

- ما قولك يا رُوي؟

- بالتأكيد سيساعدك الرب على الفوز بهذه المدينة! كما إنني حريص جِدًّا على أن أحارب بين يديك، وأعتقد حان الوقت لأحصل على لقب فارس.

تهللت أسارير «فِرْنَانْدُ» ونهض من مجلسه، وقال بصوت حماسي:

- أخبروا الرهبان أننا سنأخذ جيشًا إلى «قُلُمْرِيَة»، وأبلغوا الشعب ليتجمع ويمضي قدمًا في إحداث كل ضرر ممكن حولها، ليدمروا الأراضي، وينسفوا الزروع والثمار، فلا تتمكن المدينة من تخزين مؤنٍ للحصار.

سعد الجميع، وهتفوا:

- عاش الإمبراطور العظيم! فِرْنَانْدُ الأول.

اقتربت «سانشا» من الملك، والحماس يلمع في عينيها:

---

(1) Coímbra.

- سيدي أريد أن أؤدي واجبي الديني وأحج إلى «القديس يعقوب[1]» لأصلي هناك من أجل روح أبي، ونحن هنا قريبون من «جليقية» فهل تأذن لي؟

- أنا أيضًا بحاجة إلى التماس العون من قداسته.

انطلق «فِرْنَانْدُ» صوب الشمال حيث قبر «القديس يعقوب» فصلى هناك، وطلب العون والبركة، وقضى ثلاثة أيام في صلوات وخشوع، مقدمًا عطايا عظيمة.

***

اِنْتَشَرَ الْغَيْمُ في السماء، وشكلت السحب جيوشًا عاتية، وبدأ البرد يضرب بقوة، بينما وقعت عينا «فِرْنَانْدُ» وهو على حصانه، على «قُلُمْرِيَة» تلك الجميلة القائمة على تل مرتفع فوق جبل مستدير، وعليها إزار من سور حصين له ثلاثة أبواب، يجاورها نهر بديع الوضوح والنقاء، تدور عليه أرحاء، وتنظر شُرفاتها إلى بحر المحيط من بعيد، ورغم أنها مدينة صغيرة فإنها متحضرة عامرة كثيرة الكروم والتفاح والقراسي، أراد «فِرْنَانْدُ» قطف ثمارها، وضرب الحصار، وقطع عن أهلها كل طريق، ورغم كثافة جيشه فإنه فشل في الاقتراب من الأسوار، فهي محصنة بشكل طبيعي في رأس جبل ترابٍ.

وكان قائدها «رانده» قد توقع الشر فحسب له حسابه، وسارع في غلق أبواب مدينته الصغيرة، واستعد للقتال، واستمر الحصار وقت طويل، والمدينة تقاوم وترسل في طلب النجدات من «المظفر ابن الأفطس» الذي لم يستطع التحرك لنجدتها، رغم كونها تحت إمرته مكررًا نفس أخطائه تجاه «بازو، ولميقة» وقد كان حريًا به أن يفعل، بل إنه لو فعل لفك الحصار، ولربما استعاد «بازو» وباقي المدن المحتلة، ولكنه جبن عن الخروج للجهاد ظَنًّا منه أن النصارى سيقتنعون بـ «قُلُمْرِيَة» ويتركونه على عرش «بَطَلْيُوس»!

ومرت ستة أشهر، والمدينة محاصرة، وصامدة حتى تسرب اليأس إلى قلوب الجند، خاصة وأن أطعمتهم قد بدأت تنفد، وبينما «فِرْنَانْدُ» يتحرك بين

---

(1) Santiago.

قواتِ الجيش يرى ما حل بهم من ضعف وجوع، يصارع في نفسه قرار العودة والرجوع، هرول «سِسنانْدُ» نحوه ليسير بين يديه، فوبخه:

- سيهلك الجند من الجوع، وهذه المدينة التي جئت بنا إليها ستقضي علينا!
- ماذا لو طلبنا العون من دير «لورفان» القريب من هنا؟
- العون! أي عون يستطيع هؤلاء تقديمه؟
- الطعام يا سيدي.
- أوَتظن أنهم فاعلون؟
- قطعًا يا سيدي، فهم منا، وإن كانوا تحت حكم المسلمين، ثم إنهم يعلمون أن الغلبة في قادم الأيام لنا، فلن يتأخروا أبدًا عن مساعدتنا بما يملكون من أموال، ولي صلة قريبة بهم يا سيدي، فقد كنت أتردد عليهم كثيرًا في الزمن الغابر، فلو أذنت، فلأفعل وليرَ مني الملك ما يسره، ولا يقول العرب «رجع الإمبراطور عن مدينة بعد أن تقدم وحاصرها!»

صمت «فِرْنَانْدُ» برهة، يفكر ثم قال بعدها:

- لا بأس، فليذهب معك روي، ولديكم أربعة أيام إن لم تعودوا بالمؤن سنفك الحصار.

أومأ «سِسنانْدُ» وتحرك في رفقة مجموعة من الجند حتى دخل إلى الدير، ولم تمض مدة كبيرة حتى عاد، وخلفه ما يكفي الجيش لسنوات عديدة من أبقار، وغنم، وخنازير، وحنطة، وخبز، ونبيذ، وسمك، وطيور، كما عاد ومعه بعض الرهبان الذين تطوعوا في القتال مع «فِرْنَانْدُ»، فاستقبلهم الأخير بحفاوة بالغة حتى قال له أحدهم:

- إن كانتِ القوة لم تصلح في فتح المدينة، فستنجح الحيلة والطمع، و«رانده» هذا يحب الأموال كثيرًا، فلو عرض عليه مولانا الملك المال والأمان، قطعًا سيلبي، ولي عنده دالة يا سيدي، فلو أردت لتدخلتُ في الأمر.

- بالتأكيد يسعدني ذلك، فالمال آخر ما نفكر فيه، وإنما نأخذه منهم لنطردهم به.

- إذًا، ليسمح لي الملك بالدخول إلى المدينة.

- ادخل إليه، وتحدث معه، واعلم أن كل مال مبذول فداء لهذه الأرض.

نفذ الراهب إلى المدينة، وكانت في حالة يرثى لها، ودخل على «رانده» وقال له:

- أخلِني بنفسك أيها الأمير.

أمر «رانده» حرسه بالخروج، وتحدث الراهب ببطءٍ مصطنع:

- لم أدخل إلى هنا إلا بدافع محبتي لك، وقد رأيت عزم الملك «فِرْنَانْدُ» على أخذ المدينة، وليس لكم طاقة بدفعه، وليس له حاجة في قتلك، وقتل رجال المدينة، ولم يتقدم أحد لنصرتكم طيلة هذه الشهور، فلماذا لا تحقن دمك وتتركها له؟ فهو داخلها عاجلًا أو آجلًا.

نهض «رانده» غاضبًا، وبصوت مرتفع قال:

- أتسمع أذنيك ما تقول؟ تريدني أن أستسلم؟!

- بل أريد أن تنظر إلى الأمور بحكمة القائد المجرب، ها أنت ذا أيها الأمير، تقاتل منذ شهور، فلا انتصرت، ولا وافاك صاحب «بَطَلْيُوس» بالنجدات، وخصوصًا وقد شاهد عزم الملك على أخذ المدينة، وقد قاربت مؤونة «قُلُمْرِيَة» على النفاد، فهل سيصبر العامة على الجوع؟

- نحن نعول على الصبر في قتالهم، فلن نكون أقل صبرًا؟

- لأنك محصور، أما هم فالطعام يأتيهم تباعًا من بلادهم، أما أنتم فمهما كانت مؤونتكم فمصيرها إلى نفاد، وعندها لن يرضى «فِرْنَانْدُ» باستسلام يحفظ أرواحكم، وهو يعلم أنه استسلام يأس ونفاد مؤونة.

ران الصمت على «رانده» وعاد إلى كرسيه داخل قصره، وقد شعر بفداحة الخطب فقال بعد تردد:

- حتى إن فعلت ذلك، فلن يقبل أهل المدينة، وقد عزموا الجهاد، فإن خرجت فيهم وقلت بقولك، فلربما قتلوني.

- وإن طاوعتهم، ستُهلك المدينة ومن فيها يا سيدي، هؤلاء العامة لا يحسنون السياسة، فهل نسمعهم فيما يعرض حياتهم للخطر؟

صمت «رانده» وقد بعثرت أوراقه، فاقترب منه الراهب، وقال بصوت كالشيطان:

- تخَرج من المدينة في غفلة من أهلها، فإن دخلها الملك كنت في مأمن مما سيحيق بمَن فيها، والملك يعدك بمال وفير وحماية إن أردت المقام في «برغش» فماذا تقول؟

سَهمَ وجه «رنده» وعصفتِ الأفكار في رأسه، فهتف به:

- اتركني وحدي الآن.

- كما تحب يا سيدي.

همس بها الراهب، ثم أخرج من ثيابه كيسًا كبيرًا من الذهب:

- وهذه هدية من الملك لك.

خرج الراهب، و«رنده» صامتٌ شاردٌ ببصره طويلًا، حتى إنه لم ينم ليلته تلك، وفي الصباح أرسل إلى الراهب، وحين مثُل أمامه قال:

- أوافق على الخروج من المدينة، على أن يعوضني الملك بما يكفيني من أموال وذهب.

ابتسم الراهب في خبث:

- كل ما تريده مجاب.

وفي المساء التحف «رانده» برداء الظلام، وسار مع أهله متخفيًا إلى أن خرج وترك المدينة، أمَّا الراهب فلم يخرج منها، بل عمد سِرًّا إلى النصارى المعاهدين، واتفق معهم على إثارة الفتن، فكان المعاهدون يخرجون في الشوارع والطرقات يندبون حظهم، وقلة أقواتهم، وكساد تجارتهم، ويلقون باللوم على المدافعين، ويثيرون القلاقِلَ. وفي الصباح نادى منادٍ من معسكر النصارى:

- لقد استسلم قائدكم، فلمَ تقاتلون؟!

أجابه رجلٌ غيور من المجاهدين:

- لم، ولن يستسلم أحد.

ابتسم «سِسنانْدُ» وأظهر «رانده» فسُقط في أيدي المسلمين، وتأكدوا من خيانة قائدهم، ولكنهم رفضوا الاستسلام، وتولى أحدهم مهمة ترتيب الدفاع عن المدينة، وبعد أيام نجح القشتاليون في إحداث عدة ثغرات بالأسوار بمساعدة المعاهدين من أهل «قُلُمْرِيَة»، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم تاركين أموالهم للفاتح، ولكن جند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق، واستمروا في الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة، وأسروا من المدافعين وأهل المدينة، أكثر من خمسة آلاف. ثم أرسل «فِرْنَانْدُ» ليطلب رئيس الأباتي والإخوة الذين كانوا مع الجيش يصلون نيابة عنهم، ويمرضون المرضى، ويدفن في الدير من ماتوا.

ودخل «فِرْنَانْدُ» «قُلُمْرِيَة» في 11 يوليه 1064م، ومعه الملكة «سانشا»، ورهط من الأساقفة، ورجال الدين، وحول مسجدها الكبير إلى كنيسة كعادة متبعة في كل بلد يدخلونه، وأقيمت فيه مراسم الاحتفال بحضور مجموعة من الحاشية والفرسان، جاءوا بفرح ليباركوا الملك على نصره. ثم جاء رهبان دير «لورفان» بتاج من ذهب وفضة مرصع بحجارة كريمة، وعندما رآه «فِرْنَانْدُ» قال للراهب:

- لماذا تأتي بهذا التاج إلى هنا؟
- لتأخذه مقابل الخير الذي صنعته بنا.
- لن آخذ من ديرك ما أعطي من الصدقات بأي حال من الأحوال.. استعد التاج، وبهذه الأموال أقم صليبًا هنا ليبقى معك إلى الأبد، وبما إني ربحت هذه المدينة بمشورتكم وفضل الله، فربما يكون لكم منها ما تريدون.

أجاب راهب الدير:

- نشكر الله أن في ديرنا من خيرك وفضل أجدادك كل ما يحتاجه، ولا نطلب منك إلا أن تعطينا كنيسة واحدة، مع بضع مساكن لها في المدينة، وتؤكد لنا بذلك.

التفت «فِرْنَانْدُ» إلى «سِسنانْدُ»:

- حقًّا هؤلاء الرجال هم من الله، لا يطلبون شيئًا تقريبًا! وبما إنهم لا يريدون سوى القليل، فلنُجِب طلبهم.

ثم نظر إلى «لُذْرِيق» وقد أراد تكريمه، بسبب قتاله الوحشي ضد المسلمين، وإقدامه في أثناء ضرب الأسوار، فأشار له ليتقدم، فركع «لُذْرِيق» أمامه، وحزمه الملك بسيفه، وأعطاه قبلة، ولم يصفعه بضربة كما كانت العادة في كثير من الأحيان لمنحه الشرف الأكبر، ومنحته «سانشا» زمام جوادها، وربطت الأميرة «أُرّاكة» ابنتهما الكبرى شريطة على سيفه، وأخذ «لُذْرِيق» سيفه أمام المذبح وجُعل منه فارسًا، حتى إنه تم تكريمه أكثر من أي فارس آخر. ثم قال «فِرْنَانْدُ»:

- والآن وقبل أن ننصرف علينا أن نعين واليًا للمدينة، ولن نجد أفضل من «سِسنانْدُ» حاكمًا عليها، ولنمنحه لقب الدوق.

انحنى «سِسنانْدُ» أمامه، وقبل يده:

- أشكر مولانا الإمبراطور على ثقته، ولكني أفضل أن يطلق عَلَيَّ لقب الحاجب[1].

أحضرت المواثيق وأقرها «فِرْنَانْدُ» ووقع الوثائق، كما فعل أبناؤه أيضًا.

***

(14)
في «طُلَيْطِلَة»

حرك النسيم العليل ذوائب الشجر المحيط بمنزل «جعفر القماش»، وبداخله كانت «فاطمة» تساعد زوجها على ارتداء سترات مبطنة تقوم بربطها له، فمد إصبعيه ووضعهما على طرف ذقنها، ثم أدار وجهها برفق ناحيته، لتنظر هي بحزن إليه، فأسبل عينيه، ورمقها بنظرات حانية:

- لا أريد الخروج وأنتِ على هذه الحال.

---

(1) أو(القنصل) وهي وظيفة كبير محضري البلاط وظيفة فخرية يحصل عليها أشخاص مرموقون.

- ليس لي غيرك يا جعفر، فلمَ تتركني أكتوي بنارك بعدما ذقتُ الأمان إلى جوارك؟ ثم إن ملكنا «الْمَأْمُون» لن يشارك في الحرب، فلمَ تلقي بنفسك فيها؟

- ويحك يا فاطمة! ألا أجيب داعي الجهاد، وأقعد عن نصرة المظلوم، والذَّبَّ عَنْ حِيَاضِ الدِّينِ؟ أهل الصليب يتكالبون علينا، ونحن نقول: مَأْمُون، ومقتدر! إن لم يشارك «الْمَأْمُون» في ذلك لخلاف ذميم بينه وبين «بني هود» فقد دعا للجهاد الشيخ «أبو الوليد الباجي[1]» حفظه الله، وقد أيقظ الهمم ودفع العزائم، وهناك استجابة واسعة في ربوع الأندلس.

جلست «فاطمة» وأطرقت رأسها في أسى:

- كلما أتذكر ما حدث في «بَرْبَشْتر[2]» من وحشية أصاب بالرعب الشديد.

في تلك اللحظة كان يدور في خيالها صورة لما سمعته عن المذبحة المروعة التي وقعت عقب مقتل «راميرو»، حيث بادر البابا «الإسكندر» إلى إصدار وعوده ببذل صكوك الغفران لكل من قاتل المسلمين في الأندلس، وشرع بتأليف جيش صليبي من أربعين ألف مقاتل من أجل مواصلة عمل «راميرو» وحماية مملكة «أرَغون» التي اعتبرها جزءًا من إقطاعاته، ولتحطيم قدرات المسلمين، هجمت قوات «فرنسية، وبورغندية، وبابوية معظمها من النورمان الإيطاليين، إضافة إلى جيوش من قطلونية، وأرَغون» على مدينة «بَرْبَشْتر» وحاصروها مدة أربعين يومًا، وخنّقوا على أهلها حتى أوشكت أقواتهم على النفاد، ثم تعرض أهل المدينة لخيانة من داخلها بعد أن دلّ أحدهم العدو على السرب الداخلي الذي كان يمد المدينة بالماء من النهر تحت الأرض، فقطعوا عنها الماء، وتمكنوا من دخولها بعد مقاومة باسلة لسكانها، حتى أوشكوا على الهلاك عطشًا، وفاوضهم قائد الحملة[3] على التسليم مقابل تأمينهم على أنفسهم وأولادهم، وأن يخرجوا دون أموالهم، لكنه لم يوف بعهده، فبينما هم فارون من الظمأ مع الأمان، رأى الطاغية كثرتهم وانتشارهم،

(1) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي. فقيهٌ مالكي ومحدّثٌ وقاضٍ وشاعر.

(2) Barbastro مدينة تابعة لمملكة سرقسطة الثغر الأعلى للأندلس.

(3) Guillaume de Montreuil من أكابر فرسان عصره.

وهاله ذلك وخاف أن تدركهم حمية، فأمر أصحابه وأعملوا فيهم سيوفهم قتلًا وتشريدًا وسبيًا، وارتكبوا مجازر مروعة، وقُتل من المسلمين خلق عظيم قرابة ستة آلاف، والأئمة والمتدينون، والقومة والمؤذنون، يجرهم الأعلاج كما تجر الذبائح إلى الذابح، يكبون على وجوههم في المساجد صاغرين، ثم أضرمت عليهم نارًا حتى صاروا رمادًا، والكفر يضحك وينكي، والدين ينوح ويبكي، وكان عداة الله يومئذ يتولّعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم وعلى أعينهم إبلاغًا في نكايتهم، يغشون الثيب ويفتضون البكر، وزوج تلك وأبو هذه موثق بقيد أسره، ناظر إلى سخنة عينيه، فعينه تدمع، ونفسه يتقطع، أفاقت «فاطمة» من شرودها على صوت «جعفر»:

- دعي الخوف جانبًا يا فاطمة؛ هذه المرة ليست كغيرها، في الاتحاد قوة، والخير كل الخير فيه، وها هي ظلاله الوارفة تعم الجميع، وستكون غزوتنا مباركة بإذن الله، وسنري أعداء الله حجمهم الحقيقي.

- وأنا أريد أن أخرج معك للجهاد.

قالها «زياد» الصغير وهو يجذب طرف عباءته، فرفعه «جعفر» وقبل وجنته الناعمة المتوردة، ومسح على رأسه مداعبًا:

- بل سأتركك مع والدتك لتنوب عني في حمياتها أيها الفارس.

***

وجد «رانده» نفسه خائبًا خاسئًا بلا حماية كما وُعِد، فذهب إلى «بَطَلْيُوس» يطلب الصفح من ملكه «المظفر بن الأفطس» فاستقبله الأخير بجفاء وامتهان:

- بئس الحاكم أنت! تترك المسلمين ليذبحوا، تترك الأرض التي رويت بدماء المجاهدين! أنت لم تتخاذل فقط عن الدفاع عن «قُلُمْرِيَة» بل أنت خائن لعهد الله.

- الرحمة يا سيدي.

- الرحمة لا تكون لأمثالك، خذوه فاضربوا عنقه وليكن عبرة لكل خائن!

جذب الجندي «رانده» من ذراعه، وهو يصرخ طالبًا الرحمة حتى خرج من مجلس ابن الأفطس.

***

جمع القاضي «الباجي» جيشًا عظيمًا، ودخل به مدينة «مونتيمور» ومن هناك خاض حربًا ليسترد «قُلُمْرِيَة»؛ حتى إن أهل ذلك المكان أرسلوا إلى «فِرْنَانْدُ» ليساعدهم، فرجع وحاصر «مونتمور». وهناك خرج المسلمون للقاء العدو، فتصدى لهم «لُذْرِيق» وهاجمهم ثلاث مرات في يوم واحد، ووقع في خطر كبير، لكنه رفض طلب المساعدة من المعسكر، وبذل كل قوته ودفعهم، ودارت مذبحة عظيمة، أسفرت عن انسحاب القوات المسلمة والمفاوضة على الجزية من جديد.

في هذا الوقت، تلقى «فِرْنَانْدُ» طلبًا من شعب مملكة «ليون» بإعادة سكان مدينة «سمورة»، التي كانت مقفرة منذ أن دمرها «الحاجب المنصور»، فكر جيدًا في هذه الخطة، وحمل إليها العديد من الرجال والنساء، وأعاد تنظيمها.

وهناك جاءته الرسل من ملوك الطوائف لدفع الجزية، فبينما كان «فِرْنَانْدُ» يخضع المدن الأندلسية لسطوته، ويقتل أهلها ويهجرهم، كان ملوك الطوائف منشغلين بحروبهم ضد بعضهم بعضًا كل منهم يطمع في اقتطاع أرض من جاره المسلم، وجل ما يفعلونه لـ«فِرْنَانْدُ» تقديم الهدايا لـه، حتى يأمنوا شره، وكأنَّ الأمر لا يعنيهم، ونسوا المثل القائل: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

***

8 جمادى الأول 457هـ/ 17 أبريل 1065م

كشف الفجر وجه السماء المزين بِقِطَع السَّحاب الصغار المتفرِّقَةُ، وانبعثت في الأجواء رائحة الوحدة، وتقدم جند المسلمين نحو «بَرْبَشْتر» وأمام أسوارها صلوا ودعوا الله تعالى أن ينصر دينهم ويربط على قلوبهم بالصبر، وأن يوهن عدوهم وأن يلقي في قلوبهم الرعب، وجرت دماء فرسان المسلمين كأنها في جسد واحد، وتقدم «جعفر» وحوله ستة آلاف جندي بالدرق الكاملة، والرماح الطوال، والمزاريق المسنونة النافذة، فصفوا صفوفهم، ونجحوا في اقتحامها، وجرت معركةٌ شديدةٌ مُزِّق فيها المعتدون، وما إن زالت الشمس حتى استطاع المسلمون بعون الله استعادة «بَرْبَشْتر» بعد عشرة أشهر من سقوطها، وسحقوا حاميتها المسيحية، وغسلوها من رجس الشرك وجلوها من صدأ الإفك، ومات «ثيبو» -سَوَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ- قائد الحامية البورغندي متأثرًا بجروحه، وهو يحاول الفرار عائدًا إلى «فرنسا» ولاسترضاء العامة، توقف

«أحمد بن هود» عن دفع الجزية لـ«فِرْنَانْدُ» وعلى أثر هذا الانتصار سُمِّيَ أحمد بن هود «المقتدر بالله».

***

(15)

وقعة «بطرنة»

شعر «فِرْنَانْدُ» أنه يجب أن يُخْضِعَ مملكة «سرقسطة»؛ فهي الوحيدة التي يماطل أصحابها في دفع الجزية والإتاوات المفروضة عليهم، فَتُوَجَّه بِقُوَّاتِهِ صوبها مخترقًا حدودها الجنوبية، وأعمل فيها القتل والتخريب، ونهب الزروع والقرى، كما أنه اجتاح سائر البقاع والحصون؛ وبذلك أرغم «المقتدر بن هود» مرة أخرى على دخول مملكته في تابعيته ودفع الجزية.

واستمر بحملته نحو «بَلَنْسِيَة» مستغلًا الشقاق بين أميرها[1] وحماه، فخرج على رأس جيش كبير لأخذها، ولَمَّا طال حصاره ورأى أن الحصون منيعة، ووسائل دفاعها قوية، عزم على الحيلة والمكيدة؛ فتظاهر بالانسحاب والمغادرة، واستتروا وراء الهضاب والآكام استدراجًا لأهل «بَلَنْسِيَة».

فخرج الأهالي في فاخر ثيابهم من حلل الحرير عليهم ألوان متزينين بزينة النصر والأُبَّهة، وكأنهم في يوم عيد يتتبَّعون فلول المنهزمين، ويلتمسون مفاجأتهم بالهجوم وهم لا يشكون في التغلب عليهم والاستيلاء على الغنائم والأسلاب، وكان يتقدمهم أميرهم وهنا وفي غفلة منهم خرج النصارى من كمائنهم وعليهم الدروع، وارتدت قوات «فِرْنَانْدُ»، وأعملت فيهم القتل والأَسْرَ.

وعان الأمير من هزيمة خطيرة، وتحصن بربوة بين لمة من فرسانه، وقد عقد الذعر عذبة لسانه، وانهارت صفوفه وتمزقت شر ممزق، وبادر من استطاع منهم الفرار، أما هو فقد نجا بنفسه ونقص على عقبيه إلى «بَلَنْسِيَة» فدخلها مخذولًا، وتحصن هو ومن معه داخل الأسوار، وضرب عليهم «فِرْنَانْدُ»

(1) عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور المظفر حاكم بلنسية. انغمس في اللهو والشراب، وأكثر من إهانة زوجته ابنة «الْمَأْمُون ملك طُلَيْطِلَة»، التي تزوجها عام 451 هـ بحضور عددٍ من علماء ووجهاء طليطلة.

الحصار، وبلغت «الْمَأْمُون» أنباء هزيمة صهره فانزعج انزعاجًا شديدًا، وكان في طريقه سائرًا مع قوة لإنجاده.

في نفس الوقت أَحَسَّ «فِرْنَانْدُ» بالمرض، وشعر بألم شديد فوضع يده على صدره، ولكن الألم كان لا يُحتمل، فأنزله الجند عن صهوة حصانه، وعادوا به إلى «ليون»، وقد تبدل حاله وشعر بسوء المنقلب، وتنفس أهل «بَلَنْسِيَة» الصعداء لرحيلهم.

***

وصية الإمبراطور

أرعدت السماء، وهطل المطر، وداخل قصر «ليون» الذي قيدت فيه الشموع، اجتمع الأبناء الخمسة حول أبيهم، والحزن بادٍ على وجوههم، وقد ترقرق الدمع في أعينهم جميعًا، وبصوت ملهوف قال «الفونسُ»:

- سأحضر لك الطبيب يا سيدي.
- لا أريد أن يدخل عليَّ أحد، وماذا يفعل الطبيب الآن؟ دعوني أقول ما في صدري، وقد شارفت على الوفاة، ولا أظن أني ناج من مرضي هذا، فقد انتويت تقسيم المملكة بينكم، لا لأفتتها كما يتخيل البعض ولكن؛ لينهض كل واحد منكم بما تحت يده، ويقاتل بجيشه الأعداء؛ فتكون ممالككم ثلاثة، ولكن هدفكم واحد طرد العرب من الأندلس.

الفونسُ وعيونه دامعة:

- العمر المديد لك يا أبي.
- لا تبك يا الفونسُ، وليكن عزاؤك لي متابعة ما بدأته من حروب، حتى لا تترك لهم شبرًا على أرض الأندلس يمكثون فيه.

نظر إلى «سانشو»:

- ماذا فعل ملك «طُلَيْطِلَة»؟ هل أرسل ما طلبته من أموال؟

هزَّ «سانشو» رأسه نافيًا:

- لم يفعل يا سيدي.

امتعض «فِرْنَانْدُ» وأمسك صدره:

- فلماذا لم تخبروني بذلك؟

الفونسُ:

- لم نرد أن ينشغل الملك بغير صحته.

أشار لهم «فِرْنَانْدُ» ليساعدوه كي ينهض، تقدم «سانشو، والفونسُ» وأمسكاه، حتى اعتدل على سريره، ثم أمسكت «أُرّاكة» بوسادة وضعتها خلف ظهره فقال:

- للملوك مهام كبيرة غير صحتهم، لا يصح الانشغال عنها ما لم تفارق الروح الجسد، أخبروني ماذا كان رده؟
- لقد أرسل يقول: لو كانت لدينا هذه الأموال، لأنفقناها على البربر، واستدعيناهم للدفاع عنا.
- اكتب إليه يا سانشو، من الإمبراطور «فِرْنَانْدُ الأول» إلى صاحب «طُلَيْطِلَة» أمَّا استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهددوننا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديمًا في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم.

ختم رسالته وأردف بنبرة آمرة:

- أرسلها في الحال، ولا تعطوا هؤلاء فرصة يتنفسون فيها، أو يستشعرون سكوتكم عنهم!

وأخذ يسعل سعالًا شديدًا، وكأنه لن يتوقف، وفجأة نظر إليهم وكأنه يراهم لأول مرة، وجحظت عيناه وفارقت روحه الحياة .

****

الفصل الثاني

قصر يقصر عن مداه الفرقد   عذبت مصادره وطاب المورد

نشر الصباح عليه ثوب مكارم   فعليه ألوية السـعادة تعقد

وكأنما الْمَأْمُون في أرجائه   بـدر تمـام قابلته أسعد

وكأنما الأقداح في راحاته   بد جمـاد ذاب فيه العسجد

(1)

في مسجد[1] كبير مبني كله من الحجارة الصلبة القريبة الشبه بالرخام، وسقفه على شكل قبة في غاية الضخامة والصناعة العجيبة والنقوش، كانتِ الأصوات تصدح بالقرآن والعلوم فهنا يجلس الطلاب؛ ليتعلموا الفلسفة وهنا لدروس الفقه، وهنا للفلك والرياضيات، وهنا للطب والصيدلة، إلخ، وتحت أحد الأعمدة، تزاحم الطلاب حول حلقة علم أكثر من غيرها أستاذها شيخ وقور ذو لحية كثة وعمامة كبيرة، نظر الشيخ «المغامي»[2] إلىٰ جموع الطلاب من حوله وقال:

- روى «البخاري، ومسلم» في صحيحيهما من حديث جدي «أبي هريرة» رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أو يُرْجِعَهُ إلىٰ مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعْ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أو غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا مِنْ كَلْمٍ، يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ، اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ!

---

(1) مسجد «طُلَيْطِلَة» الكبير من أكبر مساجد الأندلس بعد مسجد «قرطبة الجامع» كان جامعة إسلامية تضم بين أروقتها كبار علماء العالم والمسلمين، ويأتيها الطلاب من جميع أنحاء أوربا؛ لينهلوا من علومها وفنونها، فقد كانت الأندلس رغم ما يمر بها من محن قبلة العلماء والفقهاء، ورغم فقدانها التفوق العسكري منذ انحلالها إلى دويلات، فإنها كانت متفوِّقة علميًا لدرجة كبيرة.

(2) «أبو عمرو يوسف بن يحيى بن يوسف بن مُحَمَّد بن منصور بن السمح الأزدي الدوسي» وكان يلقب بالمغامي و«مغامة» قرية من نواحي «طُلَيْطِلَة». وهو من ولد «أبي هريرة» رضي الله عنه، وكانت الأندلس كلها تعرف فضله، وعلمه، وورعه.

لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أبدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ» صدق رسول الله، ونحن على ثغر من ثغور الإسلام فلا يجب أن يؤتى المسلمون من قبلنا.

رفع أحد الطلاب رأسه:

- ولكن يا شيخنا، هناك أحاديث أخرى ذُكر فيها أن أحب الأعمال إلىٰ الله أمور أخرى غير الجهاد، وهذا ما سمعناه ونسمعه من شيوخ غيرك، ولكنك لا تفتأ تذكر بأن الجهاد هو أحب الأعمال إلىٰ الله، وأنه ذروة سنام الإسلام.

حدق إليه «المغامي»:

- اذكر لنا بعض تلك الأحاديث.

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال سَأَلْتِ النبيَّ ﷺ: «أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلىٰ اللَّهِ؟ قالَ: الصَّلاةُ علَى وقْتِها، قالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ثُمَّ برُّ الوالِدَيْنِ، قالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: الجِهادُ في سَبيلِ اللَّهِ» فهذا الحديث، يقدم فيه رسولنا ﷺ الصلاة وبر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، وقد ورد أَيْضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِل النبي ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضلُ أو أيُّ الأعمالِ خيرٌ؟ قال: «إيمانٌ باللهِ ورسولُه» قيل: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «الجهادُ سِنامُ العملِ» قيل: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثمَّ حجٌّ مبرورٌ». وهذا ما يذكره معظم المعلمين في «طُلَيْطِلَة» وسائر الأندلس، فكيف نوفق بين تلك الأحاديث؟ وكيف نعتمد أحب الأعمال إلىٰ الله ونعرفها؟ وما هو سبب الاختلاف في أجوبة رسولنا ﷺ؟ ولماذا ذكرتَ أحاديث الجهاد، ولم تذكر الباقي رغم علمك بهم؟

أسبل «المغامي» أجفانه ورفع حاجبيه وبوقاره المعتاد:

- صدق رسول الله ﷺ، هذه الأحاديث وغيرها، التي اختلفت فيها أجوبة النبي ﷺ عن أفضل الأعمال، لأنه كان يرى حال السائل، وهذا يعني أن الجواب يختلف باختلاف: السائل، والمكان، والأحوال، والزمان، فمن الأشخاص من يكون الصيام أفضل له، ومنهم من يكون الجهاد أفضل

له، وذلك يكون بحسب الحال، وبحسب استعداد الشخص المعين، وقدرته.

أخذ أنفاسه، ثم تابع بلهجة ناصحة:

- وقد يكون الجهاد في وقت أفضل الأعمال، وقد يكون في وقت آخر غيره أفضل منه، فالمحصلة أَنَّ الْجَوَابَ اخْتَلَفَ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ السَّائِلِينَ، بِأَنْ أَعْلَمَ كُلَّ قَوْمٍ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، أو بِمَا لَهُمْ فِيهِ رَغْبَةٌ، أو بِمَا هُوَ لَائِقٌ بِهِمْ. فالغني الذي له مال كثير، ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه: فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة. والشجاع الشديد الذي يهاب العدوُ سطوتَه: وقوفُه في الصف ساعة، وجهاده أعداءَ الله: أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع. والعالِمُ الذي قد عرف السنة، والحلال والحرام، وطرق الخير والشر: مخالطتُه للناس وتعليمُهم ونصحُهم في دينهم: أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح. ووليُّ الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده: جلوسُه ساعةً للنظر في المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود، ونصر المحق، وقمع المبطل: أفضل من عبادة سنين من غيره.

تبدلت ملامح الشيخ فجأة، وظهر عليها مسحة من قلق، وأردف:

- ونحن هنا في أقصى بقاع الأندلس، ومجاورون للقشتاليين والإفرنج، وحالنا ومكاننا وزماننا يقتضي أن يكون الجهاد هو أحب الأعمال إلينا فحالنا يا ولدي، هكذا بحكم الزمان والمكان، لِأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ الوحيدة للحفاظ على دولة الإسلام في الأندلس وعلى أرواح المسلمين ونسائهم وأموالهم.

هز الطالب رأسه، وأيقن ما لم يكن يعلم، ثم نظر إلىٰ «المغامي» الذي كان بصره يتردد على وجوه كل الطلاب، واستطرد:

- أمَّا غيري من الشيوخ الذين لا يقتربون من حديث الجهاد، فهؤلاء حسابهم عند ربهم، فهم لا يريدون إحراج ملوك الأندلس بأقوالهم ودروسهم.

انتهى الدرس وخرج الطلاب لحاجاتهم، وعند باب المسجد حيث أشجار اللارنج والبرتقال، وقف «زياد» وقد صار صبيًا يافعًا يترنح شعره المنسدل على وجنته البيضاء، وقد اتكأ على جذع شجرة باسقة، ينتظر صاحبه «موسىٰ» وكان طويلًا أسمر اللون أجعد الشعر، وكان يستمع للدرس معه، وما إنْ خرج حتى تحرك الاثنان مخترقين شوارع «طُلَيْطِلَة» الضيقة الجميلة حتى وصلا إلىٰ «القنطرة» عندها نظر «زياد» بعينه العميقة وأهداهبه الداكنة التي ورثها عن جده «مَسْلَمة» إلىٰ الماء الجاري صوب الغرب:

- رحم الله أيامًا كان هذا النهر يجري في بلاد المسلمين من المنبع إلىٰ المصب في بحر الظلمات.
- تلك أيام قد خلت ولا أظنها تعود.
- بل ستعود يا موسىٰ،﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وإن كنا هكذا اليوم، فلن يدوم هذا حال.

ثم ابتعد أمتارًا منه:

- ربما لا تكون هذه أندلس «طارق بن زياد» والأمويين من بعده؟ ولكنها الآن أندلس القبائل وملوك الفتنة، هؤلاء الذين لا أعلم كيف أقنعوا أنفسهم بتلك الألقاب الكبيرة «معتضد، ومأمون، ومعتصم، إلخ» وهم ملوك ضعاف في أنفسهم، ضعاف في دينهم، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلىٰ أبعد الحدود، ونسوا في غمارها بلادهم ودينهم، بل نسوا حتى اعتباراتِ الكرامة الشخصية، واستساغوا لأنفسهم أن يترامَوا على أعتاب ملوك النصارى، وأن يستعدوهم على بعضهم بعضًا، لا في سبيل قضية محترمة، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين.

هز موسىٰ رأسه متعجبًا من تأثره:

- هيه! هون عليك يا صاحبي، فهم كما قلت ملوك فتنة.
- الناس على دين ملوكهم يا موسىٰ، فإذا صلح الراعي صلحتِ الرعية!
- ألا تدعنا من أمور السياسة والحكم؟ فلا أنا ولي العرش، ولا أنت صاحب الأمر، فلمَ نشغل أنفسنا بما لا يعود علينا إلا بالحسرة والخسران؟ هيا،

لا داعيَّ للتلكؤ أمي مريضة، وعلينا الانتهاء سريعًا، لأعود إليها في أقرب وقت.

ابتسم «زياد» وهزّ جعبة السهام التي على ظهره:

- وأنا قد أعددت كل شيء، والسهام كلها جاهزة، فلننطلق للتدريب، ولنر أينا يصوب بشكل أكثر دقة؟

***

(2)

شِقُوبية[1]

سار حديث الناس عن هلاك «فِرْنَانْدُ الأول» وما فعله في ملكه، فجلسوا يتهامسون عن قادم أيامهم، وفي إحدى الحانات ووسط قرع كؤوس الخمر أمسك «رامون» كأس خمره، واقترب من أذن صديقه «توماس»:

- لقد قسم المملكة بين أولاده الثلاثة، وخصَّ البنات بجزء منها، وكأنها ميراثهم لا دولة قائمة!

- لم يبق إلا أن يقتسموا أرواح الناس أَيْضًا!

- صهٍ يا رجل، وتحدث بصوت منخفض؛ لا يسمعنك أحد فيكون هلاكنا.

- لا أعلم لماذا صنع «فِرْنَانْدُ» ما صنع، إن كان سيفتته بالنهاية؟ أيعقل بعد كل هذا المجد الذي وصلت المملكة إليه أن يوزعها هكذا، ويقطع أوصالها؟!

- مَن يدري فلعله بذلك أراد أن يتنافسوا في وأد المحمديين؟

- أتمنى ذلك يا صاحبي، وإلا ينقلب السحر على الساحر، فيقتتل الثلاثة فيما بينهم!

ثم رفع كأس خمره:

- اشرب يا رجل، ودعك من كل ما يذهب لذة العيش في هذه الحياة.

---

(1) Segovia.

قُرعت كؤوس الخمر، ودخلتِ الغانيات الحانة كل واحدة منهن تفعل ما تستطيع لحصد الأموال، غير أن واحدة لم تفعل مثلهن، كانت رغم صغر سنها طويلة القامة في اعتدال، ترتدي ثوبًا حريريًّا مفضفضًا، وشعرها الأسود يرفل على ظهرها، ولها وجه مستطيل شاحب اللون تنم ملامحه عن صلابة وثقة، وقد انتبه «توماس» إليها، فقام وأمسك بكأسه مقتربًا منها:

- اشربي يا جميلة، ففيها حياة القلوب وموت العقول، وهل ينكد علينا حياتنا غير عقل يحجم ثورتنا ويقتل لذتنا ويحاسبنا على كل هفواتنا؟ وكيف الحياة بلا هفوات؟ خذي مني.

قدم لها الكأس، فلم تكترث، ولم تنظر حتى إليه، بل ازداد تجهم وجهها وعبوسه، فزاد ذلك من إصراره وتعجبه، فمدَّ لها يده مرة أخرى وهو مبتسم، فلما لم تنظر ولم تعره أية اهتمام، صرخ فيها:

- هل أنتِ صماء؟ كيف تجرؤين على فعل ذلك؟

لم تهتز الفتاة ولم تتحرك، فخرج صاحب الحانوت:

- ليست صماء يا سيدي، ولكنها عربية وهذا أول أيامها هنا، فلعلها الرهبة والخوف... اختر غيرها إن شئت، وأما هذه فدعها لي؛ الأيام كفيلة بتأديبها!

اخشنّ صوت «توماس» وهو يقول بقوة:

- إليك عني؛ هذه ليست «قُرْطُبَة أو طُلَيْطِلَة» حتى تتعفف عما نريد، ولن أتركها حتى تشرب معي أو أقتلها.

دنا الكأس من فمها مرة أخرى، فما كان من الفتاة إلا أن أطاحت بها بعيدًا، ولاح في عينيها السوداوين بريق وحشي، فجن جنون «توماس» ولطمها على وجهها، فنهض له «رامون» وأراد أن يرجعه إلىٰ كرسيه، بينما صاح صاحب الحانوت في الفتاة:

- يا وجه الشؤم، أتريدين خسارتي؟

وأمسك بذراعها وهي تبكي، وأدخلها إلىٰ غرفة جانبية داخل الحانوت.

انتفخت أوداج «توماس»، ولمعت عيناه شررًا:

- لن أعود حتى أكسر أنفها، فلا يكون للعرب هنا عزٌ وكرامة!

جذبه «رامون» وأجلسه جواره:

- اهدأ يا رجل، ولا تعكر صفو يومك من أجل بلهاء ليست لك.

صمت «توماس» هنيهة:

- أجل ليست ملكي، ولكن سترى ماذا أفعل؟

أخرج صرة كبيرة من الدنانير الذهبية، وتحرك صوب صاحب الحانوت:

- والرب، إنها لفتاة شؤم، ولن تصلح للعمل هنا، وإن وجودها نذير خراب لك، فماذا أنت فاعل؟

- لا أدري، وحقًا ما قُلت ربما ستكون خسارة كبيرة لي.

- فماذا لو أنقذك أحدهم مِن خسارة تفقدك زبائنك؟

نظر صاحب الحانوت حوله:

- أين هو؟

- أنا.

- تشتريها بعد الذي فعلت!

- أجل.

أعطاه «توماس» الصرة، ففتحها وبدأ بعد الدنانير، وكان من اليهود الذين لا هم لهم غير المال، فقال:

- هي لك يا سيدي، خذها متى شئت.

هزَّ «توماس» رأسه وعلى شفتيه ابتسامة الظفر، بينما اقترب منه «رامون»:

- عجيب أمرك كنت من دقائق تتحدث عن الحرب والسياسة، وفي لمح البصر تبدل حالك، وكأنك زير نساء لا هم له غير ملذاته!

نظر إليه «توماس» من زاوية عينه:

- بل إنَّ غايتي كسر أنفة العرب، وليس شيء يفعل ذلك كأخذ نسائهم!

***

(3)

صراع الإخوة

1 ديسمبر 1067م

مالتِ الشمس للغروب، وارتدتِ السماء حلتها الحمراء، وداخل قصر «برغش»[1] جلس الملك «سانشو بن فِرْنَانْدُ» على عرشه، وعلى يساره «لُذْرِيق» وزيره وحامل الراية الملكية. كانتِ القاعة تجمعهما وحدهما بعد يوم طويل قضاه في أخذ عزاء أمه الملكة «سانشا»، وسرعان ما انْتهز «سانشو» الفرصة، وبدأ بالبوح عما يشغل خاطره:

- كانتِ المملكة قوية حين حكمها إمبراطور واحد «فِرْنَانْدُ العظيم»، أما الآن فما الفرق بيننا وبين العرب يا روي؟ إني لأشعر بمغبة كبرى، وقد حرمني والدي الملك من حقي في إرثه.

حاول «لُذْرِيق» أن يخفف ما يعتريه من أسى:

- لقد أراد الراحل العظيم أن يُرضي جميع أولاده؛ فاختار رضاهم على قوة مملكته وشتت بذلك المملكة! كان الجميع يعلم أنك أحق بالعرش، وأنك ولي عهده لتقدمك على أخويك بالسن، فأعطاهم بيده ما لا يستحقان.

ضغطتِ الكلمات على جرح «سانشو» أكثر بدلًا من تهدئته، وطفق بخياله يتذكر يوم خصَّه والده بـ«قشتالة» وحقوق الجزية على مملكة «سرقسطة»، وخصَّ أخيه «الفونسُ» بـ «ليون، وأشتوريش»، وحقوق الجزية على مملكة «طُلَيْطِلَة»، وخصَّ أصغرهم «غرسية» بـ «جليقية، والبرتغال» وقد ضُما إلىٰ مملكة واحدة، وحق الجزية على مملكتي «إشبيلية، وبَطَلْيُوس» وأعطى حق الإشراف على الأديرة في سائر المملكة لابنتيه «أُرّاكة، والبيرة» وخصت «أُرّاكة» بمدينة «سمورة» الحصينة، وخصت «ألبيرة» بمدينة «تورو» وأماكن أخرى على نهر «دويرة». وأمرهم بأن يتوسع كل منهم على حساب نصيبه في بلاد المسلمين، وألا يعتدي أحدهم على أملاك الآخر.

---

(1) Burgos عاصمة «قشتالة» في ذلك الوقت.

فنهض «سانشو» من مكانه وصاح:

- لن أسكت على هذا! ولأعيدها دولة واحدة، وآخذ حقي بيدي ولو اضطررت إلىٰ حربهم وقتالهم قتال الأعداء. العالم من حولنا يتغير الكنيسة الكاثوليكية انفصلت عن الأرثوذكسية الشرقية، وإمبراطورية «القسطنطينية» تزعجها الغارات الإسلامية؛ الصراع طويل بيننا وبين المحمديين، فكيف سأكمل معركتنا معهم في شبه الجزيرة ولا أملك سوى مملكة قشتالة المقتطعة الأطراف؟!

***

(4)

في دكان «منصور النخاس» الذي يشبه حانة «سِسناندُ» في «بازو»، وهو أول حانوت باع الخمور في سوق «طُلَيْطِلَة»، جلس «موسىٰ الطويل» وبجواره «بِلاجيوس القوطي» يحتسيان الشراب، أمسك «موسىٰ» الباطية فوجدها فارغة فقال:

- عجبًا، ما أسرع ما نضب الشراب!

- لا ريب أن الشيطان قد شرب معنا اليوم.

قهقه بصوت عالٍ، و«موسىٰ» دخل معه في نوبة ضحك، حاول إيقافها قائلًا:

- ما أرى الشيطان إلا في بطنك هذا يا بِلاجيوس!

- إذًا، سأسقيك وأسقي شيطاني.

ثم نادى بصوته:

- يا منصور، أنت أيها النخاس البخيل! أين الشراب؟

أسرع «منصور» ليحضر باطية ثانية، ثم وضعها على المنضدة:

- أين المال يا سيدي؟

دسَّ «بِلاجيوس» يده في جيبه، وقال وهو يكاد يترنح:

- هاك خذ يا لعين، أتظن أنَّا لا نملكه؟!

أخذ الباطية، وصب منها في كأس صديقه «موسىٰ» ليتجرعها الأخير، بينما ينظر إليه «بِلاجيوس» ويقول وهو يقلد طريقة الشيوخ:

- ماذا عن أحوال دروسك في المسجد وحلقة «المغامي»؟

كاد «موسىٰ» أن يمَجَّ الشَّرَابَ مِنْ فَمِهِ:

- أوه! أهذا وقت تذكر فيه ما ذكرت؟! أفٍ لك يا بِلاجيوس! وأف للمغامي، لقد أضعت بما ذكرت سكرتي، وأعدتني إلىٰ ما أنا فيه!

تأبط «بِلاجيوس» كتفه:

- لا عليك يا صديقي، فعندي لك ما ينسيك حتى نفسك.

- حقًا! وما ذاك؟

ولم يكد «بِلاجيوس» ينطق، حتى ظهر «زياد» فسد بقامته فتحة الباب القصير وهو يضع كلتا يديه في وسطه، وراح يتفحص وجوه الناس، والروائح المتداخلة تضيق أنفاسه، وكأنه سيدخل بيت الشيطان، بحث عن «موسىٰ» ولا يكاد يصدق أنه هنا، فقد ذهب ليسأل عنه وقيل له: ستجده في الحانوت. حتى إذا وقعت عيناه عليه ضاق صدره أكثر مما رأى، فاقترب منه فلما رآه موسىٰ قال:

- هل ستترك الدرس وتجلس معنا يا زياد، والله، لقد تعلمت في هذا الحانوت ما لم أتعلمه في دروس شيخك «المغامي».

قطب «زياد» ما بين حاجبيه، وقال بحدة:

- ليس لي مكان هنا!

تحرك «موسىٰ» وأفسح لزياد:

- اجلس؛ المكان يتسع للجميع.

- لم أخلق لأحتسي الشراب، وأغيب عقلي.

تبرم «موسىٰ» وهتف به:

- فلمَ جئت إذًا؟

- لأصطحبك إلىٰ حلقة الدرس، ولأفيقك من سكرتك هذه ولك عليَّ حق النصح، والصداقة التي جمعتنا سنين طويلة تقتضي ألا أتركك ها هنا.

نظر «موسىٰ» إلىٰ «بِلاجيوس» الذي ظل صامتًا يراقب ما يحدث، ومسح وجهه بعصبية قائلًا لزياد:

- دعك مني، أنا لن أذهب إلىٰ «المغامي» أبدًا، فإن أردت فلتجلس معنا، وإلا صحبتك السلامة.
- وإن سألني الشيخ عنك؟
- قل له إن موسىٰ قد مات!

ضحك، وضحك معه «بِلاجيوس» بينما تجهم وجه «زياد» وهو ينظر شزرًا إلىٰ «بِلاجيوس» وما لبث أن خرج وهو ينظر بحسرة على صديقه الذي لم يعبأ به، بل سخر منه، والتف إلىٰ بِلاجيوس:

- لم تكد تذكر الدرس وشيخه حتى خرج إلينا «زياد» قبحك الله! وقبح ما قال لسانك، فماذا لو أنك ذكرت جميلاتِ الجواري والحسان؟ فلعلنا حظينا بواحدة.

هزَّ «بِلاجيوس» رأسه، ورمقه بنظرة ذات مغزى:

- لا عليك، عندي لك في المساء ما ينسيك ما حدث الآن، والأن كأسك يا رجل.

خرج «زياد» من الحانة لا يدري ماذا يفعل أو يقول؟ أفكار وكلمات تدور في رأسه، وسار يحدث نفسه:

- هل يعقل أن يتبدل الحال بين ليلة وضحاها، كيف كان «موسىٰ» معي بالأمس في الدرس؟ وكيف تبدل اليوم أم إنك يا زياد لم تعرف بعد معادن الرجال؟

***

(5)

معركة لانتادا

19 يوليو 1068م

- هل جهزت كل شيء؟

قالها «سانشو» حين دلف عليه «لُذْرِيق» مرتديًا درع الزَّرد الذي يغطيه من رأسه إلى أخمص قدميه:

- أجل سيدي، الجيش على أهبة الاستعداد، والجميع مقر بحقك في المملكة لا ينازعك فيها أحد.

نظر «سانشو» إلى رقعة الخريطة المبسوطة أمامه:

- عظيم! سنبدأ بـ«الفونسُ» إنه الأقوى بينهم، فإن سقط سيستسلم «غرسية».

أمسك « لُذْرِيق» حجر وتحرك به لأعلى الرقعة جهة الغرب:

- من الجيد أن نبدأ بـ«الفونسُ» فنملك «ليون» ثم بعدها لا يكون أمامنا غير «غرسية» ولن يعجزنا أمره.

أومأ «سانشو» برأسه:

- صحيح لنضرب الرأس فما بعده لن يقاوم، لا أريد لـ«الفونسُ» أن يتنبه لتحركنا وقتها سيضاعف أهبته وقوته، ولن تكون الحرب بيننا سهلة أبدًا.

تحرك «سانشو» وأمسك بسيفه، وخرج من القصر ليمتطي صهوة جواده ومعه حامل رايته الملكية «لُذْرِيق» وتحرك الجيش ليهاجم مملكة «ليون»، ينهب ويذبح أينما ذهب، عند هذا أرسل إليه «الفونسُ» كلمة لوقف هذا العمل وقتل الأبرياء، وتحديه في معركة ضارية على أن تجرى مبارزة قضائية بالسيوف وأيًّا من كان الفائز في النزال سيحصل على مملكة الآخر، تم قبول هذا التحدي، وتم تحديد مكان المبارزة عند نهر حيث التقى الأخوان، وهزم «الفونسُ»، ولم يمتثل لما تم الاتفاق عليه، وفرَّ مسرعًا إلىٰ «ليون»، ولكنه تنازل لـ«سانشو» عن بعض الأراضي المجاورة لقشتالة، ولكن ذلك لم يرق للأخير الذي طلب من أخيه التنازل عن العرش بأكلمه وقال له:

- لن أرضى إلا بعرش ليون! ولن يكون هناك ملك غير «سانشو».

غير أن «الفونسُ» أبى، وحاول مع ذلك الحفاظ على علاقاتهما، وحضر بعد عام حفل زفاف «سانشو» من نبيلة إنجليزية، وحينها قرر كلاهما أن يتحدا لتقاسم مملكة أخيهما الصغير «غرسية».

***

تحت زخات المطر المنهمر، كان الملك «غرسية» يركض بجواده بأقسى سرعة مخترقًا الغابات والأشجار التي تهرول نحوه وهو هارب من جنود أخويه -اللذين هجما على مملكته- الذين يسعون للفتك به، حتى وصل إلى وسط «جليقية»، وهناك أحاط به رجال «سانشو» وأسروه.

في نفس اللحظة التي كان «غرسية» يصرخ فيها داخل زنزانته في قصر «برغش» كان «سانشو، والفونسُ» يقارعان كؤوس الخمر احتفالًا بتقسيم مملكة أخيهما الصغير، فأخذ «سانشو» جليقية وأخذ «الفونسُ» ما سواها.

انتهى الحفل، واقترب «لُذْرِيق» من سيده الذي كان واقفًا فوق برج الحصن يتطلع لموكب «الفونسُ» العائد إلى «ليون» وقال والحنق يملؤه:

- سيدي كيف تقبل بهذا التقسيم؟ إنه غير عادل بالمرة.
- ماذا تقول يا روي؟
- مملكة ليون بأكملها تفصلنا عن جليقية.

صرَّ سانشو على أسنانه:

- كل هذا من جراء ما فعله والدي، كان يفضل «الفونسُ» ومنحه أكبر مملكة في التقسيم، و«أُرّاكة» كما ترى تدعمه...

صمت فجأة، ودارت حدقتاه في محورها وقال بغضب:

- قد يعزز «الفونسُ» من قوته ويباغتنا بهجوم يقضي علينا، فليس أمامه سوانا.
- لا يجب منحه الفرصة، فنندم.
- اسمع يا روي، قبل أن نُعد لهجوم جديد، لن نترك «غرسية» معنا في القصر حتى ولو كان سجينًا، فقد يتصل به سِرًّا نبلاء «ليون» والأسقف وما أدهاهم! فينقلب عليَّ.
- هل أرسل من يسهل له أمر الهروب؟
- أحسنت يا روي، أنت وحدك مَن يفهمني، فلتنفه إلى أي مكان لدى العرب وليكن بعيدًا عنا.

- مملكة «إشبيلية» كانت تدفع له الجزية وتدين له بالولاء، وهي في أقصى الجنوب لنرسله إليها.

***

معركة جولبخيرة

11 يناير 1072م

وما هي إلا أيام حتى تجهز «سانشو» بجيش ضخم، وطارت الأخبار إلى أخيه «الفونسُ» فخرج هو الآخر بجيشه، والتقى الملكان مرة أخرى في حقول «جولبخيرة» فهُزم القشتاليون، وفروا تاركين خيامهم، وأغضى «الفونسُ» عن مطاردتهم حقنًا للدماء.

فرَّ «سانشو» ببقايا جيشه، حتى وقف على تخوم بلاده يلتقط أنفاسه، ويريح جنده الملطخين بالوحل والطين والدماء، بعد أن أمن مطاردة «الفونسُ» له، وقد بدتِ الحسرة على وجهه، وكاد أن يعود أدراجه خائبًا منكسرًا، لولا أن تقدم منه «لُذْرِيق» وقال:

- إن جمعنا الجند، وأعدنا عليهم الكرة؛ سنظفر بهم، فلن يتوقع الليونيون ذلك أبدًا، وقد علموا أننا عدنا إلىٰ «قشتالة» نحمد الرب على النجاة، بينما تركناهم يحتفلون بنصرهم، فهم الآن مشغولون بشرب الخمر ومضاجعة النساء.

سحب «سانشو» رسن جواده وأوقفه:

- تظن أن ينخدع الفونسُ، وتنطلي عليه الحيلة!
- قطعًا سيدي، فجل هم الفونسُ أن تتركه وشأنه، وإلا لطاردنا حيث نحن.

خرجت تنهيدة كبيرة من صدر «سانشو»، وقد شعر أنه لم يهزم بعد ثم أتبع:

- حسنًا، فلتتول أمر جمع الجند، ولنبيت ليلتنا هنا على أن نخرج قبيل بزوغ الشمس.

وقبيل الفجر وتحت جنح الظلام، تسلل «سانشو» بقواته في هدوء وحذر، وهجم على الليونيين وهم نيام حول مشاعل الحطب وفي الخيام، فدب فيهم الاضطراب والذعر، وقتل الكثير منهم في أثناء النوم، ولم يستطع «الفونسُ» أن يجمع جيشه إلا قليل منهم والتجأ إلىٰ كنيسة صغيرة، فقبض رجال «سانشو» عليه وربطوه بالسلاسل، وسيق إلىٰ حصن «برغش»، ودخل «سانشو» بجيشه ظافرًا إلىٰ مدينة «ليون» فجلس على العرش، على الرغم من رفض أسقف ليون والنبلاء، وتم له بذلك توحيد المملكة التي قسمها والده «قشتالة، وليون، وجليقية».

***

(6)

نيفادة

أرخى الليل سدوله، وهدأت حارات طُلَيْطِلَة المنيرة بمشاعل زيتية، وأمام أحد البيوت القريبة من مسجد «باب المردوم» طرق «موسىٰ» منزل صديقه الجديد «بِلاجيوس» وهو من نصارى المعاهدين الذين بقوا تحت حكم المسلمين في «طُلَيْطِلَة» وكان يظهر الكثير من الحب والود لجيرانه المسلمين، وتملقهم كثيرًا، وشاركهم أفراحهم وأعيادهم مثله مثل الكثير من المعاهدين، وعندما يحتدم النقاش، ويتحدث الناس عن مملكة «قشتالة» كان «بِلاجيوس» وأقرانه يظهرون العداوة لها والإخلاص لملوك المسلمين، وقد خدعوا بذلك كثير من عامة أهل الأندلس، فوثقوا بهم واستأمنوهم، بل وكان بعضهم يرى أنهم أقرب إليهم من إخوانهم المسلمين، وهكذا كان حال «موسىٰ» فمع الوقت بدأ يبتعد عن «زياد» ويتقرب كثيرًا من «بِلاجيوس» ويراه خله الوفي الذي لن يخذله أبدًا، حتى وقع الجفاء بينهما، فقد كان «زياد» على خلاف ذلك المنهج تمامًا؛ لا يثق بالمعاهدين أبدًا، وينظر إليهم دومًا بعين الريبة والحذر، وكيف لا وقد قصت عليه والدته كيف قُتل أبوه؟ وكيف سقطت «قُلُمْرِيَة، وبازو» بمساعدة وخيانة المعاهدين.

لحظات وفُتح الباب واستقبله «بِلاجيوس» بحفاوة كبيرة، وَجلسا معًا أمام باطية شراب كبيرة معتقة، رفعها «موسىٰ» وصب في كأسه وقبل أن يتجرعها قال:

- أين ما وعدتني به؟

أمسك «بِلاجيوس» بباطية الخمر وحدق النظر إليها:

- وهل هذه لا تكفي؟ فهذه الخمرة لن تجد مثيلًا لها في كل «طُلَيْطِلَة»، بل ربما في كل الأندلس؟

- لا يحلو الشراب دون نساء يا صاحبي.

- ممم أما هذه فنعم.

ثم صفق، فدخلت إحدى الجواري، فأخذت بصر «موسىٰ» الذي تطلع إليها كثيرًا وقد لاحظ بلاجيوس ذلك فابتسم قائلًا:

- هلمي يا «أمادا» اسقينا، ونادمينا أيتها اللعوب!

اقتربتِ الجارية من «موسىٰ» ومدت له الكأس، فتناولها دون أن يخفض بصره عنها ثم قال:

- أمادا! وماذا يعنى أمادا؟

أزاحت خصلات شعرها الكثيف الكستنائي الذي أحاط بوجهها للوراء، وقالت بلكنة عربية ركيكة:

- المحبوبة أو المعشوقة.

- ومن أي البلاد أنت يا معشوقتي؟

- من «نبرَّة» يا سيدي.

أطاح «موسىٰ» برأسه للوراء، وهو يصب جرعة من الشراب في فمه:

- وما زالت بلادك تمدنا يومًا بعد يوم بكل جميل ورائع، وكأن بلاد العرب قد خلت من الجمال، وانحسر في نساء الإفرنج.

- ذلك لأن السبايا والجواري والإماء جلهن من العجم، أما الحرائر فهن رهينات حريتهن لا يطلع عليهن إلا أزواجهن ومحارمهن، فأنت لا ترى إلا الجواري!

مدّ «موسىٰ» شفتيه وقَلَبهما وهو يهذي كالمجنون:

- وقديمًا قالتِ العرب: "الأمَة تُشترى بالعين، وترد بالعيب، والحرة غُلٌّ في عنق من صارت إليه" لذا؛ لن أتزوج أبدًا.

قهقه كعربيد عتيد، واختلطت ضحكاته برقيع ضحكات «أمادا» التي قالت بإمالة:

- ربما لو أخذت واحدة قلب سيدي، لتغير رأيه.
- لا، لا لن يتبدل أبدًا.

جاء صوت عذب من خارج الغرفة، ينادي:

- بِلاجيوس! هل عندك أحد؟
- لا غريب هنا، تعالي يا نيفادة.

دخلت أخته «نيفادة» وهي فتاة نحيفة لكنها ساحرة الجمال، وما إنْ رأت «موسىٰ» حتى خفضت وجهها حياءً، وقالت بنبرة حانقة:

- قلت ليس عندك أحد!
- إنه خِلي يا نيفادة، وآتمنه على كل شيء.
- كان يجب أن تخبرني.
- لا تعقدي الأمور يا أختاه.

نيفادة بازدراء واضح، وقد ظهر عليها الغضب:

- هل تظنني جارية يا بِلاجيوس، حتى أدخل هكذا؟

بُهت «بِلّاجيوس» وحاول تجنب عاصفة غضبها:

- لا تسيئي الظن و...

جذب «موسىٰ» طرف الحديث:

- بل أنتِ سيدة الحرائر، وإن أردتِ الآن أن أخرج سأفعل.

تغاضت «نيفادة» النظر إليه وهي تقول لأخيها:

- جئت لأخبرك أنني ذاهبة صباحًا إلىٰ الدير، فلا فتنشغل بغيابي إن استيقظت ولم تجدني، والآن أتركك مع... صديقك.

ألقت بكلمتها الأخيرة ممتعضة، ودفعتِ الباب خارجة، بينما شيء أصاب «موسىٰ» فألزمه الصمت، وقد أخذتِ الفتاة بقلبه حتى شغلته عن غيرها.

***

(7)

كانتِ الدوقة «أُرَّاكة» تجلس في قصرها الحجري بمدينة «سمورة» وهي مرتدية زي الراهبات، ومعلق على صدرها صليب خشبي ضخم، عندما دخل عليها أحد الحراس يقول:

- كبير الخدم الملكي في ليون بالباب يا سيدتي.

هبت أُرّاكة من مكانها، وعلى وجهها علاماتِ الدهش:

- «بدرو بن أنسور»! أدخله فورًا.

دخل بدور وهو في حالة يرثى لها، فقد كان وجهه وملابسه ملطخة بالأتربة ناهيك بشحوبه، وتبدل ملامحه ما دل على أنه قدم من سفر طويل شاق، وما إنْ دخل حتى انحنى أمامها وقال مستجديًا:

- أدركي الملك الفونسُ يا سيدتي!

انقبض قلب الدوقة؛ فقد كان «الفونسُ» أحب إخوتها إليها، وهتفت:

- الفونسُ!

أغمض «ابن أنسور» عينيه للحظة خاطفة، وابتلع ريقه:

- لقد وقع في الأسر يا مولاتي، وسجن في حصن «برغش».

ذُهلت، بينما استطرد:

- لقد نصحته بمطاردة العدو بعد أن هزمه ولكنه قال: إنه أخي. ورفض أن يطارده، فلما جنَّ الليل واطمأن الملك لهزيمة أخيه، كرَّ علينا الملك سانشو، ولم يراع فينا ما رعاه مولاي «الفونسُ» فيه، حتى قبض عليه، وكأنه مسلم أو لص سارق، وزجَّ به في سجن بعد أن وضع الأغلال في يده!

صكت الدوقة «أُرّاكة» فمها وكتمت شهقتها، وأمسكت بثيابها الطويلة تتحرك والحيرة على وجهها:

- هذا سانشو وهذه أفعاله مذ كان! لا يتذكر إلا نفسه وتصغر أمامه كل صلة رحم وكل ثمين في مقابل نيل غرضه، لا يثنيه عن ذلك شيء ولو كان عدوه «فِرْنَانْدُ الأول» نفسه.

أخرجها «ابن أنسور» من حالة غيظها بسؤاله:

- هل سنصمت على ذلك يا سيدتي؟

رمت «أُرّاكة» بنفسها على كرسيها:

- وماذا أستطيع أن أفعل الآن؟!

- تتوسطين لدى الملك سانشو، فلا يحق له أن يعامل أخاه بمثل ما يعامل المجرمين، وقد أوصاني الملك الفونسُ أن آتيك، وأخبرك بما حدث ظنًا منه أنك لن تتركيه في أسره.

استرخت وقد أذهلها الموقف، وألجمها الصمت لحظات قالت بعدها وكأنها تناجي نفسها:

- لم تغير سانشو الأيام ولن تغيره! ولا أدري من أين جاء بكل هذه القسوة على إخوته؟

لاحظ «ابن أنسور» كلامها وما تغمغم به، فصمت حتى رفعت رأسها:

- امكث معنا أيها الوزير، وسأخرج أنا إلىٰ سانشو؛ عله يستمع لرجائي، ولا تتحرك قبل عودتي.

***

انبثقت أشعة شمس الضحى لتنساب بخطوط عمودية باهتة بين الأعمدة، تضيف إلى حسن مسجد «طُلَيْطِلَة» منظرًا طبيعيًا خلابًا، وقبل أن يبدأ «المغامي» درسه، نظر إلى الطلاب وهم يعدون أوراقهم، ووقعت عيناه على «زياد» فقال:

- أين موسى يا زياد؟

تجهم وجه «زياد» واحمر خجلًا، وارتفعت الوجوه نحوه الواحد تلو الآخر، وتلجلجت شفتاه دون أن يدري بمَ يجيب؟ هل سيخبرهم بأن الخمرة جرت

منه مجرى دمه؟ أشار له «المغامي» ليدني منه، ففعل وقال بنبرة تضم في طياتها الأسف:

بعد تردد قال زياد:

- سيدي، لقد صار يردد كلامًا وفكرًا منحرفًا، يتبع مَن يحدثون الناس عن استقلال الإرادة، وحرية الإنسان في أفعاله، ورفض مبدأ الطاعة الجبرية، ناهيك يا سيدي بتقاربه مع المعاهدين وتبنيه أفكارهم.

قطب «المغامي» حاجبيه:

- حذرته ألا يجالس أشياخ الزنادقة أهل الأهواء والبدع، يتسللون إلى قلوب العامة بما يحسنونه من تزيين الكلام وتزييفه، يخربون العقول، ويذهبون الدين.

- لمَ الصمت يا سيدي عن مثل هؤلاء؟ فلم تكد تنتهي قضية الزنديق «ابن حاتم[1]» حتى خرج علينا غيره.

- ليس صمتًا يا بني، فقهاء المالكية يرفضون ذلك بكل ما أوتوا من قوة، والحمد لله أن هناك وحدة قضائية في ربوع الأندلس، على الرغم من تفكك ملوك الطوائف الذين يتبارزون فيما بينهم أيهم أكثر مجونًا ولهوًا؟ وما يردده الزنادقة وأصحاب البدع يوافق هوى الملوك، فلا يبالون بسخط الله! ولكن للمعصية شؤم عظيم أخرجت أبانا آدم -عليه السلام- من الجنة، وإن لم نتصد لها سيلحق بنا جزاؤه.

انتظر أحد الطلبة انتهاء الشيخ حتى قال بفضول:

- شيخنا ما الذي حل بابن حاتم بعد أن فرَّ من طُلَيْطِلَة؟

- إن في حكايته لعبرة؛ بالرغم من أن «ابن حاتم» كان من العدول المقبول شهادتهم وكان ذا نفوذ ووجاهة، ولكنه سقط في مستنقع التصوف والجدل الفكري والتشكيك في الأنبياء، ولما عرضت قضيته

---

(1) «عَبْدِ اللَّهِ بن أَحْمَدَ بن حَاتِمِ الأزدي الطُّلَيْطِلِيِّ» حُكِمَ عَليه بالزندقة سنة 450هـ/ 1058م، بشهادة الشهود الذين أكدوا تعطيله لأحكام الشريعة، والاستخفاف بالرسول عليه أزكى الصلاة والتسليم، وتجاوزه في حقه -ﷺ- والصحابة الكرام بالألفاظ الشنيعة.

وشهد عليه ستون شاهدًا أنه يتكلم بعبارات التهكم والسخرية في حقه -ﷺ- وأما القائم على الحسبة، فقد عدد كبائره، وأثبتها عند القاضي «ابن الحشاء[1]» بشهادة الشهود، فقرر استدعاءه للمحاكمة، لكنَّ «ابن حاتم» تغيب وفرَّ إلى «بطليوس» فقام القاضي بمشاورة أربعة من فقهاء طُلَيْطِلَة، فأجمعوا على وجوب قتله بعد إعذاره، وأخذ القاضي برأيهم وسجل أقوالهم في نسخ عديدة وزعت على أكبر عدد من الفقهاء بمختلف مدن الأندلس، وذلك للعدالة وعدم التسرع في تنفيذ الحكم، مال أكثرهم إلى ترك المذنب يدافع عن نفسه حتى تثبت عليه التهمة، ورغم هروبه وتجوله متخفيًا بين مدن الأندلس، فقد ظلت قضيته مفتوحة ومتابعة من القائم على الحسبة إلى أن تم القبض عليه بعد أربعة عشر سنة في «قُرْطُبَة» وهناك سأل قاضيها[2] عن الحكم فيه، فأرادوا قتله دون إعذار، لكنه أصرَّ على تطبيق حكم «ابن الحشاء» فيه، وتم إعطاؤه مهلة شهرين، ولم يتمكن من التوصل إلى دليل لبراءته طيلة الفترة التي منحت له، فنفذ الحكم في حقه بالصلب والطعن بالرمح أمام مرأى الحاكم والعامة.

***

(8)

ما لبثتِ الدوقة «أُرّاكة» أن خرجت من «سمورة» ممتطية جوادها، وبرفقتها ثلة من الجند، وهي بثياب الراهبات، واتجهت صوب «برغش» والهواجس ترافقها وُخوفها على «الفونسُ» يشغلها، فهي تعرف «سانشو» جيدًا، وتعلم قسوة قلبه وجمود مشاعره، وما إنْ وصلت حتى سارعتِ الدخول عليه، وكان يجلس مع «لُذْرِيق» منتشيًا وقال مصطنعًا الترحيب:

---

(1) «أبو زيد عبد الرحمن بن عيسى بن مُحَمَّد بن الحشاء» كان من أهل العلم والنباهة والفهم. استقضاه «المأمون بن ذي النون» عام 450هـ، وحمده أهل طُلَيْطُلَةَ في أحكامه وحسن سيرته.

(2) «مُحَمَّد بن أحمد بن عيسى بن منظور القيسي الإشبيلي»، استقضاه «المعتمد بن عباد» بقرطبة، كان حسن السرية فاضلًا، قدوة، ثقة، عدل في قضائه.

- أُرّاكة! سعيد لرؤيتك.

نظرت إلى «لُذْرِيق» بجانب عينها وهي تزدريه لمعاونته في حرب إخوته، ولم تتحدث، فتابع «سانشو» وهو يلاحظ احتقارها له:

- لقد عينت «روي» للتو القائد العام للجيش، ومنحته لقبًا جديدًا، فمن الآن سنطلق عليه «القمبيطور[1]»!

قالها وعلت ضحكته، بينما نظرت «أُرّاكة» إلىٰ «لُذْرِيق» ثم إلىٰ أخيها، ولم تبد أي اهتمام بقوله، فعلم «لُذْرِيق» أنها لا تريد بقاءه، وتردد قليلًا قبل أن يستأذن للخروج من عند الملك متعللًا ببعض أشغاله، فأذن له «سانشو» وما إنْ خرج حتى قالت «أُرّاكة» بصوت حزين:

- لماذا يا سانشو؟ لماذا تفعل بأخيك ما فعلت؟ وكيف تنقض عهد أبيك وتعتدي على إخوتك؟ ثم لم تكتف بسلبه ملكه حتى وضعته في سجنك! فأين هي الإخوة؟

أظهر «سانشو» بعض الغضب وقال بصوت مرتفع:

- سلبته ملكه! تعلمين ويعلم الجميع أني الأحق بالملك، وأني وريث أبي وولي عهده.

- ولكنها وصية أبينا يا سانشو، وقد أقسمت بالحفاظ عليها.

- لا أدري أي وصية تلك التي تفتتِ الدولة، وتقطع أوصالها، وتضعف جيشها وتحط من هيبتها، هذه وصية لا قيمة لها عندي، أما وصيته بحرب المسلمين فسوف أفعل، فقط أنتهي من إعادة الهيبة إلىٰ الإمبراطورية.

- كان الأجدر بك أن تحاربهم أولًا، لا أن تحارب أخاك.

- بل أردت أن أوحد المملكة وجيوشها، قبل أن ألقاهم في معركة مصيرية سيتغير بعدها التاريخ.

- إن كنت تريد المُلك فقد حُزته، فلمَ سجنت أخاك؟

حاول «سانشو» إسكاتها برد مقتضب:

---

(1) وتعني القائد الشجاع الباسل صاحب الغارات في السهول والفحوص.

- إنه ملك ليون.

ضيقت «أُرّاكة» عينيها رافضة منطقه:

- ولكنه أخوك قبل أن يكون ملكًا، وبعد أن صار ملكًا يظل أخاك.

سانشو محتدًا وقد أعطاها ظهره:

- لم يكن أخي حين حاربته وحاربني، أما الإخوة وما تقتضيه فهذا قبل المُلك لا بعده، فإنما أنا سجنت ملك «ليون، وجليقية» لا أخي الصغير!

صاحت «أُرّاكة»:

- تكاليف الملك لا تعفيك عن صلاتِ الإخوة يا سانشو.

التف «سانشو» واقترب منها مشيرًا بإصبعه، وبنبرة خبيثة هادئة:

- فلتعلمي إذن أني لم أقتله لهذه الصلات.

شهقت أُرّاكة:

- أوَكنت تفعلها؟!

- ما كان لأحد أن يمنعني، ثم لم أركِ غاضبة هكذا حين سجنا «غرسية» لماذا «الفونسُ» دون غيره تثورين لأجله؟ هل تقنعينني أن لكِ قلبًا رحيمًا؟

صمتت وقد نجح في إحراجها، ثم أشاح بوجهه بعيدًا عنها:

- والآن ماذا تريد صاحبة سمورة؟

اهتزت «أُرّاكة» من داخلها، وشعرت بخوف منه:

- أريد أن أعلم هل ستترك صاحبة «سمورة» أم ستحاربها هي أَيْضًا؟

أطلق سانشو ضحكة ساخرة:

- لا أظن أنك ستخرجين عن طاعتي، فلمَ أحاربك؟

- قطعًا لن أخرج عن طاعتك، ولن أنازعك أمرًا هو لك، والآن أنا هنا لأحدث أخي، فهل ستلبي طلبي؟

- لك ما تطلبين، على أن يكون أمرًا بعيدًا عن الملك وتكاليفه.

استجمعت أُرّاكة شجاعتها:

- أطلق سراح الفونسُ.

وضعَ يده على خاصِرتَه، وتحرك صوبها مجددًا:

- أتركه ليعود أدراجه وينازعني الملك مرة أخرى! لن أفعل يا أُرّاكة.

ابتلعت ريقها:

- فإن ضمنت لك ألا يعود.

- مَن ذاق الملك لا يسلاه أبدًا.

جثت على ركبتيها:

- أعدك بذلك يا أخي، فبحق ما لي عليك من إخوة، وبحق والدتنا وأبينا أطلق سراحه.

أمسكها «سانشو» من يدها، ورفعها، وجعلها تجلس بجانبه، قائلًا:

- قولي لي ماذا تريدين مني أن أفعل؟

- إن لم تطلق سراحه فلا أقل من أن تتركه يترهبن ويقيم في الدير.

استرخى «سانشو» على كرسيه هنيهة، صمت بعدها وهو يفكر، ثم اعتدل مرة أخرى، بينما نظرات «أُرّاكة» تستعطفه وتستنطقه، فقال:

- بشرط أن يرتدي حلة الرهبان، ويحلق رأسه، وليس أي دير فقط «ساهاجون[1]» فإن قبل، وإلا فليبق في السجن.

انزعجت «أُرّاكة» لشرطه الغريب:

- دعني إذًا أتحدث إليه... أرجوك!

- لك ذلك.

خرجت «أُرّاكة» ليدخل «لُذْرِيق» مرة أخرى وعلى وجهه علامات عدم الرضا، وكان يسمع ما بينهما وينتظر خروجها، فقال سانشو متعجبًا:

- ما بك؟

- أخشى إن خرج من السجن، أن يتمكن من الفرار؛ فليس السجن كالدير.

---

(1) Sahagún Monasterio Real de San Benito الدير الملكي في «ساهاجون».

- إن قبل الترهبن، فلنشددن الحراسة على الدير حتى لا يدخل أو يخرج منه أحد.

***

كان السجن موحشًا لا يعرف معنى الآدمية؛ فالظلام حالك والتهوية رديئة قاتلة، والرائحة الكريهة تنبعث من كل مكان، والجدران الحجرية ملطخة بدماء وأشياء متعفنة، والحراس دائمو التردد والانتشار في كل مكان يلاحظون السجناء، ويعنفونهم بين الفينة والأخرى.

وفي إحدى غرف السجن انكفأ «الفونسُ» على نفسه ينظر إلىٰ فتحة في أعلى الجدار مغلقة بالحديد، يتسرب منها شعاع خفيف للشمس، وبعض نسمات هواء ضعيفة لا تغير من رائحة المكان، وأمامه طبق من فتات طعام، وهو يفكر فيما كان من أمره ويعض على أسنانه، ويتجرع الندم، وقلبه يكاد أن ينفطر وهو يحدث نفسه:

- كيف لم أجهز على جيش سانشو؟ حتى استدار لي وفعل بي ما فعل، وكيف بسذاجتي أضعت نصري؟ حتى أُلقي به في غياباتِ السجن!

أزاح بصره عن مصدر الضوء الوحيد في الغرفة ليضع رأسه بين ركبتيه، ويدخل في سكون كبير لم يقطعه سوى سماعه صوت أقدام تقترب من باب الغرفة...

في أول الأمر لم يهتم؛ ليقينه بأنه أحد الحراس لذا لم يرفع رأسه، حتى فُتح الباب، وسمع من يهرول نحوه، ويقول بصوت محبب إليه:

- أخي!

لم يكد «الفونسُ» يصدق نفسه، فرفع رأسه وما إنْ رأى «أُرّاكة» حتى نهض واحتضنها بقوة:

- لم أشك لحظة واحدة في قدومك، لقد كنت على يقين من زيارتك!

- ما كنت لأتأخر عنك بعد الذي بلغني.

ارتجفت شفتا الفونسُ، وأمسك يديها وقبض عليهما كأنه يتدثر بهما:

- أرأيتِ ما حلَّ بأخيك؟

- يؤسفني ذلك، ولكنه سانشو الذي نعرفه.

هزَّ «الفونسُ» رأسه للجانبين متحسرًا:

- قسَّم الملك الراحل المملكة حتى نتنافس في حرب العرب.

واستطرد بلهجة ساخرة:

- فإذ بنا نتنافس في قتل شعوبنا، وقطع أرحامنا، وحروب بين الإخوة لا تنتهي!

- أنت تعرف سانشو، وتعرف أخلاقه؛ فلمَ تفاجأت بما فعل؟

تحرك «الفونسُ» أسفل النافذة الصغيرة ورفع رأسه إليها، ليرتشف منها رحيق الحرية:

- كنت أظنه قد تغير، كنت أخال أن طمعه سيزيده قوة في حرب العرب! حتى حينما هزمته تذكرت حربنا معهم، فلم أقض على جيشه أملًا في أن يعود إلىٰ رشده، فإذ به يكرُ عليَّ، ويفعل بي ما كنت قادرًا على فعله لو أردت.

لم تعرف «أُرّاكة» ماذا تقول، فصمتت هنيهة قالت بعدها:

- هون عليك يا حبيبي، فلن يدوم سجنك.

حانت من الفونسُ التفاتة سريعة، وقال بلهفة:

- هل طلبت من «سانشو» أن يفك أسرى؟

- أجل.

- هل قبل؟

- بشرط أن تدخل الدير.

فغر فاه، وقال محتدًا:

- ماذا؟ أدخل الدير!

- وترتدي زي الرهبان.

ضرب الحائط بيده، وصرخ:

- أيفرض عليَّ ذلك، وقد ظننتُ أنك تحدثتِ معه في عودتي لمملكتي!

رفعت هي الأخرى صوتها:

- هو لا يريد حتى أن تتذكر أنك كنت يومًا ملك «ليون».

استدار بوجهه جهة الحائط:

- لن أقبل بهذه الشروط المذلة أبدًا يا أُرّاكة. لن أقبل!

اقتربت منه ولامست كتفه، وقالت ودموعها في عينيها:

- أرجوك يا أخي!
- يريدني أن أزهد في الدنيا، وأترهبن حتى لا تقوم لي قائمة.
- إنه يخشى عودتك، وهو يعلم شدة بأسك وقوة عزيمتك.
- لو كنتُ كما قال، لما رجعت عنه وقد هزمته أولًا.
- فلتقبل إذًا؛ حتى لا تظل هنا.
- حتى أنتِ يا أُرّاكة!

مسحت دموعها بيدها، وقالت هامسة كي لا يسمعها الحراس:

- أخرج من هنا أولًا، ثم تدبر أمرك بعد ذلك.

ران الصمت على كليهما، وتبادلا النظرات، ونظرات «أُرّاكة» كلها ترجي ونصح، وقد فهم «الفونسُ» ما ترمي إليه، فقال:

- كما ترين يا أُرّاكة.

***

(9)

انتهى درس «المغامي» وخرج «زياد» من المسجد الجامع متجهًا صوب دكان «جعفر القماش» القريب في السوق، وكان يفتحه بدلًا منه إذا كان مسافرًا، كان البرد يضرب المكان، والرياح تهب شديدة قاسية، وتدثر الجميع بالملابس الثقيلة خوفًا من البرد في مثل هذه الأيام من السنة، وبدأ الناس في جمع الحطب والأخشاب يحرقونها بحثًا عن الدفء، وظن «زياد» أنَّ أحدًا لن يبتاع منه اليوم، وحدث نفسه:

- مَن الذي سيخرج من بيته في طقس سيئ كهذا ليبتاع أقمشة جديدة؟ فجدران البيوت فيها وقاية من برد يضرب ويؤلم، ولكن لا بأس يا زياد، سيرسل الله الرزق فلا تعجل على أمرك.

وأخذ بالأسباب، وفتح الدكان، وأخذ يرص لفات الأقمشة أمامه، ولم يمر الكثير من الوقت، حتى فوجئ بصديقه «موسىٰ» يقترب منه قائلًا:

- السلام على صاحب الدكان.

زياد متعجبًا:

- وعليك السلام، ما ظَفَرَتْكَ عَيْنِي مُنْذُ زَمانٍ!

دار «موسىٰ» بعينه في البضاعة المعروضة:

- ليس انقطاعي عن دروس المغامي يمنعني من لقائك يا صديقي.

- هل جئت للسلام على أم لشراء الأقمشة؟

- لهذا وذاك.

ثم بدأ يقلب في الأقمشة، وزياد يتابعه بعينه ويترقب، وفجأة تركها:

- يجب أن أنصرف الآن؛ لقد تذكرت أمرًا مهمًا.

خرج «زياد» وراءه:

- لم تذكر لي حاجتك بعد!

- لاحقًا، لاحقًا.

ثم انطلق مسرعًا لا يلوي على شيء، ضرب «زياد» كفًا على كف، وهو ينظر إلىٰ من كان صديقه بالأمس، ويتعجب له ومما يفعل، وعيناه لا تفارقان «موسىٰ» وهو يبتعد شيئًا فشيئًا، حتى لحق بفتاة قد غطت وجهها بحجاب رقيق. وناداها وهو يلهث:

- نيفادة!

لم ترد الفتاة، واستمرت في سيرها بل سارعتِ الخطى أكثر وأكثر، فتقدم منها حتى اعترض طريقها:

- لمَ لا تجيبينني؟!

- ماذا تريد؟

- ألا تعرفينني؟

تأففت وهي تكمل سيرها:

- بلى أعرفك، فماذا تريد مني؟

- أريد الوصال.

توقفت وقالت بلهجة قوية:

- أوَتظن أنني جارية أو بائعة هوى يا هذا؟ أم تراك اعتقدت لأني مسيحية فأنا سبية لك؟

- سبية! من قال ذلك؟ إنه الحب يا نـــ...

لم تتغير ملامح وجهها الذي يعلوه التقزز، وقاطعته:

- الحب!

- أجل ذلك الحب الذي يسلب اللب والعقل، ويبدل الإنسان ويغير صفاته.

- تحبني، أم تريديني جارية لك؟

- بل أريدك زوجة لي.

زفرت ضاحكة ساخرة:

- لك أنت وبهذه السرعة والسهولة!

- نعم، فقد والله أحببتك ووقعتِ في نفسي، حتى إني أكابد الشوق كثيرًا.

أخذت تحدق إليه بعينيها من أسفل إلى أعلى، ثم قالت بعد نفس عميق:

- لن أستطيع إسعادك، فابحث عن سعادتك مع غيري.

- إن وجهك المبتسم وحده يمكنه إسعادي.

رمقته بنظرة مزدرية:

- ولكنك على غير ديني، فهمت!

- ديني لا يمنع أن أتزوج من نصرانية أو حتى يهودية.

- ولكن ديني يمنعني من ذلك.

قالتها وأشاحت بوجهها عنه، وتحركت لتكمل طريقها، بينما توقف «موسىٰ» وتسمر مكانه.

***

قصر «المُكرم» طُلَيْطِلَة

كادت عينا «الفونسُ» أن تزيغا وهو يخطو ناظرًا إلىٰ روعة قصر «الْمَأْمُون بن ذي النُّون» وما فيه من كسوة رخامية تغطي الجزء الأدنى من الجدار

كإزار دائر حيث دار المجلس وهو من رفيع المرمر الأبيض المسنون صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين، خرمت فيه صور أطيار وأشجار ذات ثمار، وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها، متميزة من شكلها، تكاد تقيد البصر عن التعلي إلىٰ ما فوقها. ناهيك بالزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار، وصور أنعام وأشجار، يذهل الألباب ويقيد الأبصار، شعر «الفونسُ» كأنه في بلاد غريبة وأموال كثيفه.

وما إنْ رفع عينيه عن تلك الصور وهو مشدوه الفاه، حتى وقع بصره على بحيرة في وسط حديقة القصر، بُني فوقها قبة من زجاج ملوَّن منقوش بالذهب، وجلب الماء إلىٰ رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكانَ الماء ينزل من أعلاها على جوانبها محيطًا بها ويتصل بعضه ببعض، فكانتِ القبة في غلالة من ماء سُكب لا يفتر من الجري، فإذا جلس أحدٌ تحتها لا يمسه من الماء شيء، ولا يصل إليه، كان الليل قد حلَّ فأوقدت فيها الشموع، فتحول منظرها إلى شعلة عجيبة، فرأى «الفونسُ» مشهدًا بديعًا عجبًا! ورغم روعة المجلس، فقد شعر بسذاجة مَن يحكم البلاد، وقال في نفسه متهكمًا:

- يبنون القصور، وينفقون في هندستها أموالًا باهظة في سبيل تحقيق متعهم! يجب أن تدفع هذه الأموال لممالكنا الفقيرة، وشعبنا البائس.

جلس برهة من الزمن مع معاونيه المخلصين إخوة «ابن أنسور» في هذا المجلس، قبل أن يدخل عليه «الْمَأْمُون» في زينته وملابسه الفاخرة، ومن ورائه حاشيته، وما إنْ دخل حتى وقف له «الفونسُ» وجلس الْمَأْمُون على مقعده ومن ثم جلس الباقون.

- إنه لمن دواعي سرورنا، أن ينزل الأمير الفونسُ ضيفًا عندنا.

طأطأ «الفونسُ» رأسه توقيرًا:

- وهذا أَيْضًا من دواعي سروري أيها الملك، فقد اخترتُ النزول هنا، ولم أشأ أن أذهب إلىٰ أي مكان آخر حبًا فيكم، وفي تلك البلاد العظيمة التي تحكمونها.

أشار له «الْمَأْمُون» ليجلس في مقعد قريب منه، وصفق فدخلتِ الجواري الحسناوات يحملن صواني ممتلئة بطعام شهي وفاكهة متنوعة، وبدأتِ

القينات تعزف بالعود، بينما شارك «الْمَأْمُون» «الفونسُ» تناول الطعام، وأخذ يعطيه بيده قطع اللحم المشوي ويقول:

- ساءني ما فعله الملك «سانشو» بك أيها الأمير.

- سانشو لم يفعل ولكنه المُلك الذي فعل، وقد سمعت مقولة عن العرب تقولون فيها "المُلك عقيم" لا يعرف إخوة ولا رحم، ولو كان يعرف ما قتل حاجبكم «المنصور» ابنه «عبد الله» وما قتل «المتعضد» ابنه «إسماعيل».

هزَّ الْمَأْمُون رأسه:

- أراك تعرف سيرتنا أكثر منا أيها الأمير.

تبسم «الفونسُ» مجاملة:

- كيف نكون في جزيرة واحدة، ولا نعرف عنكم كل شيء؟!

أخذ «الْمَأْمُون» نفسًا عميقًا، وعاد بظهره للخلف، وأظهر انشغاله بالطعام، ولم يدر ماذا يقول؟ وكأن الفونسُ ألجمه بحديثه، فاستطرد «الفونسُ»:

- والآن ليسمح لي الملك بالانصراف، فما زلت أشعر ببعض التعب من جراء ما حدث في «برغش».

- كنا نريد أن نستزيد من الجلوس معك أيها الأمير، ونستمتع بحديثك، ولكن لا بأس فالأيام قادمة وسيكون هناك متسع للحديث.

نهض «الفونسُ» ومن معه وألقوا التحية على «الْمَأْمُون» وخرجوا من المجلس، وعبر الرواق المفضي إلىٰ جناح مخصص لهم، نظر الفونسُ إلىٰ وزيره «ابنِ أنسور» وقال والحسد يقطر من فمه:

- لا يجب لهؤلاء أن يحكموا هذه البلاد العظيمة، فهم لم يخلقوا للحكم، ولكن خلقوا للتنعم وأجساد النساء، وإني لأتعجب كيف لمن يملك هذه الأموال وتلك البلاد أن يكون بمثل هذا الخزلان والضعف والهوان؟ كيف لهم أن يخشونا ونحن أحق بخشيتهم؟

مطَّ «ابن أنسور» شفتيه:

- إن أكثر ما يفسد الملوك يا سيدي، فرط التنعم! فتراهم يخشون الحروب ويكرهون ركوب الخيل، وأتربة الحرب، ويدفعون الغالي والثمين

حفاظًا على كراسيهم ومتعتهم الشخصية، لا يهمهم شعوبًا تجوع أو بلادًا تحترق وتقطع أطرافها، وهذا من حسن طالعنا، فقديمًا كان العرب متقشفين لا يعرفون التنعم، ولا يهابون الموت، أما هؤلاء أقصد أحفادهم فهم لا شيء، ولا يشغل بال أحدهم إلا الحصول على المتعة بأي ثمن كان، فلندفع لهم متعتهم ولنأخذ مقابلها أموالهم وبلادهم، حتى يأتي الوقتُ الذي نأخذ منهم كل شيء.

جلس «الفونسُ» على طرف السرير ذي الفرش الحريرية:

- أصبت يا بن أنسور والآن دعني، فجسدي منهك، وأريد أن أخلد إلىٰ النوم، وفي الصباح أريدك معي نتفقد «طُلَيْطِلَة».

خرج «ابن أنسور» من جناح «الفونسُ» الذي اضجع على سريره، وراح ينظر إلىٰ الأشعار المكتوبة والنقوش المزخرفة على جدران الغرفة وهو يقول:

- كم من الوقت مر حتى أنجز «الْمَأْمُون» هذا البناء الرائع؟!

ثم سرح بذاكرته إلىٰ ذلك اليوم حينما كان داخل الدير مرتديًا ثياب الرهبان، وقد ثقل عليه، وكاد أن يختنق منه، وخدم الدير يحاولون التخفيف عنه ويقولون:

- مجرد أيام وتعتاد وتنسى ما هو كائن خارج تلك الأسوار.

فتركهم وجلس وحيدًا في مكان داخل الدير، ومرت بضعة أسابيع حتى قدمت عليه أخته «أُرّاكة» لتزوره فما إنْ رآها، حتى أظهر لها التأفف مما هو فيه:

- لن أستطيع الصبر أكثر من ذلك!

- هون عليك يا أخي، فالدير أفضل من السجن.

- كلاهما واحد وكلاهما محمي بأسوار تمنعني عن الحياة.

أخرجت «أُرّاكة» من طيات ثيابها بعض الثياب، وألقته إلىٰ «الفونسُ» الذي أمسك بها:

- ما هذا؟

تلفتت «أُرّاكة» وخفضت صوتها أكثر:

- ثياب الراهبات.

الفونسُ متشنجًا وقد ظن أنه نوع عقاب جديد للتنكيل به:

- وما دخلي أنا بـ...؟

قاطعته «أُرّاكة» وهي تشير بيدها كي يخفض صوته ويهدأ:

- هذه الثياب ستخرجك من هنا.

- ماذا تعني؟

- ستتنكر بها ونخرج من هنا معًا.

- أنا أرتدي ثياب نساء!

- لا بأس في ذلك يا أخي، فالثياب لن تغير ما تحتها، ولكنها الوسيلة الوحيدة لإخراجك من هنا.

نظرت إليه ترجوه أن يقبل، فوافق على مضض، وبينما يرتدي الثياب إذ قالت أُرّاكة لخادمتها:

- امكثي هنا، ولا تتحركي، حتى أرسل في طلبك.

- أمرك سيدتي.

غمغم الفونسُ:

- ما كدت أخلع ثيابًا، حتى أرتدي أثقل منها.

ساعدته «أُرّاكة» في ضبط الحجاب:

- ولتسدل الغطاء على وجهك.

تأفف الفونسُ متذمرًا:

- أشعر أني سأموت مختنقًا بثياب الرهبان والراهبات!

- فقط ارتديه ودع الباقي عليَّ، اليوم فقط اسمع لي ولأسمع لك باقي عمري.

صار «الفونسُ» جاهزًا وقد ارتدى تنورة بيضاء فوقها عباءة بنية سميكة، وغطى وجهه بخمار أسود وضم كلتا يديه على صدره من وراء الخمار، ولم يظهر منه سوى مسبحة يتدلى منها صليب خشبي، وتقدمت «أُرّاكة» وبجانبها أخيها المتنكر يسير في أناة مطرق الرأس حتى وصلا إلىٰ باب الدير الضخم،

وكانت ثلة كبيرة من الفرسان والحرس تراقب الخارج والداخل، فقال لها أحدهم:

- مَن هذه؟

وقفت «أُرّاكة» وضغطت على كلماتها:

- إنها أخت رفيقة من الدير سأصحبها معي؛ لتعلمني بعض الصلوات.

نظر الحارس إلىٰ الراهبة:

- لماذا لا تجيبين، وترد عنك الدوقة؟

رفعت «أُرّاكة» ذقنها كإظهار مكانتها السامية، وتحدثت بنبرة متعالية:

- ولماذا تريد الحديث إلىٰ الراهبة، وأنت تعلم أنهنَّ لا يحدثن الذكور؟ أنت بهذا تفزعها!

- ولكن يا سيدتي...

قاطعته محتدة:

- لا تنس أني رئيسة أديرة المملكة كلها، كما أني أخت الملك «سانشو»، فابتعد عني، ولا تثير غضبي ونقمة سيدك إن علم بتعرضك لي!

تلجلج الحارس ولم يتحدث، فنهرته «أُرّاكة»:

- أفسح لنا الطريق!

استجاب لها، فخرجت «أُرّاكة، والفونسُ» من الدير، حتى إذا ابتعدا عن الحراس، رفع الغطاء عن وجهه، ثم احتضن أخته، وشكرها بحرارة، وأوصاها أن تنتبه لغضب «سانشو»، ووثب بقفزة سريعة فوق حصان قد أعدته له، فهتفت به:

- إلىٰ أين ستذهب؟

شدَّ «الفونسُ» لجام الفرس تجاه الجنوب:

- إلىٰ بوابة الشمس.

ولكز بطن جواده، وانطلق يقطع الأرض حتى دخل إلىٰ أحواز «طُلَيْطِلَة».

***

(10)

ما كادت خيوط الشمس الذهبية أن تظهر من خلف جبال «طُلَيْطِلَة» حتى تسللت عبر نوافذ البيت الذي تحيطه أصص الزهور لتمنحه صباحًا دافئًا، خرج «جعفر» من غرفته:

- صباحك خير يا «فاطمة»، هل استيقظ الكسول؟

ظهر «زياد» من خلف أمه:

- لستُ كسولًا، بل أنتظرك من قبيل الفجر.

ابتسمت «فاطمة» وهي تنظر إليهما:

- ألا أعد لكما الإفطار؟!

رفع «جعفر» يده وألقى سهمًا وهميًا بشكل مرح:

- كلا، فإفطارنا اليوم سيكون من صيد أيدينا.

ثم نظر إلىٰ «زياد»:

- هيا أيها القماش الكسلان.

انتعل «زياد» حذاءه وربطه على ساقه، وهو يقول:

- ستندم بعد قليل على قولك هذا.

تحرك «زياد» حتى امتطى ظهر «الورهاء»، وانطلق مع زوج أمه الطيب الذي وجد فيه أبًا وأخًا وصديقًا تصاحبهما سعادة غامرة، حتى دخلا أدغال «طُلَيْطِلَة» وابتعدا عن العمران. أخرج «زياد» أحد سهامه وقال بصوت خافت:

- انظر هناك!

التفت «جعفر» فإذ به غزال صغير يأكل العشب، فهمس إليه:

- سنرى الآن مَن يصدق سهمه؟

وبخفة شديدة سحبا سهميهما، وحددا الهدف، وانطلق السهمان يشقان الهواء، حتى وقعا في صدر الغزال، فارتمى على الأرض، وانطلقت «الورهاء» والجواد الأسود، حتى وصلا إلىٰ موقع الغزال، فإذا السهمان قد أصابا الهدف.

نزلا عن متن جواديهما، وهما يضحكان، وقد انتزع كل واحد منهما سهمه من صدر الغزال. وتساءل جعفر:

- والآن ماذا نصنع؟

- سأجمع لك الحطب، وتقوم أنت بصنع الشواء.

استل «جعفر» خنجرًا وأمسك برأس الغزال:

- دائمًا ما تختار أهون الأمور.

زياد ضاحكًا:

- الأمور العظام لصاحبها.

جمع «زياد» الحطب، وأشعل فيه النيران، بينما بدأ «جعفر» بسلخ الغزال بخنجره، ثم وضعه على النيران، وجلسا يغذيانها بالحطب الذي بدأ يفرقع. لاحظ «جعفر» شرود «زياد» وهو ينظر إلى الشرر المتطاير، وانتظر أن يحدثه فلم يفعل، بل ظل على صمته، وبعد فترة بينما يقتسمان اللحم سأله وهو يعلم ما يشغل باله:

- ماذا فعل صديقك موسىٰ؟

توقف «زياد» عن المضغ:

- لا أعرف عنه شيئًا، مذ أن صادق هذا الـ «بِلاجيوس» لم يعد يريد لقائي، فقد اكتفى به وبالحانات عني، و...

صمت فجأة، وحدق النظر إلى مكان ما، بينما تعجب «جعفر» فنظر إلىٰ حيث ينظر، وقال بمسحة من فزع:

- ما هذا؟!

زياد هامسًا:

- يظهر من ثيابهم وهيئتهم أنهم قشتاليون.

قبض «جعفر» على مقبض خنجره، وهمَّ بالنهوض:

- جواسيس إذًا!

أمسك «زياد» بذراعه ليوقفه:

- دعنا ننتظر.

تابعا ما يحدث، وإذا بواحد من القشتاليين يعطي الثاني ورقة، ثم يتفرقان، فيتجه واحد منهما صوب «قشتالة» والآخر يخفي الورقة في طيات ثيابه، ويعود إلىٰ «طُلَيْطِلَة».

- هيا، نلحق به.

صاح بها «جعفر» بينما قال زياد:

- لن يجدي ذلك نفعًا؛ فلو تبعناه لشعر بنا ونحن هنا في خلا، وسيكون من السهل عليه اكتشاف أمرنا، ووقتها ربما يعود أدراجه، فلا نعلم مَن يساعده في طُلَيْطِلَة؟ أو لربما اضطررنا إلىٰ قتله، ووقتها لن نعرف أَيْضًا من خلفه.

- نتركه هكذا!

- لا تقلق؛ لقد حفظت وجهه جيدًا، ولن أعدم طريقة لمعرفة مكانه، ومراقبته من داخل «طُلَيْطِلَة».

أغمض «جعفر» عينيه وغمغم استغفارًا، ثم قال:

- كل ذلك يحدث في غفلة من «الْمَأْمُون بن ذي النُّون».

- ومَن يدري؟ فلعل هذا الجاسوس يحمل أخبارًا إلىٰ الطريد القابع في قصوره!

***

(11)

كانتِ العيون في أزقة «طُلَيْطِلَة» وأسواقها التي يتجمع فيها أصحاب المهن الواحدة في درب واحد كالعطارين، والجزارين، والصرافين، والحصارين باعة الحصر، واللجامين باعة لُجُم الخيل، والبلطيرين باعة الفراء، والحناطين باعة الحنطة، والحدادين والفخارين تتابع بشغف ذلك الطريد الذي اعتاد أن يمر في هذه الشوارع كل يوم بصمت رهيب ومعه وزيره «ابن أنسور» وهما ينظران هنا وهناك، وكأنهما يرسمان خريطة للمكان: البيوت وجمالها، الطرقات وتنظيمها، الشوارع وبلاطها، الحدائق وكثرتها، المياه وجريانها ووصولها إلىٰ المنازل، النوافير وانتشارها في كل ميدان وبيت، الأسواق

واكتظاظها بالبضائع، والمساجد الرابضة على رأس كل حي وفي قلب كل ميدان، حتى إذا اقترب من المسجد الجامع، توقف وقد فغر فاه من روعته وفخامته وكبر حجمه، ثم ازداد تعجبًا وهو يرى خروج العشرات دفعة واحدة من باب المسجد، وتذكر حال الكنائس في بلاده، وخلوها إلا من القليل جدًا، فسأل وزيره وقال:

- ليس موعد للصلاة فلمَ كل هؤلاء يخرجون الآن؟

- إنها حلقات العلم التي يأتيها الطلاب من كل مكان؛ العلم هنا ليس حكرًا على الملوك والأمراء كما لدينا، بل يصل لديهم حد العبادة، فهم يرون أن التعليم واجب لمعرفة أصول دينهم وعباداتهم.

توقف «الفونسُ» تحت ظل شجرة وارفة، وسأله متعجبًا:

- وما علاقة الدين بالعلم؟

- بالقراءة والكتابة يقرأون قرآنهم، وبالفلك يحددون قبلتهم ومواقيت صلاتهم، وبالحساب يعرفون زكاة أموالهم وحق الفقراء فيها، وبالطب والصيدلة يداوون مرضاهم؛ فتراهم أكثر الأمم تقدمًا في الطب والصيدلة وباقي العلوم.

تقدم «الفونسُ» بضع خطوات، ومال بجسده تجاه الرصيف ليلتقط إحدى ثمراتِ البرتقال المجمعة في أخدود لمن يريد أن يتناولها:

- أتعلم يا بن أنسور، أنا لم أحسد هؤلاء العرب على شيء قدر حسدي حرصهم على العلم وتحصيله، انظر حولك ستجدك كأنك في جنة، فأين «برغش، وليون، وجليقية» من هذا الجمال وهذه الأبنية الفخمة والشوارع النظيفة المنمقة؟

كانا يسيران حتى دخلا حي «البئر المُر» فرأيا حمامًا فخمًا يُدعى «حمام يعيش» فأردف الفونسُ:

- وما كل هذه الحمامات التي لا يكاد أن يخلوا منها شارع واحد!

- هكذا دأب المسلمين يا سيدي، فهم حريصون على الاغتسال بشكل دائم، وكأنهم في كل لحظة مستعدون للصلاة.

هزَّ «الفونسُ» رأسه، ثم أكمل سيره، حتى وصل إلىٰ دكان «منصور النخاس» فوقف متعجبًا:

- ما هذا؟!

- إنها حانة خمر وشراب.

- هنا في طُلَيْطِلَة!

- أجل، إنها حديثة النشأة، فلم يكن في كل الأندلس مكان يبيع الخمور علانية قبل سقوط خلافتهم.

ربت «الفونسُ» بيده على صدر «ابن نسور» لهمته في جمع المعلومات، ووقف أمام الدكان، يراقب الداخل والخارج، وكأنه يفكر في الدخول، وكانتِ الشمس قد قاربت على المغيب وبعد تردد دخل إلىٰ الدكان، وراح ينظر هنا وهناك، يتفحص وجوه الناس ولم يقطع تلك النظرات سوى صوت يأتيه من الخلف:

- سيدي الأمير، أهلًا بك ومرحبًا!

وأشار بيده ووجهه تعلوه ابتسامة كبيرة:

- تفضل سيدي الأمير.

تحرك «الفونسُ» حتى جلس في المكان المشار إليه، وجلس بجواره وزيره، ثم تحدث الشاب:

- أدعى بِلاجيوس يا سيدي، وأنا من القوط الذين بقوا هنا تحت حكم المسلمين.

هزَّ «الفونسُ» رأسه ولم يتحدث بينما صاح بِلاجيوس:

- منصور، هات الشراب!

رفع «الفونسُ» كف يده:

- أنا لم آتِ إلىٰ هنا للشراب؛ لا داعيَّ لذلك.

احمر وجه «بِلاجيوس» خجلًا، وقال متزلفًا:

- كنت أتمنى أن يقبل سيدي الأمير أن يشاركنا هذا الشرف.

- ربما في مرات أخرى قادمة.

- ولا سيدي الوزير؟

- إن سمح لي مولاي الملك.

تكلف «الفونسُ» ابتسامة ثقيلة:

- لا بأس، فلتتبسط قليلًا.

جاء «منصور» بباطية من الشراب وصب «بِلاجيوس» الكأس وأعطاه لابن أنسور، بينما كان الفونسُ يراقب ثم قال:

- هل هذه الحانة للقوط فقط، أم يدخلها المسلمون أَيْضًا؟

- بل جُل زوارها يا سيدي، مِن المسلمين إلا القليل.

مطَّ «الفونسُ» شفتيه ورفع حاجبيه:

- كنت أظن أن دينهم يمنعهم احتساء الخمر!

- لا يمنعهم دينهم عن أمر إلا وفعلوه يا سيدي، إلا قليلٌ منهم.

- وهذا القليل هو مَن يجب أن نصنع له ألف حساب.

***

(12)

كاد الغضب يمزق أوداج «سانشو» المنتفخة وصوته العالي يتردد في جنباتِ القصر، بينما الجميع صامتون يخشون مجرد الحديث أو الرد عليه، وكان لا يستقر بمكان، ثم تحرك صوب مائدة كبيرة أمامه، فقذف بيده ما عليها وأراق الشراب، وبعد لحظات عاد فجلس على رأس المائدة، وزمجر بصوت غاضب:

- ما كان يجب عليَّ ترك سمورة هكذا! لقد أخطأت حينما تركتك يا «أُرَّاكة» وأنا أعلم حبك لــ«الفونسُ»، ولكن لا بأس، ستدفعين الثمن غاليًا، وستخضعين لسلطاني!

ثم حملق بعينه وكأنه يرى شخصًا ما، وضرب بقبضة يده على المائدة:

- أما أنت يا الفونسُ فأي بلاد تأويك، وأي سماء تغطيك!

أشار «لُذْرِيق» للواقفين بالانصراف، حتى فرغتِ الغرفة لكليهما، واقترب من الملك قائلًا:

- هون عليك، فقد فرَّ على كل حال، ولن يعجزنا أمره.

أجابه «سانشو» بصوت مختنق:

- أنت لا تعلم مكر «أُرّاكة» يا روي، ولا تعرف عزيمة «الفونسُ».

جذب «لُذْرِيق» كرسيًا من السفرة وجلس جوار الملك:

- ولكن أعرف عزيمتك وقوتك جيدًا يا سيدي، وما الفونسُ إلا فأر طريد لا يقدر على شيء.

- بل يقدر ما دامت «أُرّاكة» سيدة «سمورة».

- لكنه لم يدخل إلىٰ سمورة، ولن يدخل وعيوننا محيطة بها.

- لن أنتظر هنا حتى يدخلها أو يدبرون عليَّ، يجب أن تخضع «أُرّاكة» وتتنازل لي عن «سمورة».

- فإن لم تقبل!

- ستقبل رغمًا عنها، فلم يبق بعد «غرسية، والفونسُ» شيء خارجًا عن سلطاني غيرها وغير «البيرة» بيد أن الأخيرة لم تساعد «الفونسُ» لذا فقد حق علينا أن نبدأ بـ«سمورة».

نهض «لُذْرِيق» على الفور:

- أنا طوع أمرك يا سيدي، فإن أردت فلأخرجنّ بالجيش وأضم تلك المدن إليك، ولن يأخذ الأمر مني إلا بعض الوقتِ.

هدأ «سانشو» قليلًا وقال بصوت خفيض:

- سأخرج أنا بنفسي لـ«أُرّاكة» حتى أنهي أمرها أمام عيني.

- إذًا لتؤجل ذلك حتى انتهاء الشتاء.

لم يأت شهر مارس حتى خرج «سانشو» من برغش على رأس جيش يريد الاستيلاء على «سمورة، وقلعة تورو»، وحاول في البداية أن يحقق غرضه بالتفاوض، فعرض على أختيه أن يعوضهما عن المدينتين بأملاك أخرى، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده.

عندئذ سار في قواته، واستولى على قلعة «تورو»، ولم تبد صاحبتها «البيرة» كبير مقاومة، وأرسل رسالة إلى أتباعه بضرورة التجمع في «ساهاجون» وفي وقت ويوم محدد اجتمع جيشه، وأمره بالسير إلى «سمورة» حيث وصلوا بعد ثلاثة أيام، ونصبوا خيامهم، وهناك ركب «سانشو» حصانه خارج المدينة، ونظر إلى أسوارها القوية، وأبراجها المرتفعة على قمة هضبة صخرية عظيمة، على حافة النهر وقال لفرسانه:

- هذه المدينة لن نفوز بها خلال ساعة! لو أستطيع شراءها من أختي أو أستبدلها بمدينة أخرى سأكون سيد إسبانيا.

شعرت «أُرّاكة» من داخلها بخيبة شديدة، وتضاعف خوفها، فهي امرأة وكل ما تملكه معاونة بعض نبلاء ليون الحانقين على «سانشو»، وطائفة قليلة من الجند المخلصين وعلى رأسهم مستشارها «آرياس كونثالث» الذي قال بنبرة هادئة رغم خشونة صوته عله يقنعها:

- يجب استدعاء جميع رجال المدينة معًا، وسؤالهم عما إذا كانوا سيقاتلون من أجلك؛ إذا أرادوا، فعليك السيطرة على المدينة، ولنعتمد في ذلك على مناعتها ووعورة مسالكها، وإذا لم يفعلوا ذلك، فعليك أن تذهبي إلى «طُلَيْطِلَة» ولتعيشي بين المغاربة مع شقيقك الفونسُ.

عندما تم اجتماع رجال «سمورة» أعلنوا أنهم سيحتفظون بالمدينة، ويأكلون البغال والخيول قبل أن يتخلوا عنها دون أمر الدوقة. سعدت «أُرّاكة» جدًا بهذا، ودعت شقيقها للتخلي عن هجومه على مدينتها.

لكن «سانشو» دفع بسائر جيشه، وهاجموا أسوار المدينة وحاربوها ثلاثة أيام وليالٍ، والسموريون يحرقون بالسهام المشتعلة كل من يقترب أسفل الأسوار، حتى امتلأت الخنادق بالجثث، وامتلأت مياه النهر بالدماء والجثث المتفحمة. وعندما رأى الكونت «غرسية بن أُردنيو»[1] أحد قادة الجيش القشتالي مدى فداحة خسارتهم، توسل إلى «سانشو»:

- سيدي لقد نفذت وصاياك بأمانة، ولكنها أختك الكبرى، فلا نحاربها أكثر من ذلك أرجوك أوقف القتال.

---

(1) García Ordóñez de Cabra.

- كم الضحايا؟
- لقد فقدنا أكثر من ألف رجل.
- والمسيح وأمه، لن أبرح مكاني إلا والمدينة مستسلمة لي! أو أقتحمها أو أموت دون ذلك... أوقف الهجوم، وليطوق الجند المدينة فلا يخرج منها أو يدخلها أحد.

وضرب حولها الحصار حتى بدأ الجوع يدب فيها، واستمر حينًا وهو يهاجمها من آن لآخر، وقد صمم على أخذها، وأجبرت المعاناة الكبيرة في «سمورة» «أُرّاكة» أن تخبر مستشاريها:

- ابلغوا الرجال لقد فعلوا ما يكفي، ويجب عليهم التخلي عن المدينة في غضون تسعة أيام، وسأذهب إلى «طُلَيْطِلَة» حيث الأمير الفونسُ.

ولكنَّ رجال «سمورة» قرروا أن يذهبوا معها جميعًا.

***

(13)

في صباح باكر لذات يوم استيقظ «الفونسُ» نشيطًا مبتهج النفس كعادته منذ أن ذاق حلاوة النعيم في قصر «الْمَأْمُون»، لم ينتظر مجيء معاونيه إليه، وخرج من الجناح يروم التنزه في حدائق القصر الواسعة، فسار يتأمل أحواض الزهور المنمقة التي تمثل أطواقًا من الأزهار الجميلة وخاصة البنفسج والسوسن، ينفح شذاها العطر والماء يجري بين أعشابها، ثم قادته قدماه إلى بركة مملوءة، كانت كأنها مرآة مجلوة، على جانبيها تماثيل لأسود صفر فاغرة الشدوق، تمج المياه من أفواهها هونًا، فتنتثر رذاذًا منظمًا كحبات اللؤلؤ، وفي قعر البحيرة، وضعت أحواض من المرمر كبيرة الجرم بديعة النقش، غُرس في وسط كل واحد منها شجرة كبيرة مصنوعة من الفضة، غريبة الشكل محكمة الصنع، تخرج المياه من أفواه أغصانها، كرشات ندية، وتحدث نغمات[1] كألحان موسيقية عذبة، تصبي النفوس، ويخرج من ساق الشجر نافورة ضخمة، تندفع المياه منها بقوة.

---

(1) نتيجة اختلاف قطر فتحات الأغصان.

خرج «الفونسُ» من الحديقة بعد وقت طويل لا يعرف مداه، قضاه في تأمل «جنة السلطان»، وبينما يقترب من ديوان «الْمَأْمُون» إذ سمعه يتحدث مع وزيره «ابن الحديدي» فوقف خارج الإيوان يتنصت دون أن يشعر به أحد.

- لا أظن أن الفونسُ يريد الآن غير العيش الآمن.

- إن كان كذلك يا سيدي، فلمَ يراقب ويعاين كل شيء، ولا يمكث بمكان أو بقصر؟

الْمَأْمُون مستهينًا:

- ربما أراد الرجل أن يُسرى قليلًا عن نفسه بعيدًا عن القصر وما فيه، ومن منا يا رجل، يستطيع العيش داخل جدران ضيقة ولو كانت قصور الْمَأْمُون؟!

- لقد أردت لفت نظر مولاي إلىٰ ما يحدث، وكنت أرجو منكم، أن تجعلوه تحت الإقامة الجبرية، فلا يغادر قصره.

- نسجنه!

- مَن قال ذلك يا سيدي؟ وهل مكوثه في القصر سجن؟

- لا لن أفعل، ولا تنس يا بن الحديدي، أن طُلَيْطِلَة ليست بالمدينة السهلة، بل هي المنيعة التي أعيتِ الجيوش من قبل، فحتى لو صدقت نبوءتك فلن يستطيع جيش هزيمتها، إلا إذا أنفق عليها سبعة أعوام على الأقل في تخريبها، وانتساف مؤنها، وحصارها، وتجويعها.

أخذ «الفونسُ» يُطَرْطِبُ ويَنْفُخُ بشفتيه غيظًا وكِبرًا، وراح من فوره يختلط بالسكان المسلمين، يعاين أخبارهم وأخبار مدينتهم ويرى انعكاس الإسراف في قصور «الْمَأْمُون» عليهم، ويتريض في جنباتِ المدينة الحصينة، ويفكر من أي الأماكن، وبأي نوع من أدواتِ الحرب يمكن اقتحامها، حتى إنه لم يترك شيئًا فيها إلا عاينه، وكان يرافقه في كل ذلك وزيره «ابن أنسور» وإخوته، ولم يكتف بذلك بل عمد إلىٰ المعاهدين، وعلى رأسهم «بِلاجيوس» وجعل منهم جواسيس له، وكان إذا انتهى من كل ذلك عاد إلىٰ قصره، فيتلقاه «الْمَأْمُون» بكل ترحاب، ويجلسه معه، وكأنه نديمه!

***

(14)

6 أكتوبر 1072 م

سيطر الضجر على «سانشو» لمناعة «سمورة» وهو مَن كان يراها سهلة هينة، فجلس في خيمته الملكية بالمعسكر يتوعد «أُرّاكة» امتناعها وتحديها له وهو يقارع كأسه ويشرب الكأس تلو الكأس، وقد احمرت عيناه بعد أن أسرفِ في الشراب وراح يهذي، وبينما هو على هذا الحال إذ دخل عليه أحد حراسه يقول:

- بباب الخيمة فارس من سمورة يا سيدي يريد أن يلقاك.

كان «سانشو» قد ثقل لسانه وبصعوبة سأل:

- رسول من أُرّاكة!

- كلا يا سيدي، فهو لا يحمل راياتِ الرسل، وقد سألناه عن سبب طلبه للقاء فقال: إنه من النبلاء ويُدعى «بليدُ بن أودلف[1]» يريد أن يخبرك عن أحوال المدينة المحصورة ويقدم لك دليل دخولك إليها.

سانشو بصوت خفيض:

- خائن من خونة هذا العصر! أو منتفع يبيع سيدته، ولكن لا بأس أن نستفيد من الخونة ما دامت جيوشنا بحاجة إليهم، ولعل خائنًا يقدم ما لم يستطع جيشي أن يقدمه إلىٰ الآن.

انتبه سانشو على صوتِ الحارس:

- هل نصرفه يا سيدي؟!

سانشو بعد تردد وريبة لا يعرف سرها:

- بل أدخله.

خرج الحارس بينما قال سانشو في نفسه:

- لا أحب لقاء الخونة وأحتقرهم.

---

(1) Vellido Dolfos

لحظات وعاد الحارس ومعه السموري الذي ما إنْ دخل، حتى انحنى أمام سانشو وقال له:

- سيدي الملك أتيتك بنبأ عظيم عن سمورة.

سانشو وعيناه غائمتان من أثر الخمر:

- وما الفائدة من تقديمك هذه الأنباء لنا؟

- لا هدف لي ولا غاية غير رضاك يا سيدي، وقد رأيت أن حاجتي معك لا مع الدوقة أُرّاكة فهي مهزومة لا محالة، فلمَ أربط مصيري بمصير مهزوم؟

تنهد سانشو وجلس وكان واقفًا وقال للفارس:

- كيف ترى أحوال أُرّاكة؟

- في كرب شديد؛ انفض عنها معظم رجالها، كما عدمتِ الأقوات داخل المدينة.

غمغم سانشو، وانشرح صدره بتلك الأخبار، وشعر أن سمورة قربت على القطاف ثم قال:

- وما الذي جئت لتخبرنا به؟

- لا أستطيع البوح به إلا في حضرتكم يا سيدي.

أشار سانشو إلىٰ الحارس فخرج من الخيمة بينما نظر سانشو إلىٰ الفارس:

- أخبرني ما الأمر؟

أدخل الفارس يده في كمه وهو يقول هذه رسالة من سيدتي «أُرّاكة» وتظاهر أنه يخرج رسالة من طيات ثيابه، ثم تظاهر بضياع الرسالة، وقال:

- لا أدري، فلربما سقطت مني!

- الويل لك!

- ها قد وجدتها يا سيدي.

وأخرج يده من جيبه، وأعطاه لفافة وفي غفلة من سانشو بينما هو يقلب الرقعة في يده، خطف الرمح الذهبي للملك، وهجم عليه وكانت طعنة نافذة

خرق بها ظهره، ثمَّ مزَّق جدار الخيمة وفرَّ منها إلىٰ المدينة هاربًا وناجيًا بحياته بعد أن ترك «سانشو» غارقًا في دمائه، وما إنْ دخل «سمورة» حتى ذهب إلىٰ «أُرّاكة» وقبل يدها:

- سيدتي! لقد حان الوقت، للوفاء بما وعدتِ به.

فرحتِ الدوقة أيما فرح، وعلمت أن الحصار سيرفع. وفي الحال سُمعت صيحات في المعسكر:

- الملك سانشو أصيب بجروح بالغة! لقد ارتكبت خيانة عظمى!

سرى الذعر في المعسكر القشتالي وانفض عنه الجند الليونيون والجلالقة، إذ كانوا يقاتلون رغمًا عنهم، وحمل القشتاليون جثمان ملكهم القتيل، ودفنوه في دير، وتنفست «أُرّاكة» الصعداء، وهكذا سقط «سانشو» صريع أطماعه وبغيه، بعد أن حكم ثمانية أعوام فقط، وقد سمي بـ «القوي»[1] لجُرأته وشجاعته.

***

وسط قرع أجراس الكنائس في «برغش» حزنًا على الملك القتيل، اجتمع في القصر الأشراف والنبلاء يرأسهم «لُذْرِيق القمبيطور» لبحث أمر المملكة ولمن سيؤول الملك فقال لُذْرِيق:

- لقد قُتل الملك «سانشو» كما تعلمون وليس له عقب، فماذا ترون؟

- نستدعي الملك «غرسية» فيتولى الأمر مكان أخيه.

- بل نستدعي الملك الفونسُ من طُلَيْطِلَة فهو جدير بهذا، ولن يحفظ المملكة غيره فهو الأقرب شبهًا إلىٰ الراحل «فِرْنَانْدُ العظيم».

علتِ الأصوات، وتداخلتِ الهمهمات بين مؤيد ومعارض حتى قال لُذْرِيق:

- أجل الفونسُ جدير بأن يتولى العرش عوضًا عن أخيه الملك السابق، فهو وإن كان عدونا إلا أنه ذكي ومثابر ويقظ، ويلزم علينا ألا نعاديه بعد الآن، لنرسل إليه في «طُلَيْطِلَة».

اقترب الكونت «غرسية بن أُردنيو» من «لُذْرِيق» وهمس له:

---

(1) El Fuerte

- تعلم أن الفونسُ لن يغفر لك ما حدث، فكيف تساهم في عودته ملكًا، وأنت الآن صاحب الرأي فينا؟ فإن شئت فاصرفها إلىٰ «غرسية».

- لا، «غرسية» رجلٌ ضعيفٌ لن يحفظ المملكة، ولا أريد أن أكون من أسباب ضعفها، سنستدعي «الفونسُ» وسيقدر حتما أنْني كنت أخدم الملك سانشو بإخلاص، وما كنت لأفعل غير ذلك، فهذا أمر يشرفني ولا ينقصني، ولا أظن رجلًا كـ «الفونسُ» يجهل ذلك فلو خنتُ الملك سانشو ما كنت جديرًا بخدمة غيره.

هزَّ «ابن أُردُنيو» رأسه، ولم يتحدث، وأخفت ابتسامة شفتيه الصفراء حسدًا يكنه لـ«لُذْرِيق».

***

(15)

طُلَيْطِلَة

وقف «زياد» أمام الدكان يتابع أحوال الناس وينظر هنا وهناك وهو ممتعض من أفعال «الفونسُ» وحرية حركته في المدينة، وكأنه من أهلها لا عدو لدود لها، وبينما هو كذلك إذ اقترب منه «جعفر»:

- لا فائدة من ذلك فما دام «الْمَأْمُون» غافلًا فلن يجدي حقدنا نفعًا.

- لا أعلم أي رجل هو الْمَأْمُون؟ يترك الأعداء يمرحون في مملكته هكذا.

- إنه واحد من ملوك الفتنة الذين جثموا على صدر وقلب الأندلس.

- وا حسرتاه! على الأندلس ومصيرها إن ظلتِ الأمور هكذا.

- قل لي يا زياد، هل تعرفت إلىٰ ذلك الخائن الذي رأيناه في أدغال المدينة؟

- قريبًا آتيك بالنبأ اليقين، فقد رأيته منذ أيام يبتاع بعض الخبز من فرن «بِلاجيوس»، ورأيت نظرات غير مفهومة بينهما، فأيقنت بصلة هذا الجاسوس بذلك الـ«بِلاجيوس».

***

كان «الفونسُ» ينظر إلىٰ نهر «التاجة» وجريان المياه فيه، وإذ بفارس ملثم يقترب منه وينزل عن صهوة جواده ثم يخلع لثامه وخوذته لينحني أمام الفونسُ:

- سيدي أنا رسول من سيدتي الدوقة أُرّاكة، وقد جئت لأخبرك بمصرع الملك سانشو.

فغر «الفونسُ» فاه بذهول يشوبه فرح:

- سانشو!
- أجل يا مولاي.
- وكيف ذاك؟ لقد كان بحالة جيدة.
- تسلل إليه أحدهم، وأرداه قتيلًا أمام أسوار «سمورة» والملكة «أُرّاكة» تدعوك للرجوع سريعًا إلىٰ «برغش» لتتولى زمام المملكة خلفًا للملك القتيل قبل أن تنفلتِ الأمور.
- اذهب أنت الآن، وأبلغ «أُرّاكة» بأني سأتدبر الأمر، ولن يطول غيابي.

وما إنْ انطلق الفارس، حتى جثا «الفونسُ» على حجر قريب من الماء، وجلس عليه وهو لا يدري أيفرح بما حدث؟ أم يحزن لمقتل أخيه؟ وبعد لحظات قضاها في تذكر أخيه القتيل اقترب منه «ابن أنسور» وقال:

- ما لي أراك واجمًا يا سيدي؟! مهما حدث فيجب علينا أن نحسن استغلال الأمر، وأن تعود لاعتلاء العرش، فهناك في «برغش» مكانك وأنت جدير بأن تخلف الملك «فِرْنَانْدُ العظيم».
- وماذا عن الْمَأْمُون؟
- يجب ألا يعرف! يجب أن نتحرك سرًا، ونخرج من هنا قبل أن يحاط بنا، فأنت الآن ملك «قشتالة، وليون» لا هذا الأمير الطريد!
- لا أظن الْمَأْمُون يغدر أبدًا، ولستُ مَمن يخافه ولهذا سأخبره بما كان.
- وإن غدر يا سيدي؟
- لن يجرؤ! هو أضعف من أن يفعل ذلك.
- أخشى يا سيدي...

قاطعه «الفونسُ»:

- لا تخش شيئًا.

انطلق الفونسُ، وخلفه الوزير، وقبل أن يدلف إلى القصر سحب رسن جواده بشكل مفاجئ، فتوقف به الفرس، وأشار إلى «ابن أنسور» نحو حديقة جانبية ملاصقة لنهر «التاجة» والفضول على محياه:

- ما هذا المكان؟ لم ندخله من قبل؟ ولمَ ليس ملحقًا بحدائق القصر؟

- سيدي إنه «بستان الناعورة» حديقة نباتات طبية يشرف عليها الوزير الطبيب «ابن وافد»[1]. فلا تشغل بالك.

- ممم وما بها يا ترى؟

- يمكننا أن ندخل ونرى، فلن يمانعونا، ولكننا متعجلان.

- لن أذهب قبل أن أنظر ماذا يصنعون هنا؟

دخل «الفونسُ» فوجد عمالًا يعملون على تهذيب الحشائش والنباتات، ورأى ما أبهته ثانية، فقد نصبت ناعورة مياه في الوسط[2]، ارتفاعها تسعون ذراعًا، تدور فتجلب الماء من النهر، وتروي به الحدائق والبساتين، ولها صوت كأنين الإبل، وفي الجانب الغربي من الحديقة غرست نباتات غريبة على سبيل التجربة، وفي الجانب الشرقي نباتات عشبية جُلبت من الشرق الأدنى، ومن سائر أنحاء العالم، سار «الفونسُ» بضع خطوات وهو مذهول، فهتف في نفسه:

- أي بشر هؤلاء؟!

كان «ابن أنسور» يخاطب أحد العمال، ليجمع بعض المعلومات، فعاد إليه وقال:

---

(1) أبو المطرّف عبد الرحمن بن عبد الكريم بن يحيى بن وافد (467/1075) من أعلام الأطباء العرب، عالم بالأدوية المفردة والنباتات وألف فيها كتبًا استغرقت عشرين عامًا، شاعر ناظم، من أشراف مدينة طُلَيْطِلَة ووزرائها، ومن ذوي السلف الصالح، وكان واسع الثراء.

(2) نصبها «أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التّجيبيّ النقّاش المعروف بابن الزرقالي» أحد أشهر علماء الفلك في الأندلس.

- علمتُ منه أن «ابن بصّال[1]» يجري هنا تجاربه في توليد الغراس، ومكافحة الآفات الزراعية، وله كتاب عن الفلاحة دون فيه دراساته وتجاربه العملية، والكل يشهد ببراعته وتفوقه في هذا الميدان... أما الوزير «ابن وافد» فألّف كتابًا عن «الأدوية المفردة» ويقولون عانى جمعه، وترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وتفصيل قواها نحو عشرين سنة، حتى كمل موافقًا لغرضه، وتم مطابقًا لبغيته.

- وما تلك يا بن أنسور القائمة على ضفة النهر؟

- إنها ساعة مائيّة نظمت على مراحل تحدد ساعات الليل والنهار والأشهر القمرية، نصبها «ابن الزرقالي» الذي زاع صيته هذه الأيام يقولون إنه عالم بالنجوم والكواكب.

- ماذا؟ ساحر!

- لا أدري ربما، لقد بدأ حياته حرفيًا يصنع أدوات معدنية، ثم بعد ذلك أبدى مهاراته كنقّاش في الهندسة وعلم الفلك، وصنع بيده اختراعات هي الأولى في عصرنا، من أهمها صنف جديد من الإسطرلاب يُعرف باسم الصفيحة الزرقالية، وابتكاراته تلك وضعت طُلَيْطِلَة في مقدمة المركز الفكري للأندلس.

انتفض «الفونسُ» من الغيظ وكأن مسًا أصابه، وهمس له في حنق:

- علينا أن ننقل كل تلك العلوم، ونأخذها... كلها أسمعت؟! لن نترك لهم شيئًا!

ثم دخل على «الْمَأْمُون» وكان منشغلًا بجواريه وخمره، فدنا «الفونسُ» من أذن وزيره:

- هذا الذي تخشاه لا يشغل نفسه بغير شهواته، وقد كان حريًا به أن يعلم ما يجري في «قشتالة» لا أن نخبره به!

---

(1) الحاج أبو عبد الله إبراهيم الطليطلي المعروف بـابن بصال (ازدهر بين عامي 1038 - 1075)، عالم نبات وأحد أشهر علماء الفلاحة في القرن 12 (القرن 5 هـ).

ظلا واقفين في زاوية القاعة، وبين يدي «الْمَأْمُون» أشهر شعرائه[1] يثني عليه ويقول:

دَعُوا الملوكَ وأَبناءَ الملوكِ فمَنْ أَضْحى على البَحْرِ لم يَشْتَقْ إلىٰ نَهَرِ

يَا وَاحِدًا مَا على علياهُ مختَلَفٌ مُذْ جادَ كفُّكَ لمْ نَحْتَجْ إلىٰ المَطَرِ

ومُذْ طلعْتَ لنا شمسًا فَمَا نظرَتْ عَيْني إلىٰ كوكبٍ يَهْدِي وَلَا قَمَرِ

طال انتظار «الفونسُ» ولم ينته الشاعر من موشحاته، فأرسل وزيره ليهمس في أذن «الْمَأْمُون»:

- سيدي، الأمير الفونسُ يريد محادثتك.

أفاق «الْمَأْمُون» من سكرته، وذهبت بهجته، ونهض وصفق بيده على الفور، فانسلتِ الجواري من أمامه، وخرج الجميع من القاعة، ولم يبق غيره و«الفونسُ، وابن أنسور» فتقدم صوب الواقف في زاوية القاعة، وأظهر ترحيبه به مجددًا:

- أهلًا بالأمير الفونسُ، لعلنا لم نقصر في ضيافتك.

الفونسُ بنبرة جديرة بالاحترام:

- بل أحسنتم الضيافة أيها الملك.

أشار «الْمَأْمُون» إلىٰ حيث كان جالسًا:

- تعال، اجلس جانبي.

واستوى في جلسته، وجلس الفونسُ على يمينه وبجواره «ابن أنسور»:

- هل من حاجة أقضيها لك؟

- بل جئتك مودعًا.

- مودعًا! إلىٰ أين؟

تجهم وجه «الفونسُ» وأظهر تأثره:

- إلىٰ برغش فقد قتل الملك سانشو، ويجب عليَّ العودة لتولي العرش، لم يعد له غيري.

---

(1) أبُو بكر مُحَمَّد بن أرفع رَأسه.

ارتسمت ابتسامة خاطفة على وجه «الْمَأْمُون»:

- تهانينا لك أيها الملك! تهانينا بعودتك إلىٰ عرشك.

أجابه «الفونسُ» بتواضع وأدب جَم:

- لن أنسى لك جميل صنعك أبدًا أيها الْمَأْمُون، والآن هل يأذن لنا الملك بالرحيل؟

- بهذه السرعة!

- لا أريد أن يعتدي أحدٌ على العرش.

وقف «الْمَأْمُون» ونادى:

- أيها الحرَّاس، أعدوا للملك الفونسُ ما يحتاجه، وما يرغب فيه من: مال، وخيل، ورجال.

- لقد غمرتني بجميل كرمك أيها الملك، ولا أدري كيف لي أن أرد لك بعضًا مما صنعت؟

اقترب الْمَأْمُون منه:

- تستطيع ذلك إن أردت.

- كيف؟

أمسك «الْمَأْمُون» بيده وربت عليها:

- لا أريد سوى صداقتك، وأن تقطع لي عهدًا بأن تحترم مملكتي، وأن تعاونني ضد خصومي المسلمين، وأن يسري هذا العهد بعد وفاتي وألا تهاجم «طُلَيْطِلَة» أبدًا.

الفونسُ بنبرة ممتنة:

- لك ما أردت من عهود ومواثيق.

احتضنه الْمَأْمُون، وتحرك صوب صندوق كبير، فأخرج منه طائفة كبيرة من الهدايا الجليلة وقدمها له، ثم صحبه مع أكابر مملكته في موكب فخم حتى أوصله إلىٰ خارج «طُلَيْطِلَة».

***

(16)

امتطى «الفونسُ» صهوة جواده، وخلفه ثلة من فرسان المسلمين، وخرج من «طُلَيْطِلَة» التي سلبت لبه وعقله بما تحويه من: أموال، وقصور، وخيرات. حتى إذا شارف على الخروج من أرضها، وقف والتف إلىٰ الخلف مودعًا لها، وكأنه يعدها بالرجوع، ثم لكز بطن جواده برفق وقال مخاطبًا حصانه:

- سنعود إلىٰ «طُلَيْطِلَة» ملوكًا، بعد أن ندخل «قشتالة» ونحوز الملك في «برغش»! وستندم يا «مَأْمُون» على فتح قصورك لي، كما ندم «لُذْريق» على فتح بيت الحكمة![1]

وكان بالقرب منه، «ابن أنسور» الذي نظر إليه وقال:

- سيدي أعلم بالرجال مني، فلم أدر كيف لهذا «الْمَأْمُون» أن يسمح لنا بالخروج هكذا؟

ارتجَّ صدر «الفونسُ» المنتفش بهواء ساخر، وأجاب بهدوء واثق:

- هو أقل من أن يفكر بالغدر بنا، فجلَّ همه مصادقتنا، والآن لنسرع الخطى حتى ندخل «سمورة» قبل الغروب.

- ألن نتحرك مباشرة إلىٰ برغش؟

سحب «الفونسُ» رسن جواده والتف إليه:

- كيف أدخل «برغش» بحماية هؤلاء الفرسان خلفنا؟ أتريد من نبلاء قشتالة أن يقولوا: دخل علينا بحماية أعدائنا؟

- فليعودوا أدراجهم إذًا!

تبرَّم الفونسُ وتحدث بعصبية:

- وكيف ندخلها بغير حماية؟ ونحن بالأمس القريب كنا أعداء «قشتالة» وفي «برغش» مَن هو للآن موالٍ للملك القتيل.

لكز بطن جواده، وكأنه غضب من سوء إدراك وزيره لما يحدث ويحاك وقال:

---

(1) راجع رواية «فَجْرُ إِيْبِيرِيَّة».

- يجب أن تصحبنا قوة من «سمورة» حتى لا يغدر بنا أحد، وعندها يعود هؤلاء أدراجهم.

سار «الفونسُ» حتى وصل إلىٰ «سمورة»، وهو مضطرب النفس يفكر في قادم أيامه وسابقها، يتذكر كيف خرج من «برغش» فارًّا منها؟ وكيف يعود إليها الآن ملكًا عليها؟ وما إنْ وصل حتى اجتمع بأخته «أُرّاكة»، وبمَن وافاه هناك من الأساقفة والأشراف من «ليون، وجليقية» وقد وطأت له «أُرّاكة» كل شيء، وفي قصر «سمورة» جلس «الفونسُ» مع أُرّاكة وقالت له:

- لتغادر صباحًا، فلا يجب أن تغيب كثيرًا عن «برغش» فيختل أمرها، كما إن وجودك هنا سيوغر صدور النبلاء هناك؛ ذلك لأنهم ينسبون مقتل «سانشو» إليَّ.

أجاب «ابن أنسور» في عجلة:

- صدقت يا سيدتي.

وقف «الفونسُ» ولم يعجبه رأيهما وتحدث والكبرياء تتملكه:

- وهل سأكون أنا «الفونسُ بن فِرْنَانْدُ العظيم» رهن كلام النبلاء؟!

زوت «أُرّاكة» عينيها، وقالت ناصحة:

- حتى تحوز العرش يا أخي، وبعدها أبطش بكبيرهم!

صمت «الفونسُ» برهة من الوقت زمَّ شفتيه بعدها موافقًا وقال متوعدًا:

- سأفعل يا أُرّاكة، ولكن عندما أتمكن منهم سيكون لي معهم شأن آخر.. وأنت جهز الموكب، فسنخرج إلىٰ برغش الآن.

ابتسمت «أُرّاكة» ابتسامة المنتصرة؛ فهي تعلم أنها ملهمة «الفونسُ» وناصحته، لذا لم تجد صعوبة في إقناعه بأي أمر، ورغم ثقتها في عدم جُرأة أحد من النبلاء في الغدر به، فقد جهزت قوة من خمسمئة فارس أرسلتهم خلفه ليدخل بهم «برغش»، وخرج الفونسُ من «سمورة» مرتديًا زي الملوك حتى وصل إلىٰ برغش، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها في قصر أبيه وأخيه من بعده، وكان أول من تلقاه الكونت «غرسية بن أُردُنيو» الذي أراد أن يحظى بمكانة لديه، واتفق الجميع على تنصيبه ملكًا على «قشتالة» كلها.

وفي كنيسة «برغش» الكبرى، دُقتِ الأجراس، واحتشد الناس خارجًا ينتظرون وصول الملك الجديد، وداخل الكنيسة استعد الجميع لتنصيب «الفونسُ» على العرش، ودخل الفونسُ مرتديًا حلته الملكية، بينما التاج موضوع على منضدة بجوار الكرسي في الكنيسة والتزم الجميع الصمت، وكان الحضور عظيمًا يضم كل أشراف المملكة ورجالها، وكبار رجال الكنيسة.

تطلع «الفونسُ» بعينيه الواسعتين الجامدتين إلىٰ الجميع من فوق المنصة العالية حيث يمكن أن يراه كل الناس منتظرًا مَن سيتولى تحليفه، بيد أنه لم يجرؤ أحدٌ على ذلك، فقد كانت لهيبته أثر كبير في نفوسهم، حتى إنَّ كبير القساوسة وقف عاجزًا عن ذلك، وعندئذ تقدم «لُذْرِيق»، فتبادل معه النظرات، وأخذ الإنجيل وفتح الكتاب ووضعه على المذبح، ووضع الفونسُ يديه عليه ثم قال:

- أيها الملك هل تقسم بالسيدة العذراء، إنك لم تشترك في مقتل الملك سانشو؟

- أقسم فلم أعرف، ولم أشترك في ذلك.

هتف «لُذْرِيق» في الحضور:

- إنني أطلب من الله، إن كان «الفونسُ» كاذبًا، أن يسلط عليه خائنًا يثق به، فيقتله كالذي اغتال أخاه سانشو.

فقالوا جميعًا:

- آمين.

كظَّم «الفونسُ» غيظه من جُرأته، ولكنه صمت وأسرها في نفسه:

وما إنْ انتهى القسم، حتى عمَّ الفرح والسرور الكنسية كلها، ثم حَمل «لُذْرِيق» التاج ووضعه على رأس «الفونسُ» وقبَّل خاتمه وأقسم بين يديه: أن يطيعه ويخدمه ويكون طوع أمره، ومن ثم فعلها باقي النبلاء.

وهكذا غدا «الفونسُ» ملك قشتالة، كما غدا من قبل ملك «ليون، وجليقية»، وعادتِ المملكة الإسبانية الكبرى إلىٰ تماسكها، ووحدتها كما كانت في عهد أبيه «فِرْنَانْدُ الأول».

***

(17)

تبدلت أحوال «موسىٰ الطويل» وأحكم الهم قبضته عليه وضاقت به الدنيا، ولم يعد يريد الحديث لأحد، فلجأ إلىٰ العزلة والصمتِ الطويل، بعدما ملكت «نيفادة» كل قلبه وعقله، وزاد شغفه بها عندما امتنعت عن الحديث إليه، ولم تعره أي اهتمام أو تقدير، وكانت مغرورة إلىٰ حد كبير ترى نفسها ملكة جديرة بأمير، وتعامله بهذه الصفة، فهي شديدة الكره للمسلمين وتحتقرهم وتقلل منهم، كل ذلك بينما «بِلاجيوس» كان على علم بكل ما يدور حوله.

- أقول لك يطاردني في كل مكان، وأنت سعيد لذلك!

- يسهل على الرجل فعل أي شيء من أجل قلبه ومن أجل امرأة!

عبست ملامحها القاسية، وصاحت بانفعال:

- لا يشغلني ذلك؛ فليذهب موسىٰ هذا إلىٰ الجحيم!

ردَّ موضحًا بنبرة أقرب للؤم:

- لا تكوني قصيرة النظر، وتذكري كم من المنافع يمكن أن نجنيها مِن خلف «موسىٰ» بسبب عشقه لك.

- ماذا تعني؟

غمز «بِلاجيوس» بعينه وأومأ برأسه:

- أعني أن نحسن استغلاله، وأنت تعلمين ما نحن فيه، والعيون تحيط بنا، ولكن إن كان معنا شاب كـ«موسىٰ» فسيسهل علينا كل شيء.

ومع صمتها اقترب منها بِلاجيوس وبابتسامة مراوغة:

- حتى الذي تكرهينه فيه يمكنك أن تبدليه لو أردت! فقد شاهدته وعلمت مدى تعلق قلبه بك... صدقيني يا «نيفادة» سيكون عونًا لنا فيما نصنع، خاصةً وقد علمت أن الملك «الفونسُ» أصبح يثق بي ويعتبرني رجله في «طُلَيْطِلَة».

الفصل الثالث

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخَالِدين وإِنَّمَا　　مُقَامَكَ فيها لَوْ عَلِمْتَ قَلِيلُ!

لَقَدْ كَانَ في ظِلِّ الأَرَاكِ كِفَايَةٌ　　لِمَنْ كُل يَوْمٍ يَقْتَضيه رَحِيلُ

(1)

كانت الشمس قائظة، والأسواق صاخبة، والباعة ينادون على بضائعهم، أما هو فيسير بخطوات واسعة، وقد قرر بعد تفكير كبير أن يقطع حيرته، ويريح قلبه ويسلك طريقًا شرعيًا إلىٰ قلب «نيفادة»، فتحرك حتى التقى «بِلاجيوس» وكان وقتها في فرنه، فما إنْ رآه الأخير الذي يتظاهر بجهله بما يدور حول أخته، حتى نفض غبار الدقيق عن ملابسه، وخرج له قائلًا:

- هل تريد أن أصاحبك إلىٰ الحانة؟

- لا، لا أريد ذلك.

- فهل أحضر لك بعضًا من الخبز؟

- لا أريد خبزًا، ولم آتِ لطلبه.

أظهر «بِلاجيوس» بيده ورأسه بعض التعجب:

- فلمَ أنت هنا؟ لا تقل لي إنك أتيت لتعمل معي.

ابتسم موسىٰ ابتسامة باهتة:

- تعلم أنني لست بحاجة إلىٰ العمل معك.

- فأخبرني إذًا، لمَ أنت هنا؟

موسىٰ بعد تردد:

- أريد الزواج يا بِلاجيوس.

بِلاجيوس ضاحكًا:

- وهل جئت تستشيرني؟

- أجل.

- وما شأني بذلك؟

تلعثم موسىٰ:

- بل كل الشأن.

وبين محاولة «بِلاجيوس» إظهار التعجب، ازدرد «موسىٰ» لعابه في صعوبة وهو يجيبه:

- لأن العروس أختك.

أظهر «بِلاجيوس» براعة في التمثيل:

- أختي أنا!

- أجل يا بِلاجيوس، أنا أريد الزواج منها، فوالله وقعت في حبها، ولا أدري كيف حدث ذلك؟ ولا أستطيع العيش بعيدًا عنها.

- وأنت على غير دينها!

- تعلم أن ديني لا يمنعني الزواج بغير مُسْلِمةٍ، ولستُ أوَّل مَن يتزوج بمعاهدة.

صمت بِلاجيوس قليلًا، بينما زاد صمته من توتر موسىٰ الذي لم يستطع تحملًا:

- ما قولك؟

رفع «بِلاجيوس» يده وضمَّ حاجبيه، واستدار ليدخل فرنه:

- دعني الآن يا موسىٰ، فإن كانت نيتك كما تقول، فلا بُدَّ مِن أخذ رأي نيفادة، ولا أظنها ترضى.

تصبب العرق من وجه موسىٰ:

- ولِمَ لا ترضى؟

- لأنك على غير دينها، ولا يمكنني فعل شيء حيال ذلك.

***

(2)

لم يهنأ لـ «الفونس» بال وهو يرى «لُذْرِيق» يتحكم في الجنود وله شعبية بالغة، فعزله من منصبه، وعين مكانه ألدَّ أعدائه الكونت «غرسية بن أُردُنيو»..

وذات مساء بعد أيام قليلة من تنصيبه ملكًا، دخلت «أُرّاكة» غرفته وهو خادرٌ بفراشه، وقد خلعت عنها ثياب الراهبات وتزينت بالحلي كأجمل الملكات، فوجدته ساهمًا شارد الذهن في اليوم الذي أدى فيه القسم إذ تعرض لحرج شديد لم ينسه، فجلست جواره ووضعت يدها على يده وهي تربت بحنان:

- أعلم ما تفكر فيه، خُطوة إبعاد «رُوي» عن منصبه كانت مهمة ولا بُدَّ منها.

- تمنيتُ لو أقطف رأسه أو أنفيه، فالنظر إلى «غرسية» ذي الفم المنبوذ أفضل من النظر في وجهه.

- الأفضل أن يبقى مع الحاشية أمام عينك، أو أبعده بتكليفه مهامًّا صغيرة.

- ما يؤرقني يا أُرّاكة، أنهم ما زالوا لا يصدقونني وينظرون إليَّ نظرة المتهم!

همست في مكر:

- إن كان هذا حقًا يؤرقك، فلدي حل.

- ما هو؟

- «بليدُ» قاتل سانشو...

قاطعها غاضبًا:

- لا تقولي نقتل رُوي؛ له أتباع كثر في قشتالة، ولا أريد للحرب أن تستعر من جديد.

- اهدأ، اهدأ يا الفونسُ، لم أقل نقتل أحدًا، بل نعاقب الخائن.

استرخى «الفونسُ» في فراشه، ورفع ذراعه وراء رأسه، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المؤيد:

- أجل، إن عمله كان جيدًا ولكنها عادة سوء.

ارتفعت ضحكتها الطائشة وقالت بعدها بلطف:

- أتعلم لمَ أطعتُ أبي في عدم الزواج، ليس تنفيذًا لوصيته، ولكن لأنني لم أرَ في الرجال غيرك!

شعر «الفونسُ» ببعض الحرج من قولها؛ فهي أخته التي تكبره بثماني سنوات، ولكنها تابعت بنبرة جدية:

- لا تضيِّع وقتك في سفاسف الأمور، وانشغل بكبيرها.

كان «الفونسُ» بين الوجوم والحيرة من قولها، نظرت إليه نظرة الغاضبة من صمته، وأردفت بنبرة أكثر صلابة:

- فكر ماذا ستفعل في أخيك العائد من منفاه؟

نهضت منصرفة، وقبل أن تغادر الحجرة التفتت إليه قائلة:

- لا تكرر خطأ سانشو فيك!

وبالفعل أمر «الفونسُ» بإحضار «بليدُ» ورُبطت أطرافه الأربعة في ذيول أربعة خيول قوية، وفرقوها ضربًا إلى أربع جهات مختلفة فمزقته تمزيقًا مريعًا، وسميت البوابة التي دخل منها عائدًا إلى «سمورة» بوابة الخائن، حتى يشيع أمره بين الناس، أن الملك تبرأ من أفعاله، كما أنه صنع كمينًا لأخيه الأصغر «غرسية» فدعاه إلى مؤتمر معه وقد وعده بالسلامة، ولكن في 13 فبراير 1073م، أسره ووضعه في السلاسل، وزُجَّ به في غرفة صغيرة منحوتة في الصخر داخل قلعة «لونا[1]» بالقرب من «ليون» بناءً على نصيحة «أُرَّاكة» التي لم تفارقه قط -ليل نهار-!

***

(3)

في وسط مدينة «شِقُوبية» سار «توماس» في السوق الذي غُطِّيَ سقفه بخشب وبقطع حديد متآكلة، الأرض ترابية والدكاكين صغيرة ملتصق بعضها

(1) حيث ظل محبوسًا وأصيب بنزيف وحمى حتى وفاته، والتي حدثت بعد سبعة عشر عامًا، في 22 مارس 1090.

ببعض، حتى دخل الحانة متمنطقًا بسيفه، وقد ارتدى لبس الجند القشتالي، وما إنْ رآه صديقه «رامون» حتى ابتدره قائلًا:

- هل جئت لتقبض علينا؟

ضحك «توماس» وضرب كتف صديقه وهو يجلس جواره:

- قطعًا لا، ولكن هذا أول يوم لي بهذا اللباس، وقد أحببت أن تراه عليَّ؛ فلربما انْضممت إلىٰ جنود الملك «الفونسُ» العظيم.

أظهر «رامون» عدم اهتمام:

- أنا لا أحسن الضرب بالسيف ولا رمي السهم، كما إن الحرب لا تغويني، فشجار المعارك الدائر الآن، ليس بين ملوك إخوة بل بين «لُذْرِيق القمبيطور» والكونت «غرسية بن أُردُنيو»، وقد جمع الأول أتباعه وذهب إلى منطقة الكونت حرقًا ونهبًا، وحاصر قلعة تابعة له وأخذها. ثم أرسل إليه قائلًا: إنه سينتظر سبعة أيام حتى يأتي ويقاتله؛ وعلى الرغم من أن الكونت حوله رجال عديدون، فإن جُلَّهم يخشون الخروج ضد «القمبيطور».

تنهد «توماس» وقال بغيظ:

- رغم قوة «القمبيطور» فإنه لم يستطع أن يتغلب على فارس عربي يُدعى «حريز بن عكاشة[1]».

ضحك «رامون» وبنبرة متهكمة:

- أليس هذا «حريز» الذي بلغ صيته في رمي الرمح إلىٰ الملك «الفونسُ» فطلب الاجتماع به، فاشترط «حريز» حينذاك أن يسترهن عددًا من الأمراء الإسبان رهينة عنده، ونزل «الفونسُ» على شرطه؟

- أجل إنه هو، ولقد حضرت اللقاء بينهما عند «قلعة رباح» غرب «طُلَيْطِلَة» وقت دنو الشمس للغروب، حينها خرج «حريز» لابسًا لأمة حربه، وقد أوتي بسطة في الجسم والبسالة، والحاضرون كلهم يتعجبون من آلات حربه، ويتحدثون بشجاعة قلبه، فلما وصل خيمة الملك، تلقاه الأمراء بالترحاب والسعة، فلما أراد النزول من فرسه ركز رمحه بالأرض،

(1) الأمير «حريز بن حكم بن عكاشة» فارس بني أسد بالأندلس وهو من ذرية الصحابي الجليل «عكاشة بن محصن الأسدي».

فأبصر الملك «الفونسُ» منه هيئة تشهد له بما عنه حُدث، وهيبة يجزع للقائها الشجاع ويكترث، فقال له:

- يا حريز، أريد أن أنظر إلى مبارزتك هذا الفارس القشتالي البطل.

تفحص «حريز» بقوة جميع الفرسان حول الملك:

- المبارز لا يبارز إلا أكفاءه، وإن لي بيّنة على صدق قولي إن ليس لي فيهم كفء... هذا رمحي قد ركزته، فمن ركب واقتلعه، بارزته كان واحدًا أو عشرة.

فركب «لُذْرِيق» وهو أشجعنا يومها، فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه، ثم فعل ذلك مرارًا، فقال «الفونسُ»:

- أرني يا حريز كيف تقلعه؟

فركب «حريز» وأشار بيده، واقتلع الرمح، فعجبنا كلنا من فعلته، ووصله «الفونسُ» وأكرمه!

احتسى «رامون» جرعة شراب، ولوح بيده في الهواء:

- لذا لن أنضم إلى أي حرب أبدًا، خاصة إن كانت ضد المحمديين.

- ذلك لأنك لا تعلم ما خلف تلك الحروب.

رامون ساخرًا:

- وهل خلفها غير القتل ورائحة الدم؟

- هذا للمهزوم أمَّا المنتصر، فله الذهب والنساء.

وبينما يتحدث «توماس» إذ لاحظ «رامون» بضع جروحٍ في وجهه، فأشار بإصبعه متعجبًا:

- ما هذا؟

وضع «توماس» يده على الجرح، وزفر بضيق وحرج:

- إنها أصابع الجارية المُسلمة الحقيرة.

- صنعت بك كل هذا!

- أجل، فحينما دخلت عليها ليلًا، وطلبت منها ما طلبت، رفضت فهجمت عليها، وحاولت النيل منها، ففعلت بي الذي ترى، ولولا جمالها ورغبتي

بها، لقتلتها على ما فعلت، ولكن لا بأس فقد منعت عنها الطعام والشراب، حتى أذلها وأكسر أنفها وتأتيني طائعة.

***

(4)

مرَّ عامان على حكم «الفونسُ» نجح خلالهما أن يعيد القوة لجيشه الخارج من صراعات عديدة، وبينما هو يرأس حشدًا من جيش كبير، ويتبختر بفرسه المزين برداء أرجواني وهو يسير نحو «طُلَيْطِلَة» التي يحلم بالعودة إليها، إذ قدم إليه رسول «الْمَأْمُون» يذكره بصداقتهما وبقسمه، لكن «الفونسُ» أبقى الرسول ولم يرسل أي رد، وأكمل مسيرته إلى البلاد...

حتى تلك اللحظة لم يتأكد «المَأْمُون» من نيات مجيئه بهذه القوة، وخشي أن يساعد أعداءه فقد شن «ابن المُعْتَمِد[1] وواليه على قُرْطُبَة» حربًا عليه، وألحق كثيرًا من الأذى بأراضيه، وكاد أن يحاصره في «طُلَيْطِلَة».

ولما اقترب «الفونسُ» عسكر بجيشه فوق تلال صغيرة في قرية قريبة، ولم يستطع صبرًا أن يخيم مع الجنود، بل أخذ خمسة من فرسانه، وركض معهم إلى أسوار «طُلَيْطِلَة» يسابقه الشوق إليها، ويمني عينيه برؤيتها من جديد، ولما وصلوا إلى الأبواب، أرسل خبرًا إلى «الْمَأْمُون» أنه آتٍ، فلمَّا سمع الأخير بهذا، لم ينتظر إحضار حصانه، وذهب إليه مشيًا على الأقدام والتقى بـ«الفونسُ»، وعانق كل منهما الآخر؛ و«الْمَأْمُون» مبتهجًا لرؤية صديقه، الذي عامله كابن له، وسعيدًا أنه قدم لإنجاده وإخراجه من ورطته، فشكره على ولائه ومساعدته.

وسهرا معًا ليلة من السمر الطويل، وكان أهالي «طُلَيْطِلَة» في عجب من مساندة «الفونسُ» وبعضهم سعداء لأن «الْمَأْمُون» لديه مثل هذا الصديق المنقذ! أما جنود الإسبان فقد كانوا في حيرة وقلق، لأنهم اعتقدوا أن ملكهم سيصيبه الأذى وهو بين العرب.

وفي صباح اليوم التالي، بينما «الفونسُ» مع الْمَأْمُون قال له:

---

(1) ملك طائفة إشبيلية.

- أريد منك أن ترافقني حيث معسكري، لترى بنفسك القوات التي أحضرتها لمساعدتك.

وافق «الْمَأْمُون» واصطحب عددًا قليلًا من أتباعه وذهب معه، وسُرَّ القشتاليون عندما رأوا ملكهم عائدًا، ومر الملكان بالمخيم، ثم جلسا لتناول الطعام في خيمة «الفونسُ» الكبيرة المكشوفة، وفي أثناء وجودهم بها، أصدر «الفونسُ» أمرًا سريًا بأن يحاصر خمسمئة فارس الخيمة؛ ولما رَأى «الْمَأْمُون» هؤلاء المسلحين ارتاع، وسأل بفزع:

- ماذا يعني ذلك أيها الملك؟

بهدوء شديد أشار«الفونسُ» إلى الطعام، وقال بجمود:

- لتأكل أولًا، أنت في ضيافتي أيها الْمَأْمُون، وسأخبرك بعد ذلك.

ابتلع «الْمَأْمُون» الطعام وفي حلقه غصة، بينما ظل «الفونسُ» جامد الملامح سعيدًا من داخله بإذلاله، ثم بعد انتهائهما من الطعام قال:

- عندما كنتُ بين يديك في طُلَيْطِلَة، جعلتني أقسم ألا أفعل لك أيَّ شر، الآن تبدل الحال وأصبحتَ تحت قوتي، لذا أطلب منك أن تحررني من هذا الوعد.

بصوت يلتمس العطف والرَّحمة لا يتناسب مع شخصية «الْمَأْمُون»:

- سأفعل ذلك، لكن أتوسل إليك ألا تسيء إليَّ.

نهض «الفونسُ» وسار بخطى وئيدة نحو إنجيل وُضع على حامل في جانب الخيمة، ثم وضع يده عليه وقال:

- أقسم ألا أقاومك، ولا أعمل ضد ابنك أبدًا، وأن أساندك ضد كل رجال العالم الآخرين، أعدك بذلك لأن قسمي الآخر كنتُ مكرهًا عليه، أمَّا الآن أعدك بإرادتي وكامل حريتي.

نجح «الفونسُ» في إخضاع «الْمَأْمُون» وإظهار قدرته لجنوده، وبقي «الْمَأْمُون» معه طوال تلك الليلة، وفي اليوم التالي أخذ «الفونسُ» جيشه و«الْمَأْمُون» خاصته، وذهبوا معًا يغيرون على قرى «قُرْطُبَة»، وخرج أميرها

إليهم وتمكَّن من صدِّهم، وتقدم «أبو حريز حَكَم بن عكاشة[1]» من بين قادة «الْمَأْمُون»، وكان على دراية بأمور «قُرْطُبَة» وأهلها، وَتَذَمُّرهمْ من استبداد قائد الحرس بهم، ولذا أصرَّ على أخذها.

لاحظ أحد قادة «قُرْطُبَة» أن «ابن عكاشة» يتسلَّل في الليل ويقوم بمحادثاتٍ مشبوهةٍ مع الحراس، فأبلغ الأمير إلا أنَّه لم يهتم للأمر، فحوَّله إلى قائد الحرس وهذا بدوره لم يهتم أيضًا.

وفي إحدى ليالي شتاء 468هـ تسلَّل «ابن عكاشة» مع عددٍ من الرجال إلى «قُرْطُبَة» ودخل قصر الأمير، وباغته في نومه، فنهض الأمير فزعًا عاريًا وحاول الدفاع عن نفسه مع عددٍ قليل من حراسه، لكن قدمه زلَّت أثناء العراك فوقع، وَاسْتَغَلَّ ذلك أحد رجال «ابن عكاشة» وقتله. وألقيت جثَّته دون ما يغطيها في شوارع المدينة، فرآها صباحًا أحدُ أئمة المساجد وغطاها بردائه.

حزن «المُعْتَمِد» حزنًا كبيرًا على ابنه عندما وصلته الأخبار، وعبَّر عن تقديره لمن غطى جثته بإنشاده:

ولم أدرِ من ألقى عليه رداءه ... على أنه قد سل عن ماجد محض

واستطاع «الْمَأْمُون» بعد ذلك أن يدخل «قُرْطُبَة» وأخذ البيعة من أهلها، وضمها لمملكته.

***

لحن من العزف الشرقي، وجوارٍ رومية تتراقص بخفة، على غناء الموشحات، و«الْمَأْمُون» بينهن في سكرته جالسٌ تحت قبة «النّعيم»، أخذته سنة من النوم، فسمع منشدًا:

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخَالِدِين وإِنَّمَا ... مُقَامَكَ فيها لَوْ عَلِمْتَ قَلِيلُ!

لَقَدْ كَانَ في ظِلِّ الأَرَاكِ كِفَايَةٌ ... لِمَنْ كُل يَوْمٍ يَقْتَضِيه رَحِيلُ

---

(1)

فانتفض وهو لا يدري إن كان سمع يقظًا أم نائمًا، ونغص عليه حاله، وقال فزعًا:

- إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعونَ، أظنُّ أنَّ الأجل قد قرب!

ونهض ولم يجلس في تلك القبة بعدها، ولم تمر أيامٌ كثيرة حتى مرض، وانتشر خبر مرضه في كل مكان من مملكته المتسعة، وصار ذاك حديث الناس، فمنهم مَن يتمنى شفاءه، وجلهم يتمنى هلاكه وزواله، وجميعهم يمنون أنفسهم بحاكم أفضل منه، فقد سئموه وسنين حكمه الممتدة ثلاثين عامًا، ومرَّ شهر على هذا الحال.

وفي دكان «جعفر» الكبير بسوق القماشين، كان «زياد» الشاب الناضج ينمق الأقمشة ذات الجودة العالية والمزخرفة بعناية، حتى تظهر للناظرين على أحسن حال، فالحرير هنا والقطن، والكتان، والأقمشة الرجالية بعيدًا عن أقمشة النساء زاهية الألوان، وبينما هو كذلك إذ بـ «جعفر» يُهِلّ عليه حاملًا بيده بعض الطعام:

- أتيتُ بالفطور لنتناول معًا.

نظر إليه «زياد» بابتسامة تعلو وجهه:

- لو تأخرت عليَّ قليلًا، لأتيتك حيث أنت، فقد بلغ مني الجوع مبلغه، على أني أشتاق إلىٰ رحلة صيد معك، وإفطار من البرية لعلك تحظى ولو لمرة بصيد أكبر من صيدي.

قهقه «جعفر»:

- يجب أن نخرج قريبًا.

وضع الفطائر على منضدة مرتفعة، وَشَمَّرَ عن ساعديه، وكذا فعل «زياد» وبدآ تناول طعامهما، ابتلع «جعفر» ما في فيه:

- هل علمت بخبر مرض الْمَأْمُون؟

- أجل، ومَن في الأندلس كلها لا يعلم؟

- إني لأرجو الله أن يهلكه الساعة؛ أغرقنا بالمكوث والضرائب، وجعل الظلم دولة، وسلط علينا شرطته، حتى صار الرجل فينا لا يعلم كيف يكفي أهل بيته؟ بل صرنا، وكأننا نعمل من أجل «الْمَأْمُون» وتلك

الأموال التي يأخذها منا ليدفعها لـلروم، وكأننا مسؤولون عن سوء تدبيره، وعجز جيشه، وانصياعه لأعداء «طُلَيْطِلَة».

نظر إلىٰ السوق وأكمل:

- لنا تجارة ومحال نعمل فيها، ولكن على الحقيقة نعمل من أجل الْمَأْمُون ومكوثه.

- هو يجمع الأموال ليرضي بها صاحب «قشتالة» ويأمن شره، وما علم أنها ستكون حسرة عليه وعلى عقبه، لقد صدق قول «ابن غصن الحجاري» فيه:

تـلـقـبـتَ بالمأمـون ظلمًا، وإنّني لآمن كلبًا حـيـث لسـت مُؤمّنه

قسمه الله وعجَّل بواره؛ ولعل الله يرزقنا بأفضل منه.

أنهى «زياد» أكله ثم قال:

- ولكن الأمور تنبئ بأن القادم أسوأ.

- كيف ذاك؟

- إذا مات «الْمَأْمُون» سيؤول الحكم إلىٰ حفيده «يحيىٰ» وهو فتى حدث، قليل الخبرة والتجارب فقد رُبِّيَ في أحجار النساء، ونشأ بين الخصيان والغانيات، فغلب على أمره العبيد والموالي، فمن أين يكون أفضل؟ بل سيكون أسوأ مما تظن، فهذا لم ينشأ على العزة والأنفة، وقد شاهد جده وهو ينحني لـ«الأذفُنش» ويدفع له الجزية، فمن أين يأتي لنا بخير؟ أوَتظن يا أبا حفصة، أن يربي الْمَأْمُون حفيده على غير ما عاش عليه؟!

نظر جعفر إلىٰ «زياد» وهو يتحدث، ولكن وجومًا كبيرًا ظهر على وجه الأخير، فالتزم الصمت، وإذ بفتى يقترب منه ويهمس في أذنه، فتغير وجهه، وهب مسرعًا قائلًا لجعفر:

- سأعود لاحقًا.

***

كان الهرج والمرج والأصوات العالية هي سمة قصر «الْمَأْمُون» في هذا اليوم؛ الكل مترقب متوجس من القادم، وفجأة صرخ أحد خادمي القصر:

- أين الطبيب؟

تسابق الجميع ليعرفوا ما الذي يجري؟ فقد كان كل شيء يُنبئ بوقوع الأمر المحتوم، فما زال «الْمَأْمُون» على فراش مرضه منذ أيام، وقد اشتدت علته، ولم تفارقه الحمىٰ منذ أيام حتى إنه لم يستطع أن ينتصب في جلسته من شدة الإعياء، وبينما هو كذلك إذ قال بصوت خفيض مجهد:

- أين يحيىٰ؟

ومن فوره أجابه شاب هزيل مهلهل الثياب في أواخر عقده الثاني:

- أنا هنا يا جدي.

- اقترب لتسمعني، اقترب يا بُني.

اقترب «يحيىٰ» من جده المحتضر، فأمسك الجد بتلابيب ثيابه:

- لقد تركت لك مملكة عظيمة هي أكبر ممالك الأندلس، غير أنها على ثغر، فاستعن في حفظها بمد أواصر الصداقة القائمة بيننا وبين «الأذفُنش» واستعن في ذلك بكثرة الأموال والهدايا فهي سبيلك لحفظ المملكة، واستمع لنصح الوزيرين «ابن الفرج» في تدبير الأجناد، و«ابن الحديدي» في أمور الرعايا والمشورة والرأي.

ثم تهاوت يداه، وبرقت عيناه إلىٰ السماء وفاضت روحه، وسط بكاء «يحيىٰ» وباقي الحشم.

***

(5)

داخل أحد بيوت «طُلَيْطِلَة» الجميلة، وأمام نافورة مياه تتوسط الصحن وتزينه، وتجلب السعادة لأهل الدار، جلست «فاطمة» وقد اكتنزت وامتلأت، تضفر شعر ابنتها التي ورثت ملامحها، وكأنها نسخة مصغرة منها غير أن الغضب أضاع ملامح وجهها البريء وهي تنظر إلىٰ أمها التي تسألها:

- كل هذا لأنك لم تخرجي معهم للصيد!

«حفصة» وهي تكتم شهقات بكائها:

- أخي لم يعد يهتم بي؛ ألا ترين كم مرة نتفق على يوم، ثم يجد لنفسه الحجج ويؤجل؟!

فاطمة بعاطفة أمومية ونظرات تحمل الدفء:

- ربما كان معذورًا، كلميه ثانية و...

قاطعتها حفصة بنبرتها المختنقة:

- لا والله، لن أكلمه أبدًا، فالخطأ ليس خطأه بل خطئي أنا، إذ كان عليَّ أن أحل نفسي من كل وعوده، يمنيني بالخروج معه إلى الأدغال ولكن هيهات؛ أصحابه وشيخه «المغامي» وصديقه «موسىٰ» هؤلاء هم مَن ملكوا نفسه، أمَّا أنا فلا شيء.

فاطمة بلهجة حانية:

- لا تقولي ذلك يا بنتي، أخوك يحبك، وما دام وعدك سيفي بوعده.

صمتت «حفصة» ولم تتحدث، وفي تلك الأثناء فتح «زياد» باب المنزل وذلف منه فهمست فاطمة:

- ها هو ذا... عليك به.

عقدت «حفصة» ذراعيها حول صدرها، مشيحة بنظرها بعيدًا عنه:

- كلا لن أذل له نفسي، ولن أكلمه في هذا الأمر أبدًا.

دخل «زياد» وألقى السلام، فردت «فاطمة» وهي تغمز بطرف عينها مشيرة إلى أخته الغاضبة التي لم ترفع رأسها نحوه، بينما قالت وهي تنهض:

- لقد جئت في موعدك؛ كنتُ سأحضر الطعام.

ذهبت تعده، بينما ظلت «حفصة» مكانها لم تتحرك، ولم تنبس ببنت شفه، وقد أظهرتِ اللامبالاة بوجود «زياد» الذي اقترب منها وهو يعلم جرمه في حقها:

- حفصة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حفصة في إعراض:

- ماذا تريد؟

زياد وهو يضحك:

- أتعلمين أنني أحبك، وأنت غاضبة هكذا؟

- تحبني! لقد قطعت عهدًا ألا أحادثك ثانية يوم أن أرجأت وعدك لي للمرة الثانية.

حاول «زياد» تهدئتها وبنبرة صادقة:

- سنذهب -إن شاء الله- كما وعدتك، ولو علمتِ لماذا أجلت؟ لتبدل رأيك.

انزعجت «حفصة» وبدا على وجهها الصغير القلق:

- ماذا حدث؟

- لقد خرجت يومها في مهمة عظيمة، وما ظننت أن أعود منها سالمًا.

- كيف ذاك؟

صمت زياد وقال بعدها:

- انهضي وساعدي أمنا.

انكمشت ملامح «حفصة» أكثر من ذي قبل:

- إما أن تخبرني الآن، فأعذرك، وإما فلا شأن لك بي بعد اليوم.

- أنا لا أستطيع أن أحنث في قسمي يا حفصة، ولكن قريبًا ستعرفين وتعذرينني.

- وإلىٰ أن يأتي هذا اليوم لا شأن لك بي.

أعرضت عنه، وألقت بضفيرتها إلى الوراء، وسمعت صوتًا ينادي من الخارج:

- أفي الدار زياد بن هشام؟
- ها، اذهب إلىٰ من يناديك، فلا حاجة لي بك.

زياد وقد تأهب للخروج:

- ستعلمين يومًا أنك أذقتني الظلم يا بنة جعفر.

ثم خرج، فدخلت «فاطمة» والطعام على يديها وقالت:

- أين زياد؟

راحت حفصة تُزَرْزِرُ بِصَوْتِها:

- لقد خرج، لا أدري إلىٰ أين؟
- هل اتفقتم على أمر؟

حفصة بنبرة غامضة حذرة:

- إنه يخفي عنا أمرًا جللًا يا أماه، ولا يريد أن يخبرنا به، وإني لأخشى عليه؛ فقد تبدلت أحواله، ولم يعد زياد الذي نعرفه.
- شغلتِ قلبي عليه يا بنتي، ربي احفظه وهيئ له من أمره رشدًا.

***

كان القمر مكتملًا حين قادته قدماه إلى دار صديقه الذي يعيش وحيدًا بعد وفاة أمه، سار في حي «الحزام» محاذيًا صفًا طويلًا من البيوت، وفي قلبه جذوة أمل واهية لا يرغب أن تنطفئ، يُريد إبعاده عن طريق الغي ولا سيما «بِلاجيوس» الذي لا يثق به، وما إن فتح «موسىٰ» الباب ووجد «زياد» أمامه حتى ارتمى في أحضانه، وقد كان في حالة يُرثى لها، غائر العينين أشعث الشعر على وجهه غبار البؤس والحرمان، وما إن أجلسه جواره في فناء الدار الذي كان كل ركن فيه مستقذرًا نباتات عطشى مهملة، وجرار مبعثرة، وأرضية متسخة، وبصوت يُقطِّعه الرجاء قال:

- ما أحوجني إليك يا زياد!
- قلت لك لا تدع نفسك وحيدًا؛ عليكَ بالجماعةِ فإنَّما يأكلُ الذئبُ منَ الغنمِ القاصيةَ، عُد إلينا وإلى مجالسنا.
- أرجوك كفَّ عن لومي، سأحاول، ولكن ليس لي طاقة للجدال.

ساد الصمت للحظات، وفجأة ضحك «موسىٰ» ضحكات متدرجة حتى علت، وغيرت من حالته وقال وهو يحاول وأدها:

- سأخبرك بشيء لن تصدقه؛ لقد تزوج «الأذفنش» بـ«أُرَّاكة»!

نظر إليه ولم يستوعب مقصده، ثم سأل:

- أُرَّاكة مَن؟ أخته!

عاود «موسىٰ» الضحك، وتمعر وجه «زياد» وانتفض واقفًا، بينما صاحبه لا يوقف قهقهاته، فنهره موبخًا:

- الخمر أكلت عقلك!

- ألم أقل إنك لن تصدقني؟ كل الإسبان يعلمون هذا، لقد صارت «أُرَّاكة» ملكتهم، وتزوجها بالفعل بشهادة نفر من نبلاء مملكته.

ذُهل «زياد» وصار يغمغم في تقزز:

- أخزاهم الله ولعنهم!

- أتعلم يا زياد، كنتُ أظن أن ملوك الطوائف ذهبوا في غيهم وملذاتهم ما لم يذهب إليه أحد، حتى جاء «أذفُنش» وأثبت أنهم لا شيء إلى جوار طيشه.

- وكيف عرفت بهذا؟

- أخبرني بِلاجيوس نفسه.

تأكد لدى «زياد» إحساسه أنه على صلة بهم وأراد معلومات أكثر، فقال متهكمًا:

- وما شأن بِلاجيوس بما يدور لدى الإسبان؟

- إنه يعلم أخبارهم دائمًا، آهٍ لو تعلم كم هو داهية هذا الأذفُنش!

- ألم يكن متزوجًا من «آغينيس» ابنة الدوق الفرنجي «ويليام الثامن»؟ فأين ذهبت؟

- كان يخطبها وهي بعد صبية، وكان عليها الانتظار حتى بلوغها سن الرابعة عشرة للاحتفال بالزواج، ولكن عندما تم ذلك بعد عودته من منفاه، اختفت في ظروف غامضة، ولا يُعلم إن كان طلقها أم توفيت.

ربت زياد على كتفه:

- سأذهب الآن فلدينا مهمة ثقيلة، وأريد أن ألقاك في المرة المقبلة بوجه غير ذاك، لن أكرر نصحي، ولكن أنتظر منك موسىٰ جديدًا!

***

(6)

في قصره بمدينة «طُلَيْطِلَة» جلس «القادر يحيىٰ بن ذي النُّون» على كرسيه، وجلست جواره جاريته «عجب» وراح يتغزل فيها ويهيم بها حبًا وشوقًا، فهي الأثيرة لديه من بين كل الجواري، وقد رأت ذلك وعاينته بنفسها، حتى صارت سيدة القصر كله تأمر وتنهي، وتتدخل في أمور الحكم والسياسة بما يوافق أهواءها وملذاتها، وكان «القادر» لا يستطيع أن يعصي لها أمرًا، ويستشيرها في كل شيء، ولا يقطع أمرًا دونها، حتى استطاعت بتأثيرها أن تجعل من نفسها المتحكم الوحيد فيه.

- خذي من سيدك هذا الكأس.

أمسكت «عجب» بكأس الخمر، ووضعته على شفتيها، ثم أنزلته وقد ظهر الحزن على وجهها، فلاحظ ذلك وقال:

- أتردين كأس سيدك؟

أمالت شفتاها وهي تنطق بغنج:

- بل لم أشربه حزنًا على سيدي.

قهقه «القادر» وانتصب في جلسته، واقترب منها ووضع يده على ذراعها:

- وما الذي يحزن الجميلة؟

- أنت لا تعلم ما في قلبي من حبك يا سيدي، وكيف تلاحظه، وحولك الكثير من النساء والجواري؟ وما أنا إلا واحدة منهن، وهذا الحب هو ما جعلني الآن حزينة، إذ كيف أرى ما لا يروق لي ولا أخبر به سيدي؟ فإن أنا تحدثت فقد أحزنتك، وإن التزمتُ الصمت فقد خنتك.

ترك القادر كأسه وقال باهتمام:

- بل تحدثي بما رأيت.

ترددت قليلًا:

- يحزنني يا سيدي، أن يقول الجميع إن «ابن الحديدي» هو الحاكم الفعلي لـ«طُلَيْطِلَة» فقد عظم تأثيره حتى قال مَن قال إن «القادر» لا يستطيع أن يقطع أمرًا دون الرجوع إلىٰ وزيره.

تغير وجه «القادر» ونَشِيَ رائحة غدر قد يلحق به، وخشيَ أن يحدث معه مثل ما حدث مع زوج عمته من قبل، وعادت ذاكرته يوم أن قصَّ عليه جده «الْمَأْمُون» ما حدث معه حين وصل إلى «بَلَنْسِيَة» بعد كارثة «بطرنة» ورحيل جيش «فِرْنَانْدُ» في 9 ذي الحجة 457هـ، فدخلها بسهولة بمساعدة وزيرها «أبو بكر بن رويش» وكان ذا شخصية حازمة حكيمة قوية، جعلته الحاكم الفعلي، لضعف أميره. فقام «الْمَأْمُون» حينها بتدبير اتفاق سري مع «ابن رويش» على أن تخضع «بَلَنْسِيَة» لنفوذ مملكة «طُلَيْطِلَة» وينوب الوزير عنه في القيام بأمرها، فقد أدرك الاثنان أن بقاء حاكمًا ضعيفًا من شأنه أن يعرضها لخطر الوقوع الوشيك في أيدي النصارى، فعزل «الْمَأْمُون» صهره، ونفاه حيث توفي بعد ذلك بفترةٍ وجيزة، ومكَّن للوزير القوي، فخشيَ «القادر» أن تجتمع كلمة وزيره مع رجل آخر قوي عليه، وهو يعلم خوار نفسه، وضعف رشده.

وجدته «عجب» شاردًا، فأردفت تأكل قلبه:

- ووالله يا مولاي، لن يخلص لكم حكم «طُلَيْطِلَة» ما دام «ابن الحديدي» هذا على قيد الحياة.

رفع «القادر» حاجبيه في تعجب شديد:

- أوَقالوا ذلك؟!

- بل أكثر من ذلك، فقد سمعتهم يقولون: لم يصبر «ابن الحديدى» على القادر، وهو يعلم بعجزه، ولو نهض لنهضت معه طُلَيْطِلَة.

ثم اقتربت وأحاطت صدغه بيديها:

- لقد نسي هذا الوزير أنك سبب نعمته، فغدا يتصرف في الأمر كصاحب الأمر.

- ماذا أصنع يا عجب؟

- لا بُدَّ أن تتخلص من نير «ابن الحديدي» وطغيانه.

صمت «القادر» ورفع حاجبيه في حيرة، فقالت:

- اتركه لأعدائه يا سيدي، يكفونك أمره، فقد كثروا عليه يحنقون عليه مكانته منك، وقد علمت أن مولانا «الْمَأْمُون» -رحمه الله- قد قبض بإيعاز من «ابن الحديدي» على مجموعة من الأعيان والأشراف وأودعهم السجن كـ«بني اللَّوارِنكي، وبني مغيث» فلو أخرجتهم يا سيدي، ومكنتهم منه، فقطعًا سيبطشون به.

رفع كأسه وشربه، ثم مسح فمه بكمه:

- وماذا عن الأعيان؟

أشارت له أن يقترب منها أكثر، وهمست له في أذنه:

- سيحفظون لسيدي منته وفضله.

حاول «القادر» أن يصادر أموال «ابن الحديدي»، فهبت أعداد كبيرة من العامة والخاصة لنصرته، إذ كانوا يحبونه ويجلونه، ولولا انحناء «القادر» للعاصفة لحدث ما لم يحمد عقباه، ولم ينجح في التخلص من خصمه لولا قيامه بتدبير مكيدة تم استدراجه إلى القصر في حصن «وبذة» دون أن يكون معه أحد من أنصاره، ورتب لإطلاق سراح عدد من السجناء كانوا على عدواة مع «ابن الحديدي» -نظرًا لكشفه مؤامراتهم وإطلاع «الْمَأْمُون» عليها خلال وجوده بـ«بَلَنْسِيَة»- فأدخلهم عليه بصورة سرية إذ لبسوا ثياب النساء، ومكنهم «القادر» من قتله بعد أن تركه بين أيديهم، ثم خرج من مجلسه؛ لأنه لا يطيق أن يرى الدم مسفوحًا في بلاطه!

***

(7)

كان الظلام دامسًا، ولا أحد يمر في الطرقات، ولا صوت إلا أزيز الرياح، فقد لجأ الجميع إلىٰ منازلهم؛ الثلوج تغطي «طُلَيْطِلَة» وربوعها الجميلة، انغمست في الثلوج خمسة أقدام لفرسان يرتدون زِيًّا قَشْتَالِيًّا فاخرًا، يقودهم «زياد» ممتطيًا «الورهاء» وعليه فراء ثعلب، ساروا محتملين عصف الريح القارس، وتحركوا حتى ابتعدوا عن «طُلَيْطِلَة» ثمَّ طلع الصباح وهم على حدود المملكة الإسلامية لا يفصلهم عن «قشتالة» سوى بضعة أميال قريبة..

وفي آخر موضع من بلاد المسلمين، وأول موضع من بلاد النصارى توقف «زياد» وقال لهم:

- هنا سنفترق، فلن ندخل هكذا، وإلا انفضح أمرنا.

تلفت «موسىٰ الطويل» حوله، ولم يدر بعد لمَ طلب منه «زياد» الخروج؟ وقد ظن أنها مجرد رحلة صيد:

- ماذا تقصد؟

- سأدخل أنا وأنت فقط... وأنتم ستنتظروننا هنا، فإن عدنا خلال يومين، وإلا فلتعودوا إلىٰ «طُلَيْطِلَة».

- لمَ اخترته دوننا؟

- لأنه يُتقن القشتالية، ولو كان واحد منكم يتقنها لكان معي بدلًا منه، ولا يخفى عليكم أن لونه الداكن سيكون عقبة أمامنا، ولكن عقبة اللون أسهل من عقبة اللسان!

- حسنًا، فلا تضيعا الوقت، لتصلا قبيل منتصف النهار.

لوى «زياد، وموسىٰ» رسنا جواديهما، وانطلقا بين الجبال والوديان يقطعان الطريق المؤدي إلىٰ «شُقوبية» وقال زياد بلهجة آمرة:

- من الآن، اسمي «فابيان».

- وماذا عني؟

- ليكن «لوكا» لا تُخطئ وتناديني زياد، ولا تتحدث بالعربية أبدًا، وليكن مِن الآن!

- لا تقلق يا فابيان... إلى أين تذهب بي؟

ابتسم «زياد» وما زال الغموض يلفه، وتحركا بترقب كبير، حتى وصلا إلىٰ قلب «شِقُوبية» ورأى القناطر الرومانية القديمة وأعمدتها وأقواسها المهيبة، وبلغة قشتالية سأل «زياد» أحد المارة:

- أين نجد مكانًا للطعام والشراب هنا؟

أشار له المار:

- اسلك هذا الطريق، فستجد حانوتًا يبيع الخمر والطعام.

- حسنًا، هيا يا لوكا.

ثم تحرك وهو ينظر يمينًا ويسارًا، وكأنه يحاول أن يحفظ المكان وطريق العودة، وبينما هما يسيران حدثه «موسىٰ»:

- أعلمت كيف ثأر «المُعْتَمِد» لابنه المقتول؟ بعدما نزل بجيشه في «قُرْطُبَة» فر «ابن عكاشة» في فصيلة من جنده، إذ علم أنه لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ، ولكن الْمُعْتَمد أتبعهُ خيلًا لحقته فَقُتل وَجِيء لَهُ بِهِ، فأمر بصلب جثته بجانب كلبٍ!

- «المُعْتَمِد» الآن أقوى ملوك الطوائف، وها هو «ابن رويش» يستقل بحكم «بَلَنْسِيَة» وينضم إليه، وتفقد «طُلَيْطِلَة» نفوذها وما وصلت إليه زمن «الْمَأْمُون» كل ذلك بسبب ضعف الخائر!

- أين «حريز بن عكاشة» الآن؟ سمعت أنه فارس لا يشق له غبار.

- عينه «القادر» واليًا على قلعة «رباح» وهو حقًا يحامي عن ثغور «طُلَيْطِلَة» ضد هجمات الإسبان ويواجه «أذفُنش» بشجاعة فحين أغار وخرب ضياع وقطع الشجر، كتب إليه: «ليس من أخلاق القدير، الفساد والتدمير، فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك، ولو كان الملك في عشرة أمثال عددي لم ينزل لي بساحة، ولا تمكن منها براحة». وكانت هذه الرسالة سببًا في أن يأمر «أذفُنش» بالكف، كما بعث يرغبه في الاجتماع به.

غرق «موسىٰ» في الضحك فجأة وفقد ثباته، فتعجب «زياد»:

- مِمَّ تضحك؟!

- تذكرت رسالة أخرى بعث بها كاتبه[1] إلى «الْمَأْمُون» جعلته يضحك حتى وقع للأرض. فقد كتب بها «بلغني أن حصنًا دخله النصارى إن شاء الله تعالى؛ فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن، بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزّمان، فإنّا لله على هذه المصيبة التي هَدَّت قواعد المسلمين، وأبقت في قلوبهم حسرة إلى يوم الدين».

تغير وجه «زياد» وزمّ شفتيه وقال متأسفًا:

- إنه ضحك كالبكاء! فبدلًا من أن ينهض «الْمَأْمُون» للدفاع عن أراضي المسلمين، يسخر ويتهكم ويكون رده الضحك والتنمر، وقد كتب لـ «حريز» جوابًا يتشدق فيه باستسهال ضياع الحصون:

- عهدناك منتقيًا لأمورك، نقّادًا لصغيرك وكبيرك؛ فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجِلفِ، وأسندت إليه الكتاب عنك دون أن تَطّلع عليه، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه، ورائد عقله خطابه؟ وما أدري من أيِّ شيء يتعجّب منه: هل من تعليقه إن شاء الله تعالى بالماضي، أم من حسن تفسيره للقرآن ووضعه مواضعه، أم من تورُّعه عن تأويله إلا بتوقيف من سماع عن إمام، أم من تهويله لما طرأ على مَن يخاطبه، أم من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنّه «القسطنطينية العظمى» ما زاد عن عظمه وهَوله شيئًا؟! ولو أن حقيرًا يُخفى عن علم الله تعالى لخفي عنه هذا الحصن، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى، منقطع عن بلاد الإسلام، خارج عن سلك النظام، لا يعبره إلا لص فاجر، أو قاطع طريق غير متظاهر، حُرَّاسُهُ لا يتجاوزون الخمسين، ولا يرون خبز البر عندهم إلا في بعض السنين، باعه أحدهم بعشرين دينارًا، ولعمري إنّه لم يغبن في بيعه، ولا ربح أرباب ابتياعه، وأراح من النظر في خداعه، فليت شعري ما الذي عظمه في عين هذا الجاهل، حتى خطب في أمره بما لم يخطب به في حرب وائل؟!

فجاوبه «حريز» بردٍ أبيٍّ:

---

(1) كان لحريز كاتب يدعى «عبد الحميد بن لاطون» وفيه تغفل شديد.

- لسنا ممن اتسعت مملكته، وعظمت حضرته، فنحتاج إلى انتقاء الكتاب، والتحفظ في الخطاب، وإنما نحن أحلاس ثغور، وكتاب كتائب لا سطور، وإن كان الكاتب المذكور لا يُحسن فيما يلقيه على القلم، فإنه يُحسن كيف يصنع في مواطن الكرم.

جذب «موسى» رسن جواده ليوقفه، واستدار مجيلًا بصره في المكان الذي وصلا إليه، وقد كان مزدحمًا بالقشتالة، فمال برأسه قليلًا على صديقه:

- دعك من الحديث عن «الْمَأْمُون» والموتى، أم أنك تأخذنا إليهم يا فابيان؟!

ترجلا من خيلهما، وما إنْ وصلا إلىٰ الحانوت، حتى نزلا به، فاقترب «موسىٰ» وهمس لزياد:

- ماذا عن الشراب؟ هل ستجربه هنا؟

زغر له بعينه:

- لن نشرب، ولكن سنأكل قطعًا، وإلا فما هو سبب دخولنا؟

أخذ «موسىٰ» نفسًا عميقًا، وكأنه يحاول إخفاء صوت ضربات قلبه المتسارعة:

- لا بأس.

دخل «زياد» وخلفه صاحبه، وما إنْ دخلا، حتى نظر إليهما النادل، وأحسن استقبالهما، خصوصًا وقد ارتديا ملابس فاخرة تدل على ثرائهما.

صاح به زياد:

- اجلب لنا خير ما عندك من طعام وشراب.

- أمرك سيدي.

مال «موسىٰ» صوب «زياد» وقلبه يضطرب خوفًا:

- انظر إنه جندي.

- لا تشغل نفسك به، ولتوافقني فيما سأفعل.

أحضر النادل الطعام، فأخرج له «زياد» عملات:

- أتصلح هذه ثمنًا لطعامك؟

برقت عينا النادل، وكأنه لا يصدق نفسه:

- دنانير ذهبية إنه كثير يا سيدي.

فخم «زياد» صوته:

- وليست أي دنانير! ولكنها دنانير عربية فقد سطوت أنا وصاحبي هذا على قرية قرب «طُلَيْطِلَة» وغنمنا منها الكثير.

كان «توماس» يراقب من كثب ما يحدث، وقد أعجبه سطوهم على قرى عربية، وكان يحب الأموال كثيرًا، فبدأ في مراقبتهم، ثم نادى على النادل وقال له بصوت خفيض:

- مَن هؤلاء؟

- يقولان إنهما من «ليون» وقد حضرا إلىٰ «شِقُوبية» للتجارة.

- إن استطعت أن تجعلني أحدثهما، فافعل.

- أمرك سيدي.

- والآن اذهب، وائتني بشرابك.

تحرك النادل بينما ظل «توماس» يراقب الغرباء من كثب، وما إنْ انتهى «زياد» وصاحبه من الطعام حتى اقترب منهما النادل فقال زياد:

- أعد لنا بعض زجاجاتِ الخمر؛ لنصطحبها معنا إلىٰ حيث نقيم.

- وهل تقيمان هنا يا سيدي؟

- سنكترى دارًا نقيم بها بعض الأيام، هل تعرف دارًا يصلح للكراء؟

- ربما يستطيع السيد «توماس» أن يساعدكما في هذا الأمر.

- وأين هو السيد توماس هذا؟

صاح النادل:

- سيد توماس هناك مَن يريد مساعدتك.

تحرك «توماس» واقترب منهما:

- ما الأمر؟

أشار «زياد» برأسه إلىٰ النادل ليتنحى، فتحرك بينما عرض على «توماس» أن يجلس معهما، قائلًا:

- هل تستطيع مساعدتنا؟

تفحصهما «توماس» بنظرات ريبة:

- هذا يتوقف على ما ستقدمه لي من أموال.

- لك ما تريد شريطة أن تجلب لنا جواري عربية تسري عنا.

- ولمَ عربيات؟ ألا تصلح الفرنجيات لكما؟

طرق «زياد» بأصابعه على المنضدة وكان يرتدي خاتمًا قشتاليًا:

- عندنا ما يكفي من الإفرنجيات، أما العربيات فلا، والرجل منا يحب الجديد، وقد اعتدنا إذا نزلنا ببلد أن نطلب أعزَّ ما فيها وليس في «شِقُوبية» أعز من جواري العرب، ولكل ثمنه يا صديقي.

غمغم «توماس» وحك رأسه:

- هلا أخبرتني باسميكما؟

- فابيان دي ليون، وهذا مساعدي وصديقي «لوكا».

- أهلًا بكما إن كان الأمر كما تقول، فمرحبًا في داري.

زياد بنبرة مستفهمة:

- دارك!

- أجل.

تحدث «موسىٰ» بعد صمت وقد فطن لما يرغب به صاحبه:

- وماذا عن الجواري؟ لا يطيب لنا العيش ولا الشراب دون نساء.

- كما قال سيدك كل شيء بثمن.

- ولكن لا نريد أن يشاركنا أحد في المكان الذي نقيم فيه.

- طبعًا، طبعًا، لديَّ دارٌ في آخر المدينة ابتعتها لخلواتي الخاصة، وهي خالية إلا من جارية عربية، ستدفعان لي مقابل بقائها معكما الكثير من الذهب، على أنها سيئة الطباع لم أستطع الاقتراب منها منذ اشتريتها.

ابتسم «زياد» بجانب فمه:

- هذا جيد دعها لي، فأنا خبير بهؤلاء وأستطيع ترويضهن بسهولة.

- هي لك.

هتف «موسىٰ»:

- وماذا عني؟

- إن أردت إفرنجية آتيك بها، وإلا فلن تجد في كل «شقوبية» عربية إلا هذه.

- لا بأس إذًا أن أتشارك مع صاحبي.

أبرز «توماس» ابتسامة بلهاء، وقال مازحًا:

- كما تحبان، وأين الذهب؟

أخرج «زياد» صرة من الذهب، وأعطاها لـ«توماس» الذي أمسكها وقال:

- هذه مقابل الدار، فأين نصيبي من الجارية؟

أخرج صرة أخرى وقذفها له، وقال:

- وهذه من أجل العربية.

ثم قهقه بصوت عالٍ، وتحرك الثلاثة حتى إذا وصلوا إلىٰ دار تشبه الكوخ سقفها مثلث، بجواره حظيرة فارغة، ترمح حولها الجرذان، فك «توماس» سلاسل الحديد من الباب، ودخل وإذا به يخرج ممسكًا بذراع فتاة، وقبضته تعتصر رسغها، وهي تصرخ في وجهه بالعربية:

- ابتعد عني أيها الشيطان، دعني أقتل نفسي، والله إن الموت أحبُّ إليَّ من أن أكون أسيرتك.

أمسك «توماس» بشعرها وقال لها:

- وأخسر ثمنك!

قهقه ليخفي حنقه منها، واقترب من «زياد» وصاحبه وقال:

- الآن الدار خالية لكما.

أشار «زياد» إلىٰ الفتاة وقال:

- إلا من هذه الجميلة.

توماس وكأنه ينفض عنه ثقلها:

- اشتريتها بمال كثير، ولكن الحمقاء لا تعرف الطاعة.

نظر إليها «زياد»، وأبدى إعجابه بها:

- دعها لي؛ أروضها لك.

توماس وهو يلقي عليها نظرة شماتة:

- أتمنى لكِ ليلة سعيدة!

انطلق «توماس» بدنانيره، بينما أغلق «زياد» وصاحبه الباب ومعهما الجارية التي ما زالت تصرخ فيهما، وتسبهما، وتلعنهما، وهما لا يردان عليها بل يتحدثان أمامها بلغة قشتالية. هرولت للداخل تتنصت عليهما، والذعر يملأ كيانها، رفع «موسىٰ» قبعته وبغيظ شديد:

- أردتُ قطف رأس هذا الخنزير الذي يستقوي على النساء!

- لو فعلت لأهلكتنا، وهذه المسكينة. أما وقد وصلنا إليها بهذه البساطة واليسر، فلا بُدَّ من إنقاذها، وبأسرع وقت ممكن ولو لاحظت أنه متمسكٌ بها لا يريد بيعها.

كان «موسىٰ» رغم غيه فإنه شديد الغيرة على عرض المسلمين:

- اللعنة على ملوك الأندلس! اللعنة على «القادر، والمُعْتَمِد، وابن صمادح، وابن الأفطس، وابن مناد» بل اللعنة على كل ملوك الدنيا إن وصلنا إلى مثل هذا الهوان. تُسبى نساؤنا وتغتصب، ولا نستطيع ردَّ الظلمَ عنهنَّ إلا بالحيلة! أين زمن كانت تساق فيه الجيوش من أجل امرأة؟

- رحم الله «ابن أبي عامر»! وإن لم يكن أول مَن فعلها، فقد سبقه بها «الحجاج» رغم ظلمه و«المعتصم العباسي» وغيرهم.

- صدقت يا صاحبي... هل سنخبرها بما سنقدم عليه؟

- ليس الآن حتى تهدأ، وتطمئن إلينا، وستهدأ عندما تعلم أن لا حاجة لنا بها، فالنساء يفهمنَّ جيدًا نظراتِ الرجال، ويعرفنَّ ما بداخله خاصة عند خوفهنَّ.

- لا بأس، سأقف أمام الباب؛ فلا تخرج وتسبب لنا الشقاء والمتاعب، وتفسد ما أتينا لأجله.

مرَّ الوقت، والفتاة لا تخفض عينيها عنهما، وهي تتعجب وتحاول استيضاح الحقيقة الكامنة في نفوسهما، فقد عرفت من المال المدفوع أنه ثمنها، حتى إذا دخل الليل اقترب «زياد» منها ورفع يديه في وجهها وقال:

- هدئي من روعكِ؛ نحن هنا من أجلكِ.

أجفلت بشدّة ونظرت إليه، وقد ارتسمت على وجهها العريض ذي الملامح الرقيقة علامات الدهشة والخوف، وقالت:

- تتحدث العربية!

- ذلك لأننا عرب مسلمون.

- هل هذه حيلة جديدة؟

- لا حاجة لنا في الحيلة، ولو أردنا بك سوءًا لفعلنا، فلماذا لا تفكرين في ذلك؟

ارتبكتِ الفتاة، بينما قال زياد:

- ارتدي هذه الثياب، سنتحرك عند منتصف الليل.

- إلىٰ أين؟

- إلىٰ «طُلَيْطِلَة»... واطمئني.

صمتت للحظات وهي تتفرس بعينيها الواسعتين وجهه الذي رأت فيه شهامة انسلتِ إلىٰ قلبها ووضعت فيه سكينة، حتى إذا اطمأنت قليلًا قالت مترددة:

- إن كان كما تقول، فكيف سيسمحون لنا بالمرور؟

- نحن أتينا إلىٰ هنا كتجار من «ليون» وسنخرج بنفس الصفة التي دخلنا بها، وأنتِ سترتدين هذه الثياب القشتالية التي تدل على كونكِ منهم على ألا تتحدثي إلىٰ أحد مهما كانتِ الظروف، كي لا نُكشف، وقد علمتُ أنكِ لا تحسنين القشتالية.

نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة حائرة:

- وكيف عرفت؟

- عندما تحدثنا أمامك أيقنتُ ذلك، وإلا عرفتِ هويتنا، واطمأننتِ لنا، وما كنتُ في حاجة إلىٰ إجابة أسئلتك الكثيرة.

أخرج خنجرًا من ثيابه، وأردف دون أن يظهر على وجهه أي تعبير:

- ضعي هذا في ثيابك، فلا نعلم ما نحن قادمون عليه!

وفي منتصف الليل أشعل «زياد» النيران في بعض الأخشاب الموجودة في الدار حتى يوهم الجيران أن أحدًا هنا، لا سيما «توماس» الذي ربما يأتي لتفقد المكان والاطمئنان علىٰ بيته، وكانتِ الثلوج قد ملأت شوارع «شقوبية» الحجرية، وفي لحظة معينة فتح «زياد» الباب وأخرج «الورهاء» وكذا فعل «موسىٰ» الذي كان يراقب الطريق ثم أردف «زياد» الفتاة خلفه، وانطلق خارجًا من «شُقوبية» وساعدتهم السماء بأمطارها في إخفاء أصوات حوافر الخيل، وكذا الصقيع الذي أمسك الناس في بيوتهم، ونجحوا في الخروج تحت جنح الظلام، حتى إذا بزغ الفجر وبدأت خيوط الضياء تنبثق في الفضاء، كانوا على أحواز «طُلَيْطِلَة».

جذب «زياد» لجام «الورهاء» ليبطئ من سرعتها، فاقترب منه «موسىٰ»:

- يا زياد لقد ابتعدنا كثيرًا، ألا نريح الخيل قليلًا حتى يتسنى لنا العودة بسلام، فلا تهلك منا، وخاصة «الورهاء» إنها تحملك والفتاة.

- حقًا، لقد تعرقت «الورهاء» رغم هذا الصقيع.

نزل «زياد» من على صهوتها، وساعد الفتاة في النزول، فنظرت إليه قائلة:

- شكرًا لك سيد زياد، وأنا اسمي ليلىٰ.

كانتِ الأمطار قد توقفت فقال «زياد» وبخار الماء يتصاعد من فمه:

- لنجمع الحطب؛ فالبرد يتسرب إلىٰ جسدي، كما أن ثيابنا مبتلة.

بدأ «زياد» وصاحبه في جمع الأحطاب، بينما جلست «ليلىٰ» على حجر، مطرقة الرأس، متشعبة الفكر، ثم عاد يحمل بعض الحطب، فألقاه على الأرض ونظر إليها:

- ما يبكيكِ؟

- لا شيء، لا شيء يا سيد زياد.

جلس على حجر مقابل لها، وكانت لا ترفع عينيها من الأرض، ولكن الأسئلة في صدرها لم تتركها صامتة، ولم تتركها على حالها، فرفعت وجهها المنغمس بالدموع وقالت:

- مَن أنتما؟ وكيف عرفتما بقصتي؟

جلس موسى بجوار صاحبه قبل أن يبتسم بتهكم، وكان منشغلًا بإشعال الحطب ويقول:

- هل هذا ما يشغلكِ الآن؟

- أجل، فوالله ما كنتُ أظن أن أنجو أبدًا بعد الذي حدث، فقد انعدمتِ النخوة في بلاد المسلمين، ولم يعد فيهم مَن يهتم لعرض أو يثور لشرف، وكيف يفعل وملوكنا لا شاغل لهم غير ملذاتهم؟

«زياد» وفي صوته ما ينم عن فرط تأثره:

- من أي البلاد أنت يا ليلىٰ؟

- مِن «مكَّادة» إن كنت تعرفها.

- أليست هي بلد الشاعر الزجال «أبو سعيد المكَّادي» القائل:

وقد أبرزت شمس السماء مطارفًا ... من الوشي ألقتها على الأفق الرحب

أطرقت «ليلىٰ» برأسها، ودموع تلمع في عينيها:

- أجل، أنا من هذه القرية البائسة، وربما أنا الناجية الوحيدة منها بعدما أنقذتماني، ولا أدري هل بقيَّ من أهلها أحد أم لا؟ فبعد أن حاصرها القشتاليون، خرج إخوتي وأبي للدفاع عن المدينة، وأرسلوا إلىٰ صاحب «طُلَيْطِلَة» في طلب النجدات، فلم يعبأ بهم، فأرسلوا إلىٰ القشتاليين يعرضون عليهم تسليم المدينة، شريطة أن يتركونا أحياء فرفض القشتاليون ذلك، وأصروا على أخذ المدينة عنوة، وعندها لم يجدوا بُدًا من الدفاع عن مدينتنا، ولكنهم لم يملكوا أسباب القوة، فذبحهم القشتاليون ذبح النعاج، ولم يتركوا إلا الجثث في المدينة والطرقات.

انسالت دموعها، وهي تتذكر رائحة الدماء، وصرخاتِ الثكالى:

- لون الدماء سيطر على كل شيء في المدينة، وبعد أن قتلوا الرجال اقتسموا الغنائم فيما بينهم: أملاك، وذهب، ونساء، فكنت أنظر إلىٰ نفسي وأنا أباع، بينما أبي وإخوتي دماؤهم الحارة تروي ربوع «مكّادة» ولا هم يملكون الزود عني، وقد قضوا ولا أنا أستطيع بكاءهم، وقد أمسك الجبناء بي.

انتحبت بينما غضب «زياد» وقال:

- لعن الله ملوكنا، فلو كان فيهم خير، ما وصلنا إلى هذا الهوان!

استطاعتِ النيران أن تمدهم بالدفء، ولم يكادوا يشعرون به، حتى سمعوا أصوات حوافر خيل تقترب منهم، فنهضوا بسرعة، فإذا هم عشرة جنود قشتاليين قد خرجوا في إثرهم.

صاح «زياد»:

- اركضي يا ليلىٰ في هذا الاتجاه؛ ستجدين أصحابنا هناك، وسينقلونك إلىٰ طُلَيْطِلَة!

- وماذا عنكما؟

- سنلقى هؤلاء، فإما قتلناهم ونجونا جميعًا، أو قتلونا ونجوتِ أنتِ، وهذا هو الهدف الآن!

تسمرت في مكانها للحظات، فهتف بها:

- لا وقت لدينا!

ساعدها، فامتطت ظهر «الورهاء» وضرب كفلها، فانطلقت تعدو صوب طُلَيْطِلَة، ثم نظر زياد إلىٰ «موسىٰ» وقال:

- كنا نصطاد الطرائد من الأدغال، والآن ستخترق تلك السهام قلوب هؤلاء.

- سأصعد أنا هذه الشجرة، فإذا اقتربوا أُمطرهم بسهامي.

مسح «زياد» المكان بعينه سريعًا:

- وأنا سأختبئ خلف هذه، حتى أجعلهم يمرون مِن تحتك، فلا تُخطئ سهامك يا صديقي، وإلا قتلنا ها هنا.

صعد «موسىٰ» الشجرة واختفى بين أوراقها، بينما تخفى «زياد» خلف جِذع أخرى، وأمسك سهمه وحدد هدفه، وما إنْ اقترب الجند القشتاليون حتى كانت سهام «زياد» تخترق صدورهم، فتساقطوا الواحد تلو الآخر حتى إذ اقتربوا من «زياد» كانت سهام «موسىٰ» تخترق ظهروهم، وقد حسبوا أن مصدر السهام واحد، فلم يهتموا بغيره، وما هي إلا لحظات، حتى كان سبعة منهم قد طرحوا أرضًا، وشهرَ «زياد» سيفه، واستعد لقتال الثلاثة، ولكن «موسىٰ» لم يتركه وحيدًا، فهبط من على الشجرة، وأردى واحدًا منهم قتيلًا، ثم شهر سيفه، وبدأت مبارزة حامية بين «زياد، وموسىٰ»، وجنديين هما مَن تبقا من الجند العشرة...

صلصلتِ السيوف ولمعت، ورغم قوة القشالتيين فإن «زياد، وموسىٰ» كانا سريعي الحركة، وبعد لحظات قصيرة سقط القشتاليان قتلى، فتنفس «زياد» الصعداء، بينما جثا «موسىٰ» على ركبته، وقد استند على سيفه:

- كادوا يصرعونا، ولكن كيف عرفوا بنا؟

زياد وهو يتفحص الطريق ليتأكد من خلوه:

- لا بُدَّ أن توماس قد عرف بالأمر!

راح «موسىٰ» ينظر يمنة ويسرة وصاح محذرًا:

- أصوات حوافر خيل قادمة!

وما كاد يتمها حتى ظهرت «ليلىٰ» ومعها باقي المجموعة، وهم ينظرون إلىٰ جثث القشتالين حتى قال أحدهم:

- لقد نلتم شرف الجهاد وحدكم.

تحدث «زياد» بصفته قائد المجموعة:

- بل جميعنا شركاء فيه.. هيا قبل أن يحاط بنا مرة أخرى.

***

(8)

- أين هي الآن؟

سأل الشيخ «المغامي» «زياد» الجالس معه في بيته القريب من مسجد «طُلَيْطِلَة الجامع».

- لقد أرادت أن تكتري دارًا، وتجلس فيه بمفردها، ولكني لم أرد ذلك قبل الرجوع إليك يا سيدي، وهي الآن في داري مع أمي وأختي.

هزَّ الشيخ رأسه، وظهر عليه الارتياح:

- حسنًا فعلت يا ولدي، فلا يصح لها أن تبقى في دار بمفردها.
- هي كريمة النفس يا سيدي، ولهذا لم ترد أن ينفق عليها أحد.
- سينفق عليها بيت مال المسلمين، فأخبرها بذلك.

هز «زياد» رأسه إيجابًا، وتغير وجهه فجأة:

- علمتُ، أن الأرعن جعل على الحسبة بعضًا من نصارى المعاهدين، هل أراد أن يسترضي «قشتالة» بوضعهم في تلك المناصب الحساسة؟
- أجل يا بُني، فقد سقطتِ المروءة من وجهه، ولم يعد لديه هدف سوى إرضاء «الأذفُنش» ولن يناله! فرغم كل ما فعل ويفعل، فقد كادت «قونقة» أن تسقط في يد «سانشو بن راميرو[1]»، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال، وبدلًا من أن يخرج «القادر» بجيشه صوبها فيحصنها، ذهب يسترضي «الأذفُنش» ويلتمس عونه وحمايته. لكنه أخذ يشتط في مطالبه، ويطالب «القادر» بالمال تباعًا وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود، وقد تسلم منها بالفعل حصون «سرية، وقثورية، وقنالش».

ضغط «زياد» قبضة يده يعتصرها:

- لن يسكت الشعب على ما يحدث.
- لا تعول كثيرًا على العامة الآن يا زياد، فقد ثاروا لمقتل «ابن الحديدي» رحمه الله ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

---

(1) ملك «أرغون».

- إنهم يا شيخنا في سخط عظيم مما يحدث، خصوصًا وقد اتجه «القادر» ببصره صوب الشعب، وسلط عليهم هذا النصراني المسمى «بِلاجيوس» فراح يسومهم سوء العذاب، بل وصل به إلىٰ أنه استصفى بعض أموالهم.

انثنى طرفا شفتي المغامي:

- اختار «بِلاجيوس» لمعرفته بأحوال الناس، وكيف لا يعرفهم وهو منهم؟

- لهذا، أرى أن نقتله!

- لا، لا تفعلوا! «بِلاجيوس» ليس عدونا، ولكن من أولاه ثقته، ومن وضعه في غير موضعه..

وبينما هم جلوس إذ سمعوا أصوات جلبة، وصياح في الشوارع، فتنهد «المغامي»:

- لم يعد «القادر» جديرًا بحكم «طُلَيْطِلَة»، والثورات عليه تتوالى ولا تتوقف، وجرائمه أضحت عيانًا، إنه يعادي شعبه وجيرانه المسلمين، ويسترضي فقط «أذفُنش» وهو الجدير بعداوته!

***

في قصر ليون

- مرة أخرى يا بن عمَّار[1]! تريد أن نذهب معك ونُغير على «غَرْنَاطَة» ثم يتصالح ملكك معهم!

قالها باستنكار كهل غزا الشيب لحيته ورأسه، وتغيرت ملامحه ولم تتغير طباعه، فقد كان من المقربين لـ«الفونسُ» والطامحين لرضاه، والأخير يستشيره دائمًا خاصة في شؤون العرب، فردَّ عليه «ابن عمَّار» -الذي يرتدي عمامة كبيرة وعباءة سوداء بها خطوط ذهبية- بثقة:

---

(1) «أبو بكر مُحَمَّد بن عمّار بن الحسين بن عمّار المهريّ» كان وزيرًا وسفيرًا لـ«المعتمد بن عبَّاد» ملك طائفة «إشبيلية».

- هذه المرة يا «سسنانذ» لن تكون كسابقتها، لقد أقنعتُ «المُعْتَمِد» أن البربر لا خير فيهم، وذكرته بماضيهم كله، وإلا ما كان ليدعمني في عرضي هذا... قف معي يا «سسنانذ» ولا تنس أنك مدين لبني «عبَّاد» الذين احتضنوك في حداثتك، وساعدوك على الظهور، ورفعوا مكانتك في بلاطهم، وأولوك ثقتهم.
- كنتُ أظن أنني أتصف بالدهاء، ولكنك أدهى من الشيطان، انتظرني سأهيئ لك لقاء مع الملك الفونسُ، وإن كنتُ أظنه لا يرغب في رؤيتك.

انصرف وترك «ابن عمَّار» ثم عاد بعد قليل، ودخلا على «الفونسُ» في بلاطه:

- أي ريحٍ أتت بك إلينا؟
- الخير والتعاون.
- أيعجزكم أمر «ابن بلقين[1]» لهذه الدرجة؟!

وقف «ابن عمَّار» كثعلب مكار، بين يدي «الفونسُ»:

- إنَّ «غَرْنَاطَة» أمرها سهل وهي جديرة برجل من نسل عربي، ليس صبي صغير لا يملك من أمره شيئًا، ووزيره هو من يتولى زمام الأمور.

أدرك «الفونسُ» أنه يبخس «ابن بلقين» ويحقر من شأنه، فقال:

- صغير ويرفض دفع الجزية! وقد ردَّ رسولنا «ابن أنسور» من قبل وتحدانا حين ذهب إليه، صغير ولم تنل منه مأربًا بالرغم مما أحققناه به من ضيق.
- كان هذا في السابق لقد قال: إنه لا يخشى ضرركم وغيره أمامكم يقصد بذلك «المَأمُون» وأين هو«المَأمُون» الآن؟ أيها الملك، إن كنتم مُنعتم ما طلبتم من قبل وهو عشرين ألف دينار، فنحن نعطيكم خمسين ألفًا على أن نعاقدكم على «غَرْنَاطَة» تعطونا القاعدة ولكم ما فيها من أموال! وأنا ضامنها لك لتصير إليك بأسرها، على أن تعاهدني إذا تمكنت من البلدة، أن تجعلها ملكي، ولك ما لقيتَ من أموالها.

---

(1) «عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي» ملك طائفة «غرناطة».

- هذا فقط!
- ولك ذخائر القلعة وسلاحها.
- ليس هذا ما أريد.

صمت «ابن عمَّار» وقد أعجزه التفكير في مراده، ونهض «الفونسُ» متجهًا نحوه واقترب منه حتى صار وجهه مقابلًا لوجهه، ونظر في عينه:

- أريد أن تجعلني حرًا طليقًا تجاه «طُلَيْطِلَة» ولا تعترض على شروعي في أخذها.

لم يتردد «ابن عمَّار» لحظة:

- هي لك من الآن إن أردت.

ابتسم «الفونسُ» وألقى يده في يد «ابن عمَّار» وتعاهدا على العمل معًا، وما إن ذهب حتى تغير وجه «الفونسُ» وقد أدرك منه طمعًا كبيرًا وقال:

- لم يرد «ابن عمّار» أن يسعى «المُعْتَمِد» في تهدين الأمر، ولم ينم في نقضه وإشعال نار الفتن، وهذه نصبة لستُ أخلو فيها من فائدة، وإن لم تُحَصَّل البلدة! وأيُّ فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسي؟ وكلما كثر الثوارُ، ووقع بينهم التنافس، كان لي أكثر فائدة!

فهم «سسنانذُ» سياسة الملك، وأن هدفه ليس الاستيلاء على «غَرْنَاطَة» لأن ذلك في مصلحة «المُعْتَمِد» ولكن هدفه تصفيتهم:

- أرى أن تأتيهم على نية أخذ أموال الفريقين، وتكسر رؤوس بعضهم ببعض.
- أحسنت يا سسنانذُ، إنَّا من غير الملة، وكل الناس يشنأنني فبأي وجه أطمع في أخذها؟ إن كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن، وإن كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي، وتذهب أموالي، وتكون الخسارة عليَّ أكثر مما نرجوه إن صارت إليَّ، ولو صارت، لم تتمسك إلا بأهلها، ثم لا يؤمنون! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتنا!

سار بضع خطوات، ثم التف وعاد إلى كرسيه، وتابع:

- ولكن الرأي، كل الرأي، تهديد بعضهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدًا حتى ترق وتضعف؛ ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت، وتأتي عفوًا، كالذي يجرى بـ «طُلَيْطِلَة»، إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم، مع اندبار سلطانها، وها هي تصير إليَّ بلا مشقة!

***

(9)
«غَرْنَاطَة»

وصل «سسنانذُ» كسفير إلى قصر الأمير «عبد الله بن بلقين» فاستقبله بحضور وزيره وكبار رجال الدولة، فوقف أمام الأمير وقال:

- إنما أتيت أدعوك للقاء الملك «الفونسُ»، وذلك لتجديد العهد والاجتماع بك كسائر السلاطين، وما يفعله معهم من اتفاقات وتعاهدات.

- ليس بيننا وبين «أذفنش» أي عهد واتفاق، وقد علم رأينا فيه من قبل.

لم يستطع «سسنانذُ» إلا أن يُدلي صراحة بما ينوي عليه «الفونسُ» فقال مظهرًا النصح والوعيد معًا:

- إنما كانت الأندلس للروم في أوَّل الأمر، حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنحس البقاع وهي بلاد «جلِيقيَّة» في الشمال حيث لا ماء إلا النزر اليسير، ولا وديان منبسطة مثل تلك التي في مناطق نفوذكم، ولا أنهار كالتي تجرى تحت أقدامكم؛ فهم الآن عند التمكن، طامعين بأخذ ظلاماتهم! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف!

انصرف «سسنانذُ» وترك الوجوه واجمة، والأمير لا يشك في أنها خديعة للقبض عليه، وإنجاز ما اتفقوا عليه مع «ابن عمَّار»، واجتمع عليه أهل الرأي والمشورة وقالوا:

- ما الذي تذهب إليه؟ هذا عدو قد جاء لطلبك، ولا قدرة بك على مناوأته! وسواء عليك أخرجت أم بقيت! فإن أنت بقيت، حلت بك الداهية

العظمى، ووقعت المفاسدة، وأصاب مطالبك سبيلًا إلى العمل، وتكون هذه أشد من الأولى.

وقال آخر:

- لو ظهر هذا الجيش على الرعايا، لا يرقب فيهم إلا ولا ذمة! فالخروج إليه أيسر الأمرين، فإن كانت السلامة، شكرت رأيك، وثبت ملكك، وإن كانت الأخرى كان خروجك عن أمان وصرت حَيزًا في العافية! فاعزم على لقائه، وقل له قولًا لينًا، ولله أن يُنفذَ قضاءه.

وبعضهم أراد أن يساير الأمور ويدافع الأيام فقالوا:

- من هنا إلى أن تتم الأموال، وتهلكَ الرعايا بزعمهم، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين!

تضايق «عبد الله بن بلقين» من قولهم هذا، وشعر أن فيه خنوعًا، ولكنه في ذات الوقت رأى أنه لا قِبَل له بمقاومة جُند «المُعْتَمِد» إذا عاود الكرة عليه وأغار على «غَرْنَاطَة»، وفكَّر وقدَّر، إذْ قاده تفكيره إلى أن يقطع الطريق على هذا التحالف، فجمع حوله من يثق به من رجاله، وسار بنفسه إلى «الفونسُ»، وقد كان قدم بجيش مهيب، فلقيه على مقربة من المدينة، واضطر «عبد الله» إلى معاملته بإكرام وبالغ في ذلك، فأظهر له «الفونسُ» وجهًا بسيطًا وخلقًا حسنًا، وقال:

- أعدك أن أحامي عنك كما أحامي عن بلدي، لقد ساقني «ابن عمَّار» إليك سوقًا، ولكني تثبَّتُ في الأمر، ولم نُعَجِّل حتى نسمع ما عندكم، فإن جاملتني ورأيت لقصدي وجهًا، انصرفتُ عنكم على خير، وإلا، فهأنذا مع من عاقدني!

- وما طلبكم؟

- كل ما نطلبه منك خمسين ألف مثقال كل عام.

- هذا لا نقدر عليه، وقد اقتطع «المُعْتَمِد» منا البلاد! ولو أخذ «غَرْنَاطَة»، قوي عنصره ولم ينطع إليك! فخذ ما نقدر عليه، واترك رمقًا لا نُستأصل من أجله، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت.

صمت «الفونسُ» ولم يظهر على ملامحه أي انفعال، وهو من قرارة نفسه يتفق مع قوله، فتدخل سسناندُ وقال:

- وكم تقدر على دفعه؟

- نصف العدد، خمسة وعشرين ألفًا.

ثم أشار «عبد الله» ففتحت صناديق كان أحضرها معه، وبها من الفرش والآنية والثياب الكثير، فلما رآها «الفونسُ» استحْقرها، وطالب بزيادة خمسة آلاف مثقال ليتم بها ثلاثين ألفًا، فدافع «عبد الله» قدر جهده، فلما رأى «الفونسُ» عزة نفسه خشي أن يفقد الاتفاق معه، فطيب له الكلام وعاقده على عشرة آلاف مثقال في العام، ووافق الأمير استدفاعًا لشره، وهو يقول في نفسه:

- إعطاؤه المال ندفع بها مضرته خيرًا من هلاك المسلمين وفساد البلاد، إذ ليس بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته، ولا نجد من سلاطين الأندلس عونًا عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا.

وأراد «الفونسُ» قبل أن يرحل أن يوغر صدره وقال:

- طمع «ابن عمَّار» أن نغدر بك، ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبيرٌ في الروم يقصدك، وأنت كبير في جنسك، ثم نغدر بك! فابق على أمان، لا أكلفك إلا الضريبة، توجه إليَّ بها في كل عام دون مَطلٍ؛ وإن تأخرت بها، أتاك رسولي وتلزمك عليه نفقات؛ فبادر بها!

وما إن انصرف حتى شعر «الفونسُ» بسعادة جمَّة فها هي أولى خطواته تتحقق، فقال لسسناندُ:

- لقد جاء الوقتُ الذي يستنجد فيه العرب بنا، فننصرهم على بعضهم بعضًا، نقدم هذا ونؤخر هذا، وكما فعل أجدادهم بأجدادي سأفعل أنا بهم اليوم، وأرد لهم الصاع صاعين، فإن كان أجدادي ذهبوا للزهراء طلبًا لعون خليفتهم، فها هم ملوكك يا أندلس يأتون إلينا صاغرين، وجل همهم أن نرضى عنهم! ولن نرضى حتى نخرجهم من ديارهم وأموالهم.

ضحك جميع من كان في الخيمة الملكية، وقال الكونت «غرسية ابن أُردُنيو»:

- هل يتأهب الجيش للعودة؟

نهض «الفونسُ» لينظر إلى جنود معسكره هو يستعد للإجابة على السؤال، وظهرت على وجهه ابتسامة ماكرة ثم قال:

- أنعود قبل أن نزور «المُعْتَمِد»؟!

فأمر بالهجوم على «إشبيلية» وحصارها، رغم ما بينه وبين «ابن عمَّار» من اتفاقيات، وليس في نيته أخذ شيء من الأرض، لأنه يعلم أن قوته لن تكفي، ولكنه يهدد في تبجح، فتهلع له النفوس، خاصة أنه يريد إضعاف «المُعْتَمِد» كي لا تزيد أطماعه، ويتسع ملكه وربما يتطلع بنظره إلى «طُلَيْطِلَة».

***

(10)

صرعتِ الخمر «موسىٰ» بعد أن صار عبدًا لها، وفشلت كل محاولات نسيان «نيفادة» فلم يدر بنفسه حتى خرج من بيته متجهًا صوب دارها وهو في حالة يرثى لها، وما إنْ وصل حتى منعه الحرس من الاقتراب، فقد اتخذ «بِلاجيوس» حرسًا بعد أن جعله «القادر» مسئولًا عن الحسبة في المدينة، فحاول مرة أخرى، فدفعوه بعيدًا عن الدار وأهانوه، فلم يجد «موسىٰ» إلا أن يجلس يراقب المكان، وهو يمني نفسه أن يراها، وقد شغف بها حبًا، وأصابه جنون العشق.

وعند ميول الشمس ناحية الغروب، فُتح باب المنزل وخرجت «نيفادة» عليها ثياب حريرية بلون السماء، ومعها إحدى الجواري، فاقترب منها «موسىٰ» وقد زادت نبضات قلبه، وزاغ بصره، وناداها بلهفة شديدة تغمر قلبه:

- نيفادة!

توقفتِ الفتاه فجأة، ونظرت لصاحب الصوت:

- أنت!

- أجل أنا، أنا صريع حبك أسير غرامك يا نيفادة!

- ماذا تريد مني؟

- أن تقبلي طلبي.

- ألم يخبرك أخي؟

- بماذا؟
- بأنني لن أتزوج من هو على غير ديني.

زاد نبض خافقه، وابتلع ريقًا يابسًا:

- اطلبي مني كل ما تريدين أنفذه لك، ولكن غير تبديل ديني.

نيفادة بلهجة جادة:

- أتزعم يا موسىٰ حقًا أنك تحبني؟
- وَا ضياع عمري! أتسمين ذلك زعمًا يا نيفادة؟

نيفادة وقد اختبأ الشيطان خلف وجهها المشرق:

- لا أحد يدري عن حبك هذا.
- إن طُلَيْطِلَة كلها تعلم حبي لك، حتى صار بعضهم يقول: إني مجنون نيفادة! انظري إلىٰ أزقة «طُلَيْطِلَة» وأشجارها ونهرها يخبرونك جميعًا كم أحبك!

نظرت نظرة جريئة داخل عينيه:

- فلتبرهن لي على هذا الحب.

كاد «موسىٰ» أن يتيه في عينيها الحالمتين، وفرح بطلبها وظنَّ أن فيه فرصة له:

- كيف ذاك؟

رسمت علامة الصليب على وجهها وصدرها:

- تؤمن بإلهنا المسيح، وتكفر بما سواه.

قطب حاجبيه:

- ألا سبيل غير ذلك؟
- لا أريد غيره.

قالتها، واستعدت للانصراف، فاستوقفها ثانية على عجل:

- إن أجبتك تكونين لي.

ابتسمت برقة بالغة:

- وقتها فقط أعرف بحبك لي.

صمت قليلًا، ثم نظر حوله، وقال بعد ترد يسير:

- كل ما تطلبينه يا نيفادة هين وإن عزَّ.. خذي مني ديني، ودنياي، ومالي، وكل ما أملك، فأنت ديني، وحياتي وكل شيء؛ القربُ منكِ هو النعيم وهو الصراط المستقيم.

امتلأ صدرها بهواء منعش، وزاد وجهها إشراقًا:

- الآن فقط أنت جديرٌ بي.. بالإذن منك.

اغتمَّ وجهه لسرعة انصرافها، فهتف بها:

- وماذا عني؟

- سأنتظرك وأخي مساءً، لا تتأخر يا موسىٰ!

***

وفي المساء كان «بِلاجيوس» مستعدًا لاستقبال «موسىٰ» ولكن ليس كما المرة الأولى، فقد كان هناك رجل دين مسيحي في انتظاره.

وكان «موسىٰ» مضطرب القلب والنفس لا يفكر في أمر غير «نيفادة» فجعلها حياته وهدفه، وتحرك من منزله وهو سعيد النفس والروح يرتدي ثيابًا جديدة يقتل بداخله صوت كل وازع حاول أن يثبطه أو يثنيه عن عزمه، حتى إذا وصل دار «بِلاجيوس» وجده ينتظره، وما إنْ دخل حتى سلم على بِلاجيوس فقال له:

- أهلًا بك يا موسىٰ.

- خذني إلىٰ ذلك المكان الذي التقيت فيه نيفادة أول مرة.

ببشاشة وترحاب أدخله الغرفة ذاتها، وهناك وجد «موسىٰ» قسًا ينتظره، فنظر إليه متوجسًا بينما قال بِلاجيوس:

- هذا الأب «يعقوب» رأس الكنيسة هنا في طُلَيْطِلَة، ولولا مقامي عنده ما جاء ليحضر تعميدك بيننا، وهو هنا أَيْضًا ليعقد الزواج بينك وبين «نيفادة» على شرطها.

ما إن سمع «موسىٰ» ذلك حتى ابتهج، وخرَّ على يد القس يقبلها، بينما باركه الأخير بالتصليب على رأسه، ومن ثم قام بتعميده ودخل «موسىٰ» في النصرانية.

وبلهجة الناصح المخلص:

- إياك يا بُني أن تخبر أحدًا بما حدث اليوم، فلا تأخذك الفرحة وحبك لـلكريمة «نيفادة» فتهلك نفسك!

- إن موسىٰ أيها الأب يعلم ذلك، فهو خبير بأحوال قومه.

- أردت فقط أن أعمل على حفظ حياته.

- وهل سيكون زواجي من نيفادة سرًا أَيْضًا؟

- بل سيكون علنًا إذ لا يمنع الإسلام أن يتزوج الرجل بنصرانية.

- ولكني لا أريد ذلك أيها الأب، بل أريد أن يعلم الجميع أن موسىٰ قد صار واحدًا منا.

قالتها «نيفادة» فنظر إليها الجميع مندهشين، بينما كانت تنطق بشجاعة وإصرار، صمتوا وتبادلوا الأنظار، وبسرعة قال يعقوب:

- وقتها يجب أن تغادروا «طُلَيْطِلَة» فورًا!

بتعجب نظرت نيفادة إلىٰ الأب يعقوب الذي استطرد وقال:

- إن دين الإسلام يقتل مَن يرتد عنه لذا؛ لا حياة لموسىٰ بعد تنصره في «طُلَيْطِلَة» إلا إن أخفى مسيحيته، وعاش فيها حياته كمسلم.

انهارت «نيفادة» وجلست في مكانها، فاقترب منها «موسىٰ»:

- لا تحزني يا حبيبتي، فلأنفذنَّ لك ما تريدين، وإني على استعداد أن أخرج من هنا وأعيش معك في «برغش» أو حتى «جليقية».

رفعت رأسها وهزتها بقوة:

- لا، لا فأنا لا أستطيع ترك «طُلَيْطِلَة».

بِلاجيوس بلهجة حازمة:

- وأنا لا أريد رحيلكما، فأمامنا عمل كبير، ليكتم موسىٰ تنصره، ونعلن أن زواجًا جديدًا تم بين مسلم ومسيحية!

***

(11)

في بلاط المُعْتَمِد بن عبَّاد

كان «المُعْتَمِد» ملك جميل الوجه موفور الصحة والشباب في نهاية عقده الثالث لا يعبأ بما يدور حوله؛ فقد ملكت عليه «اعتماد» كل حياته، فظل يضحك، ويقارع كؤوس الخمر بشكل يومي والخمرة تصرعه، فلا يكاد يفيق حتى يعود لها، وقد امتلأت حياته بالرقص، وشغل نفسه بكل شيء ما عدا عدوه الحقيقي. مضى الليل عليه وهو نائم في الإيوان ولم تفلح محاولات «اعتماد» في إيقاظه، وفي الصباح استيقظ ليجدها جانبه تبتسم وتقول:

- صباح الخير يا حبيبي.

فتح عينيه الدعجاء:

- صباح الخير يا حبة القلب، ودواء الروح.

نظر حوله فوجد نفسه في إيوانه:

- لمَ لمْ توقظوني؟

اعتماد مبتسمة:

- حاولت جهدي، ولكنك يا مولاي أبيت إلا أن تنام هنا.

نهض المُعْتَمِد وانتصبت قامته العريضة الطويلة، وبابتسامته الواسعة:

- لا بأس، لا بأس.

وبعدما اغتسل، وتناول طعام إفطاره، عاد ليجلس في مجلسه لا يشغله عن دنياه إلا دنياه، وهو يفكر في مشاريعه وتوسعة ملكه، ويجلس مع أقرب الناس إليه خليله ووزيره «ابن عمَّار» إذ دخل عليهم، أحد حراسه يصيح:

- أدركنا يا مولاي!

انتفض «المعتمد» من الدهشة والغضب، وإذ هو يقول بصوت يخنقه الاضطراب:

- ماذا؟ ماذا بك؟

فأجاب الحارس بهلع:

- لقد هاجمنا الأذفُنش بجيش أوَّله هنا وآخره لم يظهر بعد!
- أين؟ ومتى رأيته؟
- في ظاهر المدينة، لقد رآه من رآه باكرًا، وما زال يتقاطر حتى الآن!
- ويحك! ماذا نفعل يا بن عمَّار؟

تكلم «ابن عمَّار» في هدوء، وكأنَّ ما يلقى إليه بشريات لا أثر فيها للحرب والخراب ودولة تهوي وعرش يزول:

- مولاي، إني مخلص الأندلس والإسلام من كل ما تخشاه، كل ما أرجوه منك أن تفعله «شطرنج».

ذهل المُعْتَمِد وكأنه لم يسمعه:

- ماذا؟ شطرنج! أتقصد الذي يلعب به؟
- أجل.
- أتهذي يا رجل؟
- بل أجد، أريده أفخم ما يكون الشطرنج، من خالص الذهب والفضة، وأريده من يد أمهر الصناع.

أمر المعتمد بذلك ففرغ له الصناع حتى صنعوا رقعة نادرة المثال وتأنقوا فيها، وجعلوا قطع اللعب من الأبنوس والصّنْدل والعود الرطب، وحلوها بالذهب والجواهر، ووضعوا فيها من عبقرية الفن ما جعلها تحفة. وخرج «ابن عمَّار» بها إلى خيام «الفونسُ»، فالتقى بـ«سسناند» وقادته المقربين إليه، ورشاهم ووزّع عليهم المال الجمّ والهدايا الثمينة ليساعدوه عند الملك، وتحدث معهم حديثًا جاريًا، فلما دخل على «الفونسُ» قال له:

- كذبت ليَّ في قولك إن «غَرْنَاطَة» في ضعف، وإن صاحبها من صغر سنه لا يعقل! ورأيتُ من رتبتها وأحوالها ما يخالف قولك!

تلطف «ابن عمَّار» حتى أراه الرقعة والقطع، فلما رآها دُهش لها وجُنّ بها، وراح يقلب بيديه كل قطعة فيه ناعمة وخفيفة بنشوة وشغف خبير:

- ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا المدى! كيف السبيل إلى مثله يا بن عمَّار؟

- ليس إلى مثله سبيل... المال لا يعوق، ولكن الصناع الذين صنعوه ماتوا كلهم، ولن يقدر على إبداع مثله صناع اليوم، أما إن رغبت فيه، فهو لك بشرط.

- وما هو؟

لاحظ «ابن عمار» تزايد نفاد صبر الملك، وأدرك أنه سقط في عربته، فاقترح بلطف ولكن بحزم ووضوح:

- ألعب معك عليه، فإن غلبتني كان لك، وإن غلبتك كان لي حكمي.

- لا أظنني أرضى بهذا وأنا لا أعرف طلبك.

قال سسناند:

- ولكنك يا مولاي تتقن اللعب إتقانًا فما خشيتك؟ وإن غلبته كانت لك رقعة لا نظير لها، وإن غلبك فما عساه يطلب؟

وما زال يغريه حتى أومأ برأسه موافقًا، فقال ابن عمَّار:

- اكتب ما اتفقنا عليه واجعل بيني وبينك شهودًا.

فكتب الاتفاق، ونصبوا السفرة، ولعبا، والقواد شهود، وكان «ابن عمَّار» طبقة وحده في الأندلس، لا يقوم له أحد في هذه اللعبة، فغلب الملك غلبةً ظاهرة ليس عليها مطعن، فاعترف الفونس بها، واختطف ابتسامة ألصقها بفمه وقال:

- فما مطلبك يا رجل الجزيرة؟

- أطلب أن تأمر جيوشك بالرجوع.

فغضب «الفونسُ» وأخذته رعشة تشنج:

- ويلك! أتسمع ما تقول؟ هذا ما لا يكون أبدًا.

فأقبل سسناند:

- إنه لا يَجمُل وأنت ملك الإسبان أن تنقض عهدًا كتبته وأشهدت عليه.

- أرأيت ما أوقعنا فيه؟ ولكن لا، لا يمكن أن يصبح الهذر جدًّا.

«ابن عمَّار» بهدوء معتاد:

- إن هذر الملوك جدٌّ يا مولاي.

نظر «الفونسُ» إلى وزرائه نظرة تكاد تقتلهم من شدة غيظه، فتركه «ابن عمَّار» ثائرًا هائجًا حتى يهدأ، وقام بجمع قطع الشطرنج في الصندوق وقبل أن يترك الخيمة استوقفه «الفونسُ»:

- لا أرجع حتى آخذ إتاوة مضاعفة هذا العام، وأن ترسل إلى ملكك فليوقع على الاتفاق الذي تم بيننا.

- هذا كله لك يا مولاي.

ثم تقدم نحوه ومدَّ يده بالشطرنج:

- هدية خالصة متواضعة من ابن عمَّار.

سُرَّ «الفونسُ» من هذه اللفتة، ثم أمر بإحضار هدية لـ«المُعْتَمِد» (طربزين يشبه الصولجان وله رأس فأس صغير مزدوج) أخذه «ابن عمَّار» وانصرف، ورجع إلى «إشبيلية» وقد امتلأت نفس «المُعْتَمِد» سرورًا بخلاصه من هذا المأزق وسلمت له مملكته، كما امتلأت نفس «ابن عمَّار» غرورًا بهذا الانتصار الذي أكسبه شهرة ومجدًا انتشر في سائر الأندلس، وهكذا صرنا نحارب برقعة شطرنج، بعدما كنا أبطال الدنيا وسادة الأرض! ووقع «المُعْتَمِد» المعاهدة وهو أن يُؤَدِّي للملك القشتالي الجزية سنويًّا. ولا يعترض على مشروعه القاضي بالاستيلاء على «طُلَيْطِلَة» ويُسمح له بغزو أراضيها الجنوبية على أن يُسَلِّمَ منها إلىٰ الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمال (جبال الشارات)؛ ما يعني أن «المُعْتَمِد» ضحَّى بـ«طُلَيْطِلَة» وكان أول خائن لها، وأول من عرف نيات «الفونسُ» تجاهها، وبدلًا من أن يسارع الخطى في الدفاع عنها لم يهتم إلّا لشأنه فقط! لكي يفوز بإمارات لم تخضع له بعد، وهذا خطأ جسيم يُضاف إلىٰ أخطائه، ودلالة على استهتاره نحو أُمَّته ودينه.

***

(12)

كان «القادر بن ذي النُّون» يجلس في قصره وبجانبه جاريته «عجب» عندما دخل عليه أحد الجند وقال وهو يلهث من الإعياء:

- سيدي لقد هاجم القشتاليون «طليبيرة» وأخذوها بعد أن قتلوا كل من فيها!

امتعض القادر:

- أفٍ لكم ولأخباركم التعيسة! هل كُتب عليَّ أن ينغص على يومي بتلك الأخبار البائسة! اغرب عن وجهي أيها الأحمق قبل أن يطيش عقلي وأقتلك!

ارتعب الجندي وهو لا يعلم جريمته، ثم انحنى وخرج من أمام «القادر» يتحسس رقبته بينما رفع «القادر» كأس خمره، فنهل منها، ثم قذفها بعيدًا عنه وراح يقول:

- لماذا تفعل ذلك يا أذفُنش؟ ألم يأوِك جدي وأنت فارٌّ من قشتالة، هل جزاء حفيد من لُذت بحماه أن تقتطع أراضيه؟

أتاه صوت «عجب» الهادئ:

- هون عليك يا سيدي!

- كيف السبيل يا عجب لحفظ عرشي من هذا الأذفُنش اللئيم؟

- إنما تحفظ العروش ببذل الأموال يا سيدي.

- لقد نفدت خزائن الدولة، فلم يعد هناك متسعٌ.

قالت وهي تربت على قلبه بعطفها:

- ولكن خزائن أهل «طُلَيْطِلَة» لم تنفد بعد، فليدفعوا من أموالهم ما يحفظ مدينتهم، لا تحمل همًا يا مولاي فلتضاعف الضرائب، ولتنهب دور كل من يقاوم ذلك؛ فوالله، لن يرضى «الأذفُنش» إلا بالمال الكثير.

***

قبرة 1079م

في قصر من أزهى وأجمل قصور الأرض في ذلك الوقت قصر المبارك بـ«إشبيلية» كان «المُعْتَمِد» وصاحبه «ابن عمَّار» الذي يرافقه كظله، يسيران في جنباته متجهين إلى دار الحسبة.

- ما بك يا بن عمَّار؟ لست بالوجه الذي أعرفه!
- المعذرة يا سيدي، ولكن هاتفٌ في المنام عاودني غير مرة يقول لي ثلاثًا: لا تغترّ أيها المسكين، فإنه قاتلك ولو بعد حين!

ضحك «المُعْتَمِد»:

- يا أبا بكر، أضغاث أحلام هذه آثار الخمر.. وكيف أقتلك؟ أرأيت أحدًا يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟

وصلا إلىٰ حيثُ تم تجهيز صناديق ارتعت بالأموال؛ استعدادًا لتسليمها لرسول «الفونسُ» الواقف أمامهما وهو «لُذْرِيق القمبيطور» الذي أُرسل لجمعها، وبينما هم يشرفون على الحسبة، فجأة أقبل عليهم الحاجب مرتبكًا وقال:

- رسالة عاجلة، لقد هجمت قوات غرناطية على حدودنا، واستعادت حصن «قبرة»!

بصوت دهش في طياته فرح قال «ابن عمَّار»:

- ماذا؟! نقضوا العهد! أخزاهم الله.

وباستنكار شديد قال «المُعْتَمِد»:

- كيف يفعل «ابن بلقين» هذا؟

أجابهم الحاجب:

- ليسوا وحدهم معهم قوة قشتالية.

نظر المُعْتَمِد إلى «لُذْرِيق» نظرة تحمل كل معاني الاتهام بالخيانة، بينما انزعج الأخير وبصوته الأجش، وهو يشير إلى الصناديق:

- هذه الأموال محرمة عليَّ، فما نأخذها إلا لحماية أراضيكم.

ثم وجه نظره إلى الحاجب:

- مَن القشتالة الذين معهم؟

- الكونت غرسية و...

قاطعه بصوت ممطوط ساخر:

- ابن أردُنيو إذن!

ثم حول وجهه إلى «المُعْتَمِد» وقال باحترام:

- فلتأذن لي بالخروج إليهم، وأمرهم عندي.

تناجى «المُعْتَمِد» مع «ابن عمَّار» حديثا جانبيًا:

- أذفُنش اللعين لا عهد له، يعاهدنا ويساندهم!

- إنه حقًا لئيم، دع «القمبيطور» هذا يذهب إليهم يبدو من وجهه أنه غاضب، وإني على علم بعداوته للكونت.

أخذ «لُذْرِيق» قوة صغيرة معه، وركب خيله وهجم على الحصن هجمة الأسد الجائع، وقاتل لنهار كامل، وقتل العديد من أتباع «ابن بلقين»، وطردهم جميعًا، واختبأ «ابن أردُنيو» فور سماعه بقدومه، وقد كان يرتعب من ذكر اسمه، ولكن «لُذْرِيق» عثر عليه، وأمسك لحيته وجذبه منها وأهانه، فصاح في تشنج، وقلبه يشتعل حسدًا:

- لن يدعك الفونسُ تنجو بفعلتك تلك!

وما إن غربت الشمس، حتى هزم «القمبيطور» القوات الغَرْنَاطية هزيمة مدوية، وحصل على غنائم الحرب، وأسر كل من كان مع «ابن أُردُنيو» من فرسان ونبلاء مسيحيين، واحتجزهم ثلاثة أيام، حتى أطلق سراحهم دون فدية للعودة إلى قشتالة.

وعاد إلى «إشبيلية» مظفرًا، ولم يجمع الجزية فحسب، بل استقبله «المُعْتَمِد» استقبالًا مشرفًا، وكافأه بهدايا ثمينة مخصصة لـ«الفونسُ»، مصحوبة بتوقيع معاهدة سلام.

***

(13)

كانتِ الشمس في وسط السماء عندما تحرك «زياد» صوب نهر «التاجة» العظيم حتى إذا وجد مكانًا خاليًا من الناس خارج «باب الدباغين» جلس فيه، وهو يراقب جريان الماء في النهر، ويتأمل حركة البيلتين، وهما ساعتان مائيتان عبارة عن نافورتين في حوضين كبيرين في بيت مجوف في جوف النهر، وهما من عجائب الدهر إذ إنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه[1]، وبينما «زياد» يفكر في الأحداث التي يمر بها، إذ سمع وقع أقدام تقترب منه، فلم يلتفت، ولم يهتم بل ظل ناظرًا إلىٰ الماء كما هو، أما «جعفر» فقد جلس جانبه ينظر هو الآخر إلىٰ الماء، ولم يتحدث أو حتى يلقي السلام، وبعد هنيهة قال:

- لقد صدق حدسي؛ وجدتك حيثما توقعت، وأنا أَيْضًا ضاقت نفسي ولم أجد في «طُلَيْطِلَة» متسعًا لها.

تنهد زياد:

- أحيانًا أشعر أني غريبٌ عن تلك الديار... «القادر، العامة، موسىٰ الطويل، بِلاجيوس» وغيرهم، بل وأقول لمَ أنا هنا؟ لماذا لم أوجد في زمن غير هذا الزمن ومكان غير هذا المكان؟

دُهش «جعفر» وفوجئ بقوله:

---

(1) صنعهما «الزرقالي» وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعمها من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر فيهما نصفهما ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع، حتى يتم القمر واحدًا وعشرين يومًا فينقص منهما نصفهما، ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع، فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء. وإذا تكلف أحد حين تنقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما، حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما في تلك الساعة. وكذا لو تكلف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق فيهما شيءٌ ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين.

- لم أسمعك تقول مثل هذا من قبل وأنت مَن يحب «طُلَيْطِلَة»!

- إي والله إني أحبها، وأحب كل ما فيها، ولكن أكره هذا الهوان وما نحن فيه، وأمني نفسي الأماني أن نعود يومًا كما كنا.

ثم أحسَّ أنه يثقل عليه ويبث إليه همومه فقال متلطفًا:

- لا تبال بكلامي يا أبا حفصة فإنما أنا بشر.

ابتسم «جعفر» ابتسامته الطيبة المعهودة وهو ينظر إلى عينه:

- لا عليك... أرسلتني «فاطمة» لأحدثك في أمرٍ.

- أعلم ما هو، إنها «ليلىٰ» أليس كذلك؟

أومأ «جعفر» برأسه، بينما أردف زياد:

- لقد استخرتُ الله، وفكرت كثيرًا، وأنا الآن أريدها للزواج.

جعفر مبتهجًا:

- حقًا؟

- لقد وقعت في نفسي مذ التقيتها في «شِقُوبية» ولكن أخشى أن توافق؛ ردًا للجميل، وما فعلنا في إنقاذها.

زمَّ «جعفر» شفتيه مفكرًا:

- ربما يحدث ذلك فلا أحد يستطيع أن يجزم كيف تفكر ليلىٰ؟ ولكن لا عليك سأخبر «فاطمة» أن تتحدث معها في الأمر، ولا أظنها ستخفي عنها شيئًا من ذلك، أعني إن قبلت سيكون القبول للقبول، وليس لما صنعتَه من أجلها، والآن هيا بنا إلىٰ السوق إذ يجب علينا ألا نترك الدكان أكثر من ذلك.

أخذ «زياد» نفسًا منعشًا، وقال بحماس:

- هيا.

انطلق الاثنان وهما يتحدثان، حتى إذا وصلا السوق وجدا «بِلاجيوس» ورجاله يسومون الناس سوء العذاب، إذ يأخذون منهم الضرائب عنوة، ومَن لا يدفع يسجنونه ويدمرون ممتلكاته.

تضجر «زياد» وقطب حاجبيه:

- لقد أثقلتِ المغارم ظهور الناس، ولم يعلم «القادر» بعد أن لا طائل من دفعها لقشتالة!

- لقد كان حريًا به أن يجيش بها الجيوش بدلًا من ذلك.

- انظر هنالك!

أشار «زياد» إلى رجل:

- هذا هو الجاسوس الذي التقيناه منذ زمن، والله لقد شككت في أمر «بِلاجيوس» هذا كثيرًا، ولكن لم أكن أعلم أن يصل به الأمر إلىٰ هذا!

جعفر وقد كان غيورًا سريع الحمية:

- تعال نواجه بِلاجيوس بهذا الكلام.

- إن فعلنا لربما همَّ باعتقالنا، وتعلم مَن هو الآن؟ ولكن لكل حدث حديث... هيا، سأذهب.

- إلىٰ أين؟ ألن تفتح معي الدكان؟

كان «زياد» تقدم بضع خطوات مهرولًا، فالتف إليه وهتف:

- يجب أن ألتقي شيخي حالًا.

وما إنْ وصل إلىٰ «المغامي»، حتى حدثه بما كان وبأمر الجاسوس، فطلب منه الصمت والكتمان، فلما حدثه عن المغارم قال له:

- لا طائل من دفعها لقشتالة، خاصة وإن ملك قشتالة ما فتئ يقتطع البلاد، وهؤلاء قوم لا عهد لهم، ولا طاعة لـ«القادر» بعد اليوم!

- وماذا إن بطش بنا القادر؟

نظر «المغامي» في وجوه المتحلقين حوله:

- قبل أن نعلن خلع طاعته سنحمل إليه مطالبنا، فإن قبل، وإلا فليكن لنا معه شأن آخر.

وقابل «القادر» تلك المطالب من شعبه بحملة كبيرة قامت بها شرطة المدينة لإلقاء القبض على كل معترض على دفع المغارم الجديدة، وكان من بين هؤلاء الشيخ «المغامي» وتلاميذه، وكان يساعد الشرطة في ذلك «بِلاجيوس» بينما نجح «زياد» وبعض رفقائه في الفرار من الشرطة.

وتعاطف الشعب مع «المغامي» وكانوا يعرفونه جيدًا ويعرفون قدره، واندس «زياد» وأصحابه بينهم ينددون بأفعال «القادر» وسجنه للشيخ وهو من هو، ويذكرون الناس بأفعال «القادر» وخنوعه للنصارى، وفشله في حفظ المدن، واحتلال النصارى لكثير من القرى «طليبيرة، ومجريط، ومكَّادة» وأنهم عن الخطر ليسوا ببعيدين، وأحدث حديث الشباب في الشيوخ الكثير، وساعدتهم أفعال الشرطة واستخفافها بمقدراتِ الشعب وبطشها، ثم إفسادهم لكثير من أقواتِ الناس واستيلاؤهم على الكثير منها، فقام بعض الشباب المتحمسين وتصدروا للشرطة، وحاولوا منعها من سلب أموالهم ففتكتِ الشرطة بهم، فهاج الناس، وتجمهروا وفتكوا بالشرطة، ثم علموا أن لا عودة للخلف إذ قال لهم زياد:

- إن أنتم عدتم ستعود الشرطة العليا وتقبض عليكم، فالآن لا سبيل للعودة حتى ندخل قصور «ابن ذي النُّون».

وتقدم الشعب الثائر حاملين العصي والحجارة يقذفون من يعترض طريقهم قاصدين الفتك بـ «القادر» ولكنه استطاع تحت حماية جنده أن ينجو منهم ويلوذ بالفرار، وأن يلجأ مع أهله وولده إلىٰ حصن «وبذة[1]»، واستنجد بـ«الفونسُ» أن يساعده في قمع الثورات التي قامت ضده، فطلب منه أن يمده بالمال مقابل نجدته، وهناك في الوادي الفسيح جمع «القادر» الرعية، وقال لهم:

- أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين، لأجعلن عنده رهنًا جميع ما عندكم من العيال والبنين.

وقع الأمر كالصاعقة على أذهان الأهالي، ونظر بعضهم إلى بعض في ريبة شديدة، ولم يجبه أحد منهم بحرف، إلىٰ أن خرج له القائد الشجاع «أرقم بن لبون» وصاح به منكرًا:

- لقد خلعت نفسك بما قلت، وبما أزعمت عليه وعولت!

---

(1) من حصون طُلَيْطِلَة الشمالية الشرقية.

ففسدت أنفس الناس حتى أقرب المعاونين له، ورأوا أنه لا تجب له عليهم طاعة، وثار كل أهل «طُلَيْطِلَة» وبينما يقود «زياد» مجموعة من الثوار، إذ قدم إليه أحد رفاقه يلهث ويقول:

- لقد زحفت جموع من الناس صوب بيوتِ المعاهدين لقتلهم، فأدركهم قبل أن تصير فتنة!

- خذ بعضًا من الرجال، واذهب إلىٰ السجن؛ حرر من فيه.

- والمعاهدون!

- سأدركهم أنا، والآن هيا.

انطلق الشباب ليحرروا السجناء، بينما انطلق «زياد» صوب بيوتِ المعاهدين فوجد مجموعة كبيرة من الناس تلف بيت «بِلاجيوس» يريدون الفتك به، فخرج لهم «موسىٰ الطويل» وأشهر سيفه في وجوه الغاضبين:

- لن تقتلوه حتى تقتلوني، وتذكروا أن بِلاجيوس ما هو إلا واحد منكم ينفذ أمر سيده وسيدكم، فلمَ تقتلونه؟

صاحت جموع الناس:

- لقد أذاقنا العذاب والهوان، ولن نتحرك من هنا إلا برأسه!

فما كان من «موسىٰ» إلا أن تحفز وهو يقبض على سيفه:

- لن يتقدم أحد لقتله إلا قاتلته.

استل أحد الشباب سيفه وتقدم صوبه وقال:

- ألأنه صهرك يا موسىٰ؟ فهذا لن يعفيه من العقاب واليوم يوم القصاص!

وتقدم للقاء موسىٰ وما إنْ رفع سيفه، وقبل أن يهوي به توقف لحظة ظهور «زياد» أمامه ليحجبه عن موسىٰ، وصاح فيهم:

- توقفوا! لا نريدها فتنة بل صلاحًا للبلاد، وصدقًا قال ما «بِلاجيوس» وأمثاله إلا أداة في يد «القادر» وجنده.

هتف الشاب متهكمًا:

- إن تركناه، سيأتي كل جبار ويقول: إنما أنا أداة لا شأن لي.

زعق زياد:

- أنا لا أدافع عنه، ولكن سيكون مصيره السجن لا القتل.

هاجتِ الجموع أكثر، وقالوا:

- لن نتحرك قبل أن نقتله، فتنح جانبًا يا زياد.

تبادل «زياد، وموسىٰ» النظراتِ الحائرة، وفي لحظات تحول سيف الشاب إلىٰ مجموعة من السيوف كلها تريد قطف رأس «بِلاجيوس» ولم يمنعهم سوى صوت «المغامي» الرخيم القوي:

- أمسكوا سيوفكم، لا نريد أن يقتل بعضنا بعضًا، أعيدوا سيوفكم إلىٰ أغمادها!

سمع الجميع له، وهدأتِ النفوس قليلًا، وتقدم «زياد» صوبه يقبل رأسه ويده، وكذلك فعل الكثير من الناس إلا موسىٰ أخذ يتراجع إلى الوراء إلى أن توارى.

واستغل «المغامي» فرصة تجمع الناس وقال:

- يجب أن نحفظ الأمن والأمان للناس، فاجعلوا من أنفسكم شرطة لحفظ المدينة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

(14)

بداخل قصر «البديع» بـ «بَطَلْيُوس» الذي تحيطه الجنات والحدائق، جلس ملك عالي القدر، مشهورًا بالفضل، مثلًا في الجلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة «المُتَوكِّل عُمر بَن الأَفْطَسْ» ومعه صديقه ووزيره «ابن أيمن[1]» يستقبلان القاضي «أبو الوليد الباجي» الذي حل في ضيافتهم، وكان يبذل قصارى جهده، ويستفرغ كل وسعه، ليطوف على ملوك الطوائف مؤديًا واجب النصح للأئمة وواعظًا ومنذرًا لهم من عواقب التشتت والتفرق والخلاف،

(1) الوزير الكاتب «أبو عبد الله مُحَمَّد بن أيمن» أعجوبة الدهر، وفريد العصر، وفارس ميدان النظم والنثر، اشتهر في حملة الأقلام، اشتهار البدر في السماء، وتلاعب بغرائب الكلام، تلاعب الأفعال بالأسماء.

ومظهرًا لهم خطر عدوهم ووجوب صد العدوان وكان يتحدث إليهما وهو حزين الوجه متأثرًا:

- والله إنها لفتنة كبيرة! لم تنزل مثلها بالجزيرة من قبل، إخوة في الملة يتصارعون ويتقاتلون، وعدو متربص يفتك بالواحد منا تلو الآخر، ولا أرى سبيلًا لحماية الأندلس إلا أن يرأب هذا الصدع، ويعود الوئام إلىٰ مدنها، وبدلًا من أن يتقاتل المسلمون حتى يفنى بعضهم بعضًا يتحدوا، فيهابهم عدوهم ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وبينما يُحدث «المُتَوكِّل» إذ دخل عليهم الحاجب قائلًا:

- سيدي، بالباب رسل من مملكة «طُلَيْطِلَة» يريدون إذن الدخول عليك.

- لم يكن بيننا وبين «القادر» سفارات من قبل، فما الذي تبدل؟

قالها «المُتَوكِّل» مندهشًا، فقال الوزير:

- علها رسل خير يا سيدي.

المُتَوكِّل مشيرًا للحاجب:

- أدخلهم.

دخل الرسل وقدموا التحية، فهنض «المُتَوكِّل» قائلًا:

- مرحبًا برسل «القادر».

- نحن رسل طُلَيْطِلَة، ولسنا رسل «ابن ذي النُّون» يا سيدي.

المُتَوكِّل متعجبًا:

- وهل يخرج الرسل بغير إذن سيدهم؟

- لم يعد «ابن ذي النُّون» واليًا علينا.

- ماذا؟ لم يعد ملكًا عليكم! كيف ذاك؟

- أجل يا سيدي، لقد تنازل عن الحصون والمدن لملك قشتالة، ثم أرهق الشعب بالضرائب والمكوث يقول لنا: إنما أذب بها عنكم، وأدفع بها عدوكم، وأصلح بها أحوالكم. والحقيقة أنه يكدس الأموال لأهوائه وملذاته، ولا يقدم الأموال إلا لحفظ عرشه المتهاوي، ولو صدق فيما

يقول ما تنازل عن المدن، فكيف يحفظ بلادنا من يعطيها قربانًا لقشتالة؟!

تمتم المُتَوكِّل:

- لا والله، لا يحفظها مَن يتنازل عنها أو تهون عليه.

ثم وقف وأكمل:

- ليست إرث أبيه إنما هي بلاد المسلمين، بل لا يحق لأي حاكم فينا أن يتنازل عن هذه الأرض التي فتحت بالدماء دون بذل الدماء، أما والله، ليذهبن جهد الأولين سُدى إن نحن فعلنا، ولتأتي أجيال تلعننا إن فرطنا فيما تركه أباؤنا، أما الأموال فهي لسن السيوف، وتجنيد الأجناد، فبذلك تحفظ البلاد.

تابع الرسول كلامه:

- «ابن ذي النُّون» جند الأجناد، لقتل الشعب لا للذود عنه، ولهذا لم يحرك هؤلاء الجند يدًا عندما كان العدو «أذفُنش» بينما يسومون الشعب سوء العذاب.

- قاتل الله الضعف والهوان!

قالها «المُتَوكِّل» وعاد إلىٰ كرسيه، ينتظر من الرسول أن يكمل ذكر سبب مجيئهم، فاسترسل الرسول ببراعة، واحترام بالغ:

- لقد أرسلني علماء «طُلَيْطِلَة» وكبراؤها بعد أن خرج منها «ابن ذي النُّون» وصرنا كالسائمة المهملة، ليس علينا أمير ولا فينا بالصواب مشير، فخشينا الفوضى، ورأينا أن نلجأ إليكم.

- خرج! وماذا عن ابنة أخي السلطانة زبيدة؟

- لقد فرّ «القادر» وتركها فتبعته وابنته راجلين مقدار فرسخين، حتى لحقت بزوجها... أنتم الآن يا مولاي أحق بحكمنا منه.

- ولماذا أنا دون غيري؟ لماذا لم تنتخبوا من بينكم مَن يقوم بأمركم؟ لماذا لم تذهبوا إلىٰ «إشبيلية حيث المُعْتَمِد بن عبَّاد» أو إلىٰ «سرقسطة حيث ابن هود»؟

- في مثل هذه الظروف لن نجتمع على أحد، فالكثير متربصون، ولن يستقر الأمر لأحد فينا، إلا أن يكون ذا جاه وسلطان، وأما من ذكرت فبيننا وبينهم دماء، ناهيك من رضوخهم لعدونا الأكبر! وأنت الأقرب لنا ولأنك لا تدفع جزية لـكلب الروم وإن فعلنا ذلك سنجعل «بَطَلْيُوس، وطُلَيْطِلَة» دولة واحدة وتصير قوة في وجهه.

حكَّ «المُتَوكِّل» ذقنه، وهو ينظر إلى الأرض، وقال بعد نفس عميق:

- لا رغبة لي في حكم «طُلَيْطِلَة».

صمت الرسول، وقد بدت عليه علامات خيبة الأمل، وقطع الصمت صوت الشيخ «أبو الوليد الباجي»:

- ها قد حانتِ الفرصة لأن يعود المسلمون صفًا واحدًا، إن الزمان أشرُّ، والأيام أقصر من أن تُدرَك، فاقبل هذه الأمانة في عنقك.

صمت «المُتَوكِّل» قليلًا بينما الجميع يرقبون كلامه، ثم نهض وتحرك صوب النافذة المطلة على قصره حيث الزروع والثمار، وجال بخاطره ما فعله «الفونسُ» بـ«قورية[1]» والقلاع المحيطة بها، فالتف إليهم، وقال:

- والله، إني لأقبل ذلك كارهًا، فلستُ أطمع في ملك غيري، وجل ما أريده أن أستطيع الوقوف في وجه أذفُنش وأطماعه، ولكي يتحقق ذلك على المسلمين أن يتحدوا كما قلت لذا؛ يا أبا الوليد سأنيبك عني سفيرًا إلى ملوك الطوائف؛ علنا بوحدتنا نسعد بالنصر.

تبسم «الباجي» وقد أبرقت ثناياه كما لو أنه رأى بابًا للفرج:

- بورك فيك، ونعم الرأي رأيك، وما أجمل أن تعيد طلب العون من أمير المرابطين ناصر الدين «أبي يعقوب يوسف بن تاشفين».

وافق «المتوكل» وكتب عنه وزيره «ابن أيمن» هذه الرسالة التي حملها إلى المغرب وكان مما فيها:

«لما كان نور الهدى -أيدك الله- دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام

---

(1) كانت هذه المدينة جزءًا من الأطراف الشمالية لمملكة بطليوس، وهي حصنها على نهر التاجة.

أعز ناصر، وعلى غزو الشوك أقدر قادر، وجب أن تُستدعي لما أعضل من الداء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيفة بها -أهلكهم الله- عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضي بكل نفيسة خطيرة، ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى أيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسرى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا لله ويا للمسلمين!

أيسطو هكذا بالحق الأفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملة النصر؟! ألا ناصر لهذا الدين المهتضم؟ ولا حامي لما استبيح من حمى الحرم! وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك -أيدك الله- بالنازلة في مدينة «قورية» -أعادها الله- وأنها مؤذنة الجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى تخلصت القضية، وتعجلت البلية، وحصلت في يد العدو -قصمه الله- مدينة «سرته» وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع، في الحصانة والامتناع، وما هو إلا نفس خافت، ورمق زاهق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالًا، وتتداركوها ركبانًا رجالًا، وتنفروا نحوها خفافًا وثقالًا.

وما أحرضكم على الجهاد بما في كتاب الله تعالى، فإنكم له أتلى، ولا أحرضكم على التسرع إليه بما في حديث رسوله عليه السلام، فإنكم إلى معرفته أهدى».

***

الفصل الرابع

ما أسوأ وأقبح ما يقومون به! يسرقون الميت والحي! يقبرون رجالًا ويحيون أمواتًا، إنهم يزيفون تاريخنا، ويقتلون أحلامنا، ويريدون بذلك سلبنا حتى مستقبلنا؛ ليأتي جيل يفتخر ويتعلم من كتب يظنها غير عربية، فتهتز ثقته بلغته ودينه ويظن أن لغته لم تكن يومًا لغة علم، ويظن أن الإسلام لم ينجب علماء أضاؤوا العالم بنورهم.

أيسلبك هؤلاء بلادك، ويدعون كذبًا أنك غريب عنها لمجرد دخولك في دين غير دينهم؟! ولماذا لا نقول إن الأندلس بلد الأغلبية فنخرجهم من بيننا؟ ولماذا لا نقول إنها بلاد للوثنيين الرومان، لا للمسلمين، ولا للنصارى بتقديرهم هذا؟ ألم تكن تلك الأرض يومًا وثنية!

(1)

- لم تمر بي أيام مثل هذي الأيام الثقيلة؛ ضيق علينا «المُتَوكِّل» كل شيء!

قالها «بِلاجيوس» شاكيًا لشقيقته وزوجها، وقد تبدلت أحواله فمنذ أن أزيح «القادر» عن الحكم فقدَ كل امتيازاته، حتى عاد يعمل في فرنه، ولكن لم يكن كما كان من قبل، فقد عزف عنه معظم الناس ولم يحبوا التعامل معه.

أسندت «نيفادة» رأسها على راحة يدها:

- يحاول أن يجتذب أنظار العامة، ويجمعهم حوله.

عقب موسىٰ:

- هو يعلم ألا نصير له في «طُلَيْطِلَة» غير العامة، لذا يحاول استرضاءهم.

ثم قام ليصب الشراب في الأكواب، ومن ثم أعطى لبِلاجيوس كوبًا وقال:

- أما الأعيان والسادة فهم منصرفون عنه بعدما حرمهم كل امتيازاتهم، فهم يتربصون به الدوائر ويتمنون زواله، فهؤلاء قوم لا تشغلهم «طُلَيْطِلَة» وإنما تشغلهم فقط أموالهم وتجارتهم.

- ولكن خاب مَن عول على العامة، فهم قصيرى النظر قليلي الخبرة يمنعهم الخوف، ويطمعهم الكرم.

شبكت «نيفادة» ذراعيها ورفعت رأسها:

- ولهذا لن يدوم ملك «المُتَوكِّل» هنا، ولن نسكت على أفعاله، أما أنت يا أخي، فأكمل عملك في الفرن، ولتخفض بعضًا من أسعارك، فهذا ينسي العامة ما صنعت بهم وقت «القادر» والناس عبيد لمن أكرمهم وأعطاهم.

أسند «بِلاجيوس» ذقنه على قبضة يده:

- من أين لي بكل هذه الأموال أنفقها على الرعاع؟

موسىٰ:

- أبشر؛ فقد وعدنا «سِسناندُ» بمكافأة كبيرة فور انتهائنا من نقل بعض المخطوطات والكتب إلىٰ اللاتينية، فما زالت «طُلَيْطِلَة» تضم آلافًا من الكتب العربية القيمة.

- و«الأذفُنش» نفسه مهتم بذلك.

- حتى هذه يا نيفادة صارت صعبة المنال الآن، يقولون ماذا يصنع فران بكل هذه الكتب؟ وأما الملك أذفُنش فقد لا أستطيع مراسلته وقد قتلوا الرجل الذي يوصلنا به.

حدث موسىٰ نفسه:

- تبًا يا زياد! والويل لك ولأصحابك من ملك قشتالة إن علم بقتلكم رجله في طُلَيْطِلَة.

***

(2)

في بيت «جعفر»

كان «زياد» راقدًا في سريره، بينما تجلس والدته جواره وهي تبكي، وتنظر إليه، وتدعو الله له بالشفاء، ودخلت عليها «حفصة» ورفعت يديها على كتفيها بحنان:

- هوني عليك يا أماه، فإنما هو مغشي عليه من الحمى.

- لا أريد أن يفقد حياته في شبابه، كما فقد أبوه من قبل، وكيف سأذوق حياة دونه يا بنيتي؟

اجتهدت «حفصة» في حبس دموعها، ولكنها استسلمت بالنهاية:

- هو بخير يا أماه.

- فلماذا لا يتحدث إليَّ؟

دخلت عليهما «ليلىٰ» معها طبق به ماء وثلج، وقامت بتبديل القربة فوق رأسه:

- لقد أخبرنا الطبيب أنه بخير، وأن جرحه سيندمل قريبًا، فاطمئنا.

صمتن ينظرنَّ إلىٰ وجه «زياد» بينما انسلتِ الدموع من عين «ليلىٰ» دون نحيب أو صوت، وهي تخاطبه بصوت غير مسموع:

- لقد وعدتني ألا تتركني أبدًا فلا تخلف وعدك لي، لقد عاهدتني أن نحيا معًا ونموت معًا، فلا تخلف عهدك يا زياد، فهذا عهد لن أسامحك فيه إن أخلفته، فأي حياة تلك تكون دونك يا حبيبي؟ والله لا أسامحك أبدًا!

وبينما هي تحدث نفسها إذ قالت فاطمة:

- أتحبينه يا ليلىٰ؟

تفاجأت «ليلىٰ» بسؤالها:

- إن لم يكن الحبُ له، فلمَن يكون؟

نظرت «فاطمة» إلى ابنتها وقالت:

- ما زلتِ حانقة عليه؟

انخرطت «حفصة» في البكاء:

- بل أرجو له السلامة يا أماه.

ضربت «فاطمة» فخذيها:

- يا ويلي، اسمع منهن يا زياد، انهض واسمع فلا نستطيع حياة دونك!

هذى «زياد» من تأثير الحمى بكلام غير مفهوم، فحاولن سماع ما يقول غير أنهن لا يستطعن فهم شيء، ثم صمت برهة من الزمن ليفتح بعدها عينيه، فتتبدل ملامح والدته، وهي ترقبه ويقول بصوت خفيض:

- اطمئني يا أماه؛ ما يزال ابنك على قيد الحياة.

ضحكن، ومسحت «فاطمة» دموع عينيها:

- حمدًا لله على سلامتك يا بُني.

طُرق الباب فتحركت «حفصة» مبتهجة وفتحته، فإذ هو أبوها قد أتى، فارتمت في أحضانه وأعطته البُشرى، فما كان منه إلا أن دخل عليه، واقترب قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل. لقد خشيت عليك، وتمنيت لو فديتك بروحي.

ابتسم «زياد» وبنبرة ممتنة تمهل في نطق الكلمات:

- وقد فعلت، ولولاك لكنتُ الآن في عداد الشهداء.

ثم عاد بذاكرته إلىٰ ذلك اليوم الذي خرج فيه مع ثلة من شباب المجاهدين تطوعوا للحد من عدوان «الفونسُ» على أراضيهم، وقرروا أن يكون الهجوم من ناحية مستبعدة، حينها استطاعوا الوصول لحصن «غُرْمَاجُ» الذي لم يكن له عند اكتمال تشييده نظير في القارة الأوروبية وهو قريب من «برغش» عاصمة قشتالة مستغلين غيابه عنها، وشنوا غارات من هناك، ولكن «لُذْرِيق» علمَ بأمرهم، فخرج إليهم، وامتلأ ذراعه بدماء المسلمين، وأخذ الحصن، وفر «زياد» مع من تبقى من أصحابه متشرذمين، ولم يكتف «لُذْرِيق» بهزيمتهم بل تتبعهم مخترقًا حدود «طُلَيْطِلَة» وقام بغارات طائشة على الأهالي، ونهب وأخذ آلاف الأسرى، ثم رجع هو وقوته بغنائم عظيمة يتباهى بِمَا حَقَّقَهُ من انْتِصارٍ. وبينما «زياد» قد فر من الموت بأعجوبة، ودخل الأدغال وحده و«الورهاء» تعدو به في طريق من الأشجار السامقة، عاجله أحدهم بسهم أصاب كتفه، فسقط من فوقها، وأراد إخراج السهم من كتفه، فخرج له رامي السهم وهو الجاسوس القشتالي الذي كان يعلم مراقبته له وشرع سيفه:

- لقد حانت نهايتك أيها العربي الحقير!

وقبل أن يهوي به على عنق «زياد» شق سهمٌ صدر الجاسوس، فطُرح أرضًا، وتقدم «جعفر» وطعن الجاسوس في قلبه، ثم حمل «زياد» وقد زاد نزفه حتى وصل به إلىٰ الدار.

- هيه، أين ذهبت بمخيلتك؟

قالها «جعفر» بينما ابتسم له زياد الذي شعر دومًا أنه ملاك أرسله الله لحفظه:

- إلىٰ ذلك اليوم الذي أنقذتني فيه.

اتكأ «جعفر» على طرف السرير، وقال بنبرة آمرة:

- لن تخرج مرة أخرى بمفردك، وإلا أعتبر ذلك عدم وثوق بي.

- العفو منك، لا تقل ذلك يا أبتاه.

وكان من النادر أن يناديه بها.

***

(3)

سفارة الباجي الثانية

لم تكن المرة الأولى التي يحضر فيها القاضي «أبو الوليد الباجي» إلىٰ «إشبيلية» ولكن هذه المرة برسالة من أمير «بَطَلْيُوس» «عُمر بن الأفطس» وكان يأمل في تحرك «المُعْتَمِد» لنجدة «طُلَيْطِلَة» ويعول عليه الكثير، وينقم عليه في ذاتِ الوقت انشغاله بملذاته عنها، وقد شاع بين كل ممالك الأندلس ما يفعله سواء مع جاريته «الروميكية» وإهداره أموال المسلمين عليها، أو في خمره وشهواته وقصر نظره عن العدو الغاشم، فناشده العون قائلًا:

- طُلَيْطِلَة أيها الأمير! طُلَيْطِلَة يكاد العدو أن يحول مساجدها كنائس، ويسبي نساءها ويقتل رجالها، فكيف تطيب لنا الحياة هنا وإخوتنا داخلها يتضورن جوعًا ويتخطفهم العدو؟ وأنت مَن أنت، أقوى ملوك الأندلس، وأوسعهم ملكًا فقد حق عليك نصرتها، وإن فعلت سيقتدي بك باقي الملوك، ويتشجع أهل المدينة، وإن لم تفعل ستكون مسبة الدهر، ووالله لئن سقطت لينفرطن عقد الأندلس كلها، فالغوث، الغوث يا أمير إشبيلية.

رحب به «المُعْتَمِد» وكان يحفظ له مكانته، وقال:

- لكن، لا طاقة لنا بـ«أذفُنش» أيها القاضي.

- أنت أكبر ملوك الأندلس الآن، فإن أنت قلت ذلك، فماذا يفعل من هم دونك؟!

- هل ذهبت إلىٰ صاحب «غَرْنَاطَة» وصاحب «سرقسطة» وباقي الملوك؟
- إن نهضت أنت فسينهضون خلفك، ولم يكن لهم أعذار واهية، والله إن سقطت طُلَيْطِلَة ليأخذن اللعين ما تبقى من الأندلس، ولن يقف عند أحد!

لم يسمع «المُعْتَمِد» للباجي ولا لغيره من شيوخ المسلمين، ولما قال له:

- افعل كأمير «بَطَلْيُوس».
- إنه أمير أهوج يظن نفسه بطلًا بشن غارة أو غارتين يقوم بها تجاههم! إنه يُمهِّد لمملكته طريقًا إلى الهاوية... أما نحن فقد اشترينا صداقة الأذفنش، وابتعدنا بمملكتنا عن أطماعه.

***

(4)

كان «الفونسُ» يجلس في إيوانه مرتديًا عباءة من صوف أحمر قرمزي يعلوها فراء ناعم، وبدأ عقده الرابع ونضجت ملامحه وصارت أكثر قسوة وغلظة، وبالقرب منه «أُرَّاكة» عندما دخل الكونت «ابن أُردُنيو» مندفعًا يقول:

- «رُوي» يهاجم دون إذن منك للمرة الثانية!

اعتدل «الفونسُ» مكانه، ورفع يديه بمحاذاة أذنيه، فتابع «ابن أُردُنيو»:

- هاجم أطراف «طُلَيْطِلَة» وعاد بغنائم وآلاف الأسرى.

تميز «الفونسُ» غضبًا:

- اللعنة عليك يا رُوي! تجاوزتُ عن أخطائك، ولكنك تتمادى.
- سيدي، لم أشأ إخبارك أنه يخفي أموالًا كثيرة وهدايا عظيمة جلبها من «المُعْتَمِد» وعندما واجهته بالأمر قال: إنما أهدي لي.
- ومنذ متى تقدم الهدايا للرسل؟
- لا بُدَّ أنه يدبر لأمر ما مع ملك إشبيلية يا سيدي!

«أُرَّاكة» بهدوء وتأني:

- وما الضير في أن يهاجم أراضي «طُلَيْطِلَة»؟ هذا يُفيد لا يضر، يجب علينا ألا نتسرع في الحكم على الرجل، فما زال هناك وقت أمامه، ومَن يدري فلعله يقدم الهدايا والأموال لمولانا الملك.

هب «الفونسُ» من كرسيه، وقال بصوت مرتفع:

- إن كان كما تقولين، فلمَ لم يقدمها إلىٰ اليوم مع ما قدمه من أموال؟ لا أرى إلا أنه لم يخلص لي يومًا!

أغمض «الفونسُ» عينيه بشدة، وكأنه يسترجع الذكريات والتفاصيل التي جمعته بـ «لُذْرِيق»، لا سيَّما محاولاته في استمالته إليه، حين زوجه من ابنة خاله النبيلة «شيمانة[1]» وجعل «ابن أردُنيو» يشهد على زواجهما، على أمل أن ينصهر مع نبلاء «ليون» وتنتهي العداوات، ولتأكيد الصلح، دعاه بعد زواجه مباشرة لمرافقته في الحج إلى كنيسة «القديس المخلص[2]» ولم يصطحب معه من كبار شخصيات «برغش» إلا المطران و«لُذْرِيق» وبقيا معًا عدة أشهر، وعندما عادا إلى «برغش» أصدر «الفونسُ» أمرًا بإعفاء «لُذْرِيق» ثم حلفائه من بعده من أي ضرائب أو غرائم تجبى حاليًا أو تفرض مستقبلًا، فتح عينه، وصاح بصوت عالٍ:

- لن يفلح معه شيء!

ابتسم «ابن أُردُنيو» ابتسامة خبيثة بعد أن شعر أنه قد بلغ مراده من تأليب الملك على رجل يغار منه، فقد كان يرى أن «القمبيطور» هو منافسه في بلاط «قشتالة» وهو الرجل القوي الذي يجب أن يتم التخلص منه، وقد لاقى ذلك هوى في نفس «الفونسُ» الذي لم ينس أنه هزمه يومًا، وتسبب في ضياع ملكه وإذلاله، ومهما كانت قدرات وعبقرية «القمبيطور» فإن حقد «الفونسُ» جعله لا ينظر له كقائد قوي ولكن كرجل هزمه، والنفوس تأبى أن تحب مَن تفوق عليها يومًا ولو كان المهزوم رجلًا عاديًا، فكيف به ملكًا، ولكنه لم يرد أن يتخلص منه دون سبب قوي أمام الشعب القشتالي، وأمام البلاط حتى لا يقول قائل: إن الملك ينتقم لما كان في السابق!

---

(1) حفيدة «الفونس الخامس».

(2) San Salvador, Oviedo, Asturias أجل مكان مسيحي في إسبانيا بعد كنيسة القديس يعقوب.

الفونسُ موجهًا كلامه إلىٰ «ابن أُردُنيو»:

- أرسل إليه يأتيني في «برغش».

***

- أنت تملأ أذنيك بقول الكونت ولم تتثبت بعد.

نظر إليها «الفونسُ» نظرة غضب متوحشة، وقال بلهجة مهددة وهو يضغط على كلماته:

- آن لكِ أن تعودي لخدمة الأديرة والكنائس، لا أرغب بسماع أيّ نصحٍ منكِ!

هرولت «أُرَّاكة» من أمامه مخزية، تخشى أن يلاحظها أحد، وقلبها يكاد ينخلع رعبًا، فدخل عليه بعدها الراهب الفرنسي «هيو[1]» الذي يتمتع بنفوذ قوي وسمعة شخصية لديهم كالحكمة والقداسة والإقناع، وقد كان يُكثر من زيارة «فِرْنَانْدُ» وكذا فعل مع «الفونسُ» وما إن دخل حتى قال:

- لقد تأخرت في هذا القرار.

- أريد أن أغسل ذنبي منها أيها الأب المبجل.

- عليك بقصد الكنائس الفاضلة والتعبد؛ كل الذنوب تغتفر لا تبتأس، ولكن المملكة بحاجة إلىٰ ملكة تدعمك وتساندك.

- أشر عليَّ.

- أزوجك «كونستانزة» ابنة أختي هي الآن أرملة توفي زوجها بعدما عاشت معه أربعة عشر عامًا ولم تنجب منه.

فكر «الفونسُ» أن يرفض مثل تلك الزيجة المدبرة، ولكنه استدرك أمرًا أنَّ بهذا الزواجِ سيكسب دعم «فرنسا» في مشروعه، ومن ورائها البابا في روما لصلته الوطيدة بـ «هيو»، شعر الأخير بما يدور في خلده من تقاسيم وجهه فقال:

- سأطلب من البابا أن يبارك زواجكما!

***

(1) Hugo de Cluny الراهب الفرنسي كبير رهبان دير Cluny.

(5)

رسالة الراهب

استمر انطلاق «الباجي» ومعه جمهرة من علماء الأندلس يحملون رسالة بوجوب الوحدة، ومجابهة قشتالة، ومحذرين من عواقب التفرق والتشرزم، يطوف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحًا منذرًا، ويهيب بباقي ملوك الأندلس وشعوبها، أن يبادروا إلىٰ نجدة «طُلَيْطِلَة» والثغور مؤكدًا لهم أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الأندلس كلها، واحدة بعد الأخرى.

وبينما هو في «قصر الجعفرية بسرقسطة» وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذي زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة، يخاطب ملكها، إذ وصل رسولان من الراهب «هيو» يحملان رسالة إلى «المقتدر بالله بن هود» فتناولها الأخير وهو يعجب منهما، ولما فضها إذ بها مكتوبة بالعربية، فشرع في قراءتها وكان مما فيها:

«إلى الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلًا مدانيًا، «المقتدر بالله» على دولة هذه الدنيا، الملك الشريف، من الراهب أحقر الرهبان، الراغب في الإنابة والإيمان بالمسيح يسوع، ابن الله سيدنا!

لما انتهى إلينا أيها الأمير العزيز! أمرُك الرفيع في الدنيا وبصيرتك في تبيين أحوالها المتغيرة، رأينا أن نراسلك وندعوك، لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني.

وقد كان فيما سلف من ذنوب إبليس وتضليله للعباد ما يلقيه العذاب الأليم يوم القيامة من الله سيدنا يسوع المسيح، وقد ضاعف تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الأمم العظيمة. فاعتبر -أيها الملك الشريف-، ولا تؤثر شيئًا على نجاة نفسك يوم الحكم والجزاء، فإنا مخلصون في خدمة أمورك، ومسارعون إلى تفديتك بنفوسنا.

وإن لم يظهر لك -يا أيها الحبيب- مراجعتنا بجوابك على ما تضمنه كتابك لآفات الكتب، فأودع ذلك إخواننا هؤلاء وأطلعهم على سرك، وما يتمثل في نفسك، ونحن نضرع إلى سيدنا يسوع المسيح أن يتولى رعايتك، ويتكفل سلامتك، ويهديك إلى دينه المقدس، ويسعدنا بالإيمان الصحيح به آمين».

اندفع الدم إلى رأس «المقتدر»، وتصبب بدنه عرقًا، وقُبضت يداه بشكل تلقائي، ولم يستطع قولًا، بل أشار لهما برفق وكياسة كي يخرجا، ثم أعطى الرسالة للشيخ، فهبَّ مستنكرًا:

- يدعوك للنصرانية! والانسلاخ من الإسلام!

صاح المقتدر:

- يا له من تبجح! كيف يجرؤ وأنا ملك للمسلمين؟ يا شيخنا، دبج إليه جوابًا.

- فليرض عنك الله، سنجيبه، ونطرق الحجة بالحجة، وليعد الداعي مدعوًا بإذن الله.

مسح «المقتدر» وجهه بيده، وحاول استعادة هدوئه:

- الرسالة كُتبت بخطٍ عربي، فيا تُرى مَن صاغها لهذا الراهب الفرنجي؟

- من المؤكد أنه استعان بمستعربين كأمثال «سسناندُ» وغيره، وهم في قشتالة كثر.

استدعى «المقتدر» الكاتب، وبدأ «الباجي» بإملائه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم، العزة لله، والصلاة على رسوله.. تصفحت أيها الراهب الكتاب الوارد من قبلك، وما متت به من مودتك، وأظهرته من نصيحتك، وأبديته من طويتك، فقبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملتك، واتصل بنا من جميل إرادتك، ونبهتنا لعمر الله بنصيحتك، على ما يلزمنا من ذلك لك، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك، وتعذر وصول كتابنا إليك لكنا أحرياء أن نأتي من ذلك ما يلزم، ونسلك منه السبيل الأوجب، ولكنت -عندنا- جديرًا بعرض الحق عليك وإيصاله إليك، فقد قرر لدينا من وصل من رسلك، وأهل ملتك ما تظهره من حرصك على الخير، ورغبتك في الحق، مما قوى رجاءنا في قبولك له، وإقبالك عليه، وأخذك عليه، وأخذك به، وإنابتك إليه..».

فاستوقفه «المقتدر» قائلًا:

- ألنتَ له القول!

أوضح «الباجي» طموحه السديد:

- هذا لأنه لن يكون مجرد جواب، بل دعوة إلى الله تعالى، وطريق الاعتدال أرشد إلى ذلك؛ ولنعرف راهب فرنسا وكبير رجالات الكنيسة بمحاسن الإسلام، وما عليه النصرانية من مجافاة للعقل والمنطق، فضلًا عن مصادمتها للفطرة السليمة بأسلوب قويم حكيم.

ثم أعاد يملي على الكاتب ويفند الجواب نقطة نقطة، إلى أن وصل إلى النهاية، وقال:

«ولو وددنا أن تصير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك، ونتمكن من تفهيمك، ونبين لك من تحقيق الكلام وتحريره، وتفصيله وتوجيهه، وترتيب الأدلة ومقتضاها، وإحكام البراهين ومنتهاها، ما يزيل كل سخيفة من نفسك، ويطهر من دنسها قلبك، فتعاين الحق جليًا واضحًا، والدين قويًا لائحًا... والله نسأل أن يهديك ويهدي بك من قبلك فتفوز بأجورهم، وتكون سببًا إلى استنقاذهم، فأنت فيما بلغنا مطاع فيهم. والسلام على من اتبع الهدى».

***

(6)

في ضوء الشموع الخافتة، والبرد القارس الذي يحاصر كل شيء في «قونقة» جلس «القادر» متدثرًا بثياب ثقيلة في أحد أركان القصر، والتزم الصمت والسكون حتى كأنه قُد من حجر، وقد ركز بصره على ضوء إحدى الشموع ينظر إليها وهي تحترق، حتى إذا انتهتِ الشمعة، وأظلم المكان، دخلت «عجب» مستنكرة الظلام الحالك فتحسستِ المكان، وقالت:

- لماذا كل هذا الظلام يا سيدي؟

ولكنه لم يتحدث، بل انغمس في شرابه، وهو يلعن «طُلَيْطِلَة» وشعبها و«ابن الأفطس» ورجاله، وانكفأ يتذكر ما كان من أمره، ويتعجب للعامة كيف تجرؤوا عليه؟ وهو من هو!

أشعلت شمعة جديدة أعادتِ الضياء، ثم اقتربت منه، رفع بصره إليها متنهدًا:

- لم يعد هناك فرقٌ بين النور والظلام والليل والنهار، فقد فقدت كل معاني الحياة مذ فارقت «طُلَيْطِلَة» وعلمت أن غيري يجلس في مكاني، وكيف الحياة يا عجب إذ فقدنا ما كنا فيه وما نحب ونهوى؟ وأين «قونقة» من «طُلَيْطِلَة»؟

أسند رأسه للوراء وأغمض عينه، فركعت أمامه تتوسل إليه:

- كف عما تفعل، وجِد لاستعادة عرشك ومملكتك.

رفع جفنيه المثقلين:

- دعيني يا عجب، فلا سبيل إلىٰ ما ذهب، هأنذا أكاتب «أذفُنش» منذ فترة ولا أراه يحرك ساكنًا غَيْرُ عَابِئٍ بأمري، وقد ضاقت بي الدنيا، وانفض عني من كنت أظنهم رجالي.

- إنهم ليسوا رجالك يا سيدي، ولكنهم عبيد لمن ملك وأعطى، فلما انقطعت أعطياتك عنهم، انفضوا من حولك.

- آهٍ لو عاد بي الزمان، لبطشت بهم بطشة جبار عنيد!

تحركت وملأت كأسًا من الخمر، ثم ناولته فأمسكها وشرب منها ثم قالت له:

- عاود الإرسال لـ«أذفُنش»، وإن شئت فلتذهب إلىٰ «برغش» فيكن التفاوض بينكم عيانًا، فتعلم ما يريده، وبهذا تقطع شوطًا كبيرًا بدلًا من إرسال الرسل، وانتظار ردهم.

- أذهب إليه!

اقتربت منه فاشتمّ عبير أنفاسها:

- أجل يا سيدي، فوالله لن ينصرك غيره، ولن تعود ملكًا إلا بجنده، وذهابك إليه خير مِن بقائك هنا، وبقاء «ابن الأفطس» جالسًا مكانك.

***

(7)

المنفيُّ

علم «لُذْرِيق» أن «الفونسُ» لن يتلطف معه هذه المرة، وعندما التقيا، صعد إليه وكان سيقبل يده، لكنه لم يسمح بذلك، وقال بغضب:

- اترك أرضي... اخرج من مملكتي حالًا!

- أعطني ثلاثين يومًا، وهذا حقي كفارس.

- أمامك تسعة أيام إن مضوا سأجدك حيثما كنت، وأخرج إليك بنفسي.

تراجع «لُذْرِيق» حتى غادر القاعة، بينما ظهرت ابتسامة سمجة على شفتي الكونت «ابن أُردُنيو» وكان هذا اليوم أسعد أيامه، وقال:

- شكاوى أتباعنا في «طُلَيْطِلَة» لا تنقطع، وكذلك رسل «القادر».

كان «الفونسُ» يعلم أنها لن تكون الأخيرة، ولم يظهر الاهتمام برسالة «القادر» بل أراد أن يستغل ما يحدث بأفضل ما يكون:

- قل لرسوله: ارجع إلىٰ سيدك، وقل له إن كان يريد شيئًا، فليأت ويطلبه بنفسه، أم تراه يظن نفسه ملكًا حقًا؟

تعجب «ابن أنسور»:

- ولمَ نستدعيه؟

- يجب أن يعلم هؤلاء أنهم خدمٌ لي، ولا يحق للخادم أن يراسل سيده، فالرسل تكون بين الملوك، لا بين الملك ومواليه.

- هل ستقدم له عونًا يا سيدي؟

ردَّ «الفونسُ» بسؤال آخر:

- ما رأيك أنت يا غرسية؟

- أرى أن نتركه و«ابن الأفطس» يصارع بعضهم بعضًا، ويهلك بعضهم بعضًا، حتى إذا هلك أحدهما هان علينا أمر الآخر.

نظر «الفونسُ» إليه، ثم ارتد ببصره صوب «ابن أنسور» الذي قال:

- وأنا أَيْضًا أؤيد قول الكونت.

- ذلك لأنكم لا تعرفون «القادر»! فهو جبان مهزوم لن يقاتل بنفسه أبدًا، فإن لم ننصره، تمكن «ابن الأفطس» من «طُلَيْطِلَة» وجمعها مع «بَطَلْيُوس» وصار له شأن آخر، وهو رجل داهية لن يخضع لنا، وبذلك نخلق لأنفسنا عدوًا حقيقيًا يقف في وجهنا، أما إذا ساعدنا هذا البائس وجعلناه حاكم دُمية سهل لنا المراد، لنستعد الآن لاستقبال زوجتي الجديدة، ثمَّ لنجعل «ابن الأفطس» هذا يندم أشدَّ الندم على دخوله «طُلَيْطِلَة».

***

ذهب «لُذْرِيق» إلى «بيفار» مسقط رأسه وهي قرية فقيرة معدمة مظاهر البهجة، عرف من استقر بها مرارة العيش والحرمان، وبعث إلى جميع أصدقائه وأقاربه وأتباعه، وجمعهم قائلًا:

- إن الفونسُ طردني، فهل منكم من يتبعني؟

أجاب ابن عمه «البار بن هان» وكان كذراعه اليمنى:

- سنذهب معك جميعًا أينما حللت، ولن نفشل أبدًا، ولن نخفر لك عهدًا، سنسير معك في البدو وفي الحضر، خذ كل ما لدينا من بغال، وخيول، وأموال، وثياب إن شئت، وسنبقى لك أوفياء وأتباع مخلصين مدى الحياة.

اتفق الآخرون على ما قاله «البار» وشكرهم «لُذْرِيق»:

- إن الفلك يدور، وإن الأيام تحول وسيأتي وقت أكافئكم فيه.

ثم استدار ونادى البار:

- يا بن العم، إن الفقراء المساكين لم يكن لهم يد فيما رَزَأنا به الملك، انظر لا بأس بهم... فاعمل على ألا يصاب أحد منهم بسوء في أثناء الطريق... أيها الأصدقاء إننا سنعود بمشيئة الله إلى قشتالة متوجين بالشرف، فائزين بالغنم الكثير.

تجمع حوله عصابة من الفلاحين عليهم ثياب رثة من صوف خشن، ويحملون أشواكًا وفؤوسًا وأدوات حراثة كأنها أسلحة، وخرجوا جميعًا

متفائلين برؤية غراب طار على يمينهم، ودخل «لُذْرِيق» «برغش» ومعه ستين لافتة، في جو الرطوبة والمطر والأوحال.

فهرع الرجال والنساء لمشاهدته عن بعد وهم حذرون، وأطل كثير باكين من وراء نوافذ بيوتهم قاتمة الجبين عند مروره، وقال بعضهم:

- ما أحسن التابع إذا كان هناك سيد صالح!

وعندما وجد الطرق خالية، وكأن المدينة فُرغت من أهلها، ذهب إلى الخان الذي كان ينزل به، فرأى صاحب الخان قد أسرع بإغلاق بابه خوفًا من الملك، وعندما صاح رجاله ليفتح الباب لم يجبهم أحد، فقرب «لُذْرِيق» من الخان، وخلع قدمه من الرِكاب، وضرب الباب بها فلم يفتح؛ وجده وثيق الغَلَق محكمًا من الداخل! وعندئذ خرجت فتاة صغيرة في التاسعة من إحدى الدور، وقالت:

- لقد منعنا الملك أن نستقبلك، ولا نجرؤ على فتح الأبواب لك؛ ولو فعلنا لفقدنا دورنا، وأموالنا، وأعيننا التي في رؤوسنا.

حزن أشد الحزن؛ فبعد أن كان فارسًا للجيش القشتالي ومستشارًا للملك، أصبح مجرد رجل عاد دون مأوى، ثم امتطى جواده، ولوى عنانه، وخرج من البلدة، ولما داهمه الليل، نصب خيمته على الرمال، وهتف بهم:

- سنرتاح هنا الليلة، وغدًا سنرحل.

وأقام «لُذْرِيق» بين أنصاره وصحبه كما لو كان مقيمًا بين الجبال التي خلت من دبيب الحياة، فقرب منه «البار» وقال:

- الملك أمر بعدم بيع الطعام لنا؛ لكنني سأجد طريقة ما وأحضر الخبز والنبيذ؛ ومهما يكن الأمر، فأنا لا أهتم بأي شيء أتركه ورائي.

- أنت شجاع؛ ولكن علينا أن ندبر مالًا لأجل هؤلاء الرجال، وكما ترى أنا فارغ اليدين.

صمت «البار» يفكر، بينما قال «لُذْرِيق»:

- في السوق خان «داوود» وزوجته «راحيل» إنهما يهوديان ثريان اعتدتُ على إحضار غنائمي لهما، فيدفعان ثمنها، اذهب إليهما سرًا، واطلب منهما أن يأتيا إليَّ على انفراد، وقل لهم إنني لا أستطيع أن أحمل

كنوزي معي بسبب وزنها، ولكني أرغب في رهنها مقابل مبلغ بسيط من المال.

ذهب «البار» إليهما، وأخذهما إلى غرفة؛ فلا يراهما أحد، وقال:

- تعهدا بعدم الكشف عما سأقوله لمسلم كان أو لمسيحي، وسأجعلكما أثرياء إلى الأبد... لدى «القمبيطور» صندوقان مليئان بالذهب، ولكن بما إن الملك غاضب منه، لا يستطيع أن يأخذهما بعيدًا دون أن يُكشف أمره.

تشاورت «راحيل» مع زوجها، وأجابت:

- نعلم أن لديه ثروات وغنائم من العرب، سنحتفظ بصناديقه، ولكن كم من المال يريد منا، وما الفائدة التي سيدفعها؟

- إنه يحتاج إلى ستمئة دينار، ستمئة لا غير، فالجواهر والكنوز في الصندوق تساوي أضعاف أضعاف هذه القيمة.

وافقا، وأخذوا الخيل وركبوها، ولم يعبروا الجسر، بل اجتازوا الجداول والصخور، حتى لا يراهم أحد، وجاءوا إلى خيمة «لُذْرِيق».

في هذه الأثناء، أخذ «لُذْرِيق» صندوقين وملأهما رملًا وحجارة، وغطاهما بجلد أحمر ذهبي وربطهما بالحديد وثبت كل منهما بثلاثة أقفال. ولما دخلت «راحيل» وزوجها خيمته، قبلا يده، وابتسم لهما:

- لدي شيء أتركه معكما، فهل توافقان على إقراضي المال، وعدم فتح الصناديق لمدة سنة.

- أجل، على أن تعود لنا بغنائم جديدة.

- حسنًا، خذاها الآن، ولتسرعا؛ سأغادر قريبًا.

فحملا الصناديق، ووجداها ثقيلة جدًا لدرجة أنهما لم يتمكنا من رفعها، وكانا سعيدين جدًا بصفقتهما، لكن «البار» ورجاله ساعدوهما، وذهب معهما إلى منزلهما، حيث وضعوا الصناديق في أمان، وأعطوه الذهب والفضة، وحمل هذه النقود خمسة من رجاله. وعندما ذهبوا، قال «البار» لليهوديين وقد اختضَبَ بالمَكْر:

- تعلمان أنني حصلت على هذه الصناديق من أجلكما.

فقالت «راحيل» لزوجها:

- لنمنحه هدية صالحة لما فعله.

فأعطوه صرة أخرى، فشكرهم، وانطلق بعيدًا وعلى وجهه سعادة المُرَاوِغ، وعندما عاد إلى المعسكر، أخذوا خيولهم، وانطلقت العصابة كلها، باستثناء «لُذْرِيق» الذي قال:

- سأتبعكم لاحقًا، يجب أن أرى زوجتي أولًا.

***

(8)

خرجتِ الشمس على بوابتها تنشر دفئًا وضياءً، وغردتِ الطيور فوق الأشجار الباسقة لتنشد لحنًا من الأمل، وتناغم ذلك مع ما سرى في الشعب الطليطلي من روح جديدة دبت في أوصالهم، واستشرقوا عهدًا جديدًا، فأخيرًا وبعد عقود ومنذ انفراط عقد الخلافة والدولة «العامرية» لم تر فيها إلا شرًا مستطيرًا، عداوات دائمة مع المسلمين حولهم ونزاعات بلا طائل مرة مع «سرقسطة حيث ابن هود» ومرات مع «إشبيلية حيث ابن عبَّاد» بدأوا يستشعرون الأمان، ويستبدلون خوفهم أمنًا، وأضحى على رأس كل زقاق، وشارع، وفي كل ميدان ومكان، حتى في البساتين والمزارع، وبين الرجل وزوجه الحديث عن مستقبل «طُلَيْطِلَة» الحبيبة، كيف ينمونها ويحافظون عليها، ويزيلون أثر خنوعهم لملوك قشتالة ويعودون أسياد بلادهم كما كانوا؟ وكيف يضربون على يد الخونة؟ وكيف تكون علاقاتهم المستقبلية بإخوانهم من باقي ممالك الأندلس، وتنوعت أقوالهم:

- يجب أن نتحالف مع ممالك الأندلس ضد قشتالة.

- يجب أن نبني جيشًا قويًا يحمينا.

- بل يجب أولًا أن ننمي ثروات طُلَيْطِلَة ولا نفرط فيها.

وتعالتِ الأصوات بوجوب الخروج من سيطرة «قشتالة» وتوجيهاتها، فلا يجب أن تكون قشتالة حاضرة في أمورهم، ومَن ينسى أنها تغذي المشكلات بين «طُلَيْطِلَة» وجيرانها، ثم تستفيد من ذلك بالأموال والبلدان؟ ولم ينسوا أن

قشتالة فقيرة بمواردها ضعيفة لو اتحد المسلمون، قوية بأموالهم وتطاحنهم فيما بينهم، وقد أدرك ملوك قشتالة أن بقاءهم مرهون بهذا، وأن وحدة المسلمين تعني فناءهم، وقد خرجوا من قمقمهم الذي أدخلهم فيه «الحاجب المنصور، والناصر» من قبله، واستأسدوا إما بالسيطرة على أراضيهم أو إرهاق كاهلهم بدفع الجزية والإتاوات.

وفي بيت «جعفر القماش» كان البشر والسرور باديًا على الجميع، فأخيرًا ترك «زياد» الفراش، وخرج من البيت بعد فترة كبيرة قضاها أسيرًا لجراحه التي تعرض لها، وما إنْ خرج من البيت حتى راح ينظر في المدينة هنا وهناك، فيرى وجوه الناس مشرقة مستبشرة وقد ذهب عنها العبوس أخيرًا، وساد الرضا بين الجميع، فقد شعر أهل «طُلَيْطِلَة» أنها صارت لهم أخيرًا، وأن في قصورها رجلًا يعمل لصالحهم ويدافع عنهم، لا يجمع الأموال منهم إلا لينفقها عليهم، ليس ليقدمها قربانًا لقشتالة أو لأهوائه ونزواته، اعتلت وجه «زياد» فرحة غامرة، وراح يتنسم روح الحياة الكريمة، ثم اخترق الدروب والأزقة قاصدًا السوق، وما إنْ وصل حتى اقترب منه بعض جيرانه يتهافتون للسلام عليه وتهنئته بعودته سالمًا، وأول من استقبله في الدكان «جعفر» الذي قدِم إليه، وسحبه من بين أيديهم، وأدخله إلى حيث دكة، وما لبث أن عاد حاملًا بعضًا من الفطائر الساخنة، وجلس جانبه قائلًا:

- لقد اشتقتِ إلىٰ مطاعمتك ها هنا.

نظر «زياد» مبتسمًا إلىٰ الفطائر ذاتِ الرائحة الذكية التي أسالت لعابه، وأغرت شهيته، فقطع بيده قطعة منها وراح يأكل ويقول:

- كيف حال المدينة يا أبا حفصة؟

انفرجت أسارير جعفر:

- لقد تبدل الحال كثيرًا خلال تلك الأيام القليلة، فالبشر سائدٌ كما ترى والجميع يتحدث بلا خوف أو قلق، ولكن ما زال الاضطراب يسود الأحياء، فلم يستطع «ابن الأفطس» إلىٰ الآن أن يحكم قبضته على البلاد، فتحرك بذلك أصحاب الأهواء وبعض الأشقياء مستفيدين من ذلك، فنهبوا، وسرقوا، وأشاعوا بعضًا من الفوضى مما جعل بعض

الدهماء يقولون: لم نر خيرًا بعد آل «ذي النُّون». وراحوا يتذكرون منهم ما ليس فيهم!

ضحك ساخرًا وأعقب:

- بل إنهم تمنوا بقاء «القادر» وعودته رغم ما فعل فيهم.

تمعر وجه «زياد» قليلًا:

- سرعان ما نسوا! ولكن قل لي، هل كل أهل طُلَيْطِلَة على هذا المنوال؟

- لا، ليسوا جميعًا.

- ممم، وماذا عن المعاهدين؟

كتم «جعفر» ضحكة كادت أن تخرج من فمه:

- لا نسمع لهم صوتًا، فهم كما تعلم يظهرون عكس ما يبطنون، غير إني على يقين أنهم لا يريدون «آل الأفطس» ولا يريدون أن تنهض «طُلَيْطِلَة» بهم.

رفع «زياد» يده عن الطعام، وحمد الله، وقال:

- صدقت، فهؤلاء قناعتهم أن «طُلَيْطِلَة» بل وكل الأندلس بلادهم وحدهم وأننا غرباء عنها، وأنها يجب أن تعود قوطية كما كانت قبل دخول «طارق».

نهض وتحرك صوب باب الدكان وقال:

- تلك أمانيهم وأكاذيبهم!

- لكن ألا ترى أن في كلامهم بعض الصدق؟

التف إليه «زياد» غاضبًا:

- أي صدق في بهتان كهذا؟!

تحرج «جعفر» بعض الشيء:

- أقصد أن هذه البلاد فعلًا كانت نصرانية قبل دخول العرب.

عاد «زياد» وجلس جانبه:

- ولكنك لست من جنس العرب، وجل المسلمين في «طُلَيْطِلَة» بل وأكثر أهل الأندلس ليسوا من العرب أو حتى البربر القادمين مع «طارق»،

فقد أسلم أجدادهم، ودخلوا في دين الله أفواجًا، أيسلبك هؤلاء بلادك، ويدعون كذبًا أنك غريب عنها لمجرد دخولك في دين غير دينهم؟! ولماذا لا نقول إن الأندلس بلد الأغلبية فنخرجهم من بيننا؟ ولماذا لا نقول إنها بلاد للوثنيين الرومان، لا للمسلمين، ولا للنصارى بتقديرهم هذا؟ ألم تكن تلك الأرض يومًا وثنية!

استراح «جعفر» وبدا عليه الاقتناع:

- بلىٰ والله.
- إنهم يرددون كلام «فِرْنَانْدُ الأول» الملك الهالك ومن بعده «الأذفُنش».
- ولكن ما الذي يستفيدونه من تلك الدعوات؟
- أن يزحزحوا عقيدتنا بتلك البلاد، فيقع في روعنا أننا ندافع عمَّا لا نملك، فتضعف أرواحنا، وتخور قوتنا وتنهار عزيمتنا، فننهزم عند أول لقاء لنا معهم أو ندخل في دينهم أو يصل ببعضنا الأمر أنه يدافع عن باطل إن هو دافع عن الأندلس، وتلك والله، القاضية فأول الهزيمة زحزحة الحق بداخلك أو مخالطة الباطل للحق.

كان «جعفر» يسأله ويستمع لإجاباته فيتعلم منه كأن «زياد» أستاذه وليس ابنه الذي رباه:

- يا لهول ما ذكرت إن كان حقيقة!
- بل هو يقين، ألم تر أننا تركنا لهم كنائسهم زمن تفوقنا عليهم، بل في عز دولتنا زمن «الناصر، والمنصور» ولم نتعرض للمعاهدين بأذى، ولم نهدم لهم كنيسة أو نجبرهم على ديننا، أما هم فانظر إلىٰ «مدينة سالم» ماذا فعلوا بها؟ لقد أحرقوا مساجدها، ولم يبقوا فيها للمسلمين أثرًا.

***

(9)

دخل الوزير «ابن عبدون» على «المُتَوَكِّل» وهو في قصر «ابن ذي النُّون» بطُلَيْطِلَة والفزع ظاهر على وجهه، وخلفه اثنين من العساكر، وهما ممسكان برجل ذي شعر أشقر، وهيئة مهلهلة، وعيون زرقاء، وملابس غريبة، وتفوح

من جسده رائحة نتنة مما يدل على كونه غريبًا عن الديار، وما إنْ دخل على «المُتَوكِّل» حتى قال لوزيره:

- مَن هذا يا بن عبدون؟

- روميٌ أمسك به رجالنا عند بوابة الشمس، وهو يتحرك بشكل مريب، وعندما قاموا بتفتيشه وجدوا معه تلك الكتب.

تقدم من «المُتَوكِّل» وأعطاه كتابًا منهم. فتحه ووجده مكتوبًا بلغة لاتينية فقال:

- ولماذا يُخفي كتبه ولا يظهرها للعلن؟ إنَّ هذا لشيء عجيب!

- ذلك لأنها كتب مسروقة يا مولاي.

- مسروقة!

- عندما عرضنا الكتب على مَن يتقن القشتالية من رجالنا لنعرف ما بدخلها، كشفنا أنها ما هي إلا كتب عربية تُرجمت مع إخفاء اسم المؤلفين الحقيقيين، واستبدالها بأسماء قشتالية لا نعرف عنها أي شيء.

- تعني أنهم ينسبون علومنا لهم؟

- أجل.

- الويل لهم! هذه واللَّه، أكبر من سرقتهم الأموال والضياع!

ثم نهض وأكمل:

- ما أسوأ وأقبح ما يقومون به! يسرقون الميت والحي! يقبرون رجالًا ويحيون أمواتًا، إنهم يزيفون تاريخنا، ويقتلون أحلامنا، ويريدون بذلك سلبنا حتى مستقبلنا؛ ليأتي جيل يفتخر ويتعلم من كتب يظنها غير عربية، فتهتز ثقته بلغته ودينه ويظن أن لغته لم تكن يومًا لغة علم، ويظن أن الإسلام لم ينجب علماء أضاؤوا العالم بنورهم.

ثم التفت إلىٰ الرومي وأشار إليه بإصبعه:

- ليعترف هذا اللعين بمَن يساعده في ذلك، لا بُدَّ أن هناك تنظيمًا كاملًا يقوم بهذه الأعمال الشائنة.

- إنه لا يتقن العربية يا سيدي.

- معنى ذلك أن هناك خونة بيننا ينقلون له ما يريد، ولكن نظير ماذا؟

أمسك «ابن عبدون» بصرة كبيرة من الذهب:

- نظير هذا يا سيدي.

تقدم من «المُتَوكِّل» وأعطاه كيس الذهب ففتحه:

- يبيعون تاريخنا وعلومنا وحاضرنا ومستقبلنا بهذه الدنانير البخسة، أفٍ لهم! والله لا تقدر العلوم بثمن، ولو أنهم نقلوها إلىٰ قشتالة مع نسبة ما فيها لنا ولعلمائنا ما أحزننا ذلك، ليتعلموها كيف شاءوا، ولكن دون سرقة، فالإسلام جاء ليضيء الدنيا، ولينهل من علومه من يشاء.

- ماذا نصنع به يا سيدي؟

- خذه إلىٰ السجن حتى يكتب لكم أسماء كل من تعاون معه، أما هذه الكتب أحرقوها ولا تبقوا منها شيئًا.

خرج العساكر والقشتالي، وبقي «المُتَوكِّل، وابن عبدون» الذي قال:

- سيدي هناك أمر آخر لا يقل خطورة عن نقل الكتب، وسرقة ما فيها.

- أفصح يا بن عبدون.

- لقد أعددت خطتي للحسبة بعد أيام قضيتها في المدينة أتابع أحوالها وأسأل وأتقصى عن أمور بعينها، فوجدت أنه يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس، وإنه نظرًا لفساد أخلاق القساوسة، يجب أن يؤمروا بالزواج كما في ديار المشرق، ويجب ألا يترك في دار القسيس امرأة ولا عجوز ولا غيرها حتى لو طفلة صغيرة، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلىٰ الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد أو ازدحام، ويجب ألا يباع من اليهود أو النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، لأنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلىٰ أهلهم وأساقفتهم، وهي من تأليف المسلمين، كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين؛ إنهم غير أمناء في علاجهم ودوائهم، ولا يهتمون للمريض إن كان من غير دينهم.

- اكتب بذلك كتابًا، وليقرأ في كل المساجد والميادين، وليكن ذلك الكتاب دستورًا لنا هنا في «طُلَيْطِلَة» وكذا «بَطَلْيُوس».

***

(10)

ما إن بدأ الشفق الأحمر يلامس سواد السماء، حتى تسلل «لُذْرِيق» إلى الدير ليرى زوجته، واستقبله رئيس الرهبان بسرور غير متوقع منه، فأعطاه «لُذْرِيق» كيسًا من الذهب:

- أيها الأب، إني أَكِلُ إلى رعايتك بنتيَّ هاتين بعد أن أتركهما ورائي، فاخفض لهما جناح الرحمة، واعطف على زوجي ووصيفاتها، فإذا نفِد هذا المال فأنفق عليهن سخيًّا مبسوط اليد، فإن كل دينار يصرف عليهن سيُردُّ إلى الدير أربعة دنانير.

سعد الراهب بعرضه، وجاءت «شيمانة» والدموع ملأت عينيها وتحمل كل طفلة فوق ذراع، وجثت أمامه على ركبتيها وهي تبكي بمرارة:

- نُفيت يا «رُوي»، وهأنذا مع بنتيك... برأيك ماذا سيحل بنا؟

أخذ «لُذْرِيق» الطفلتين، وضمهما إلى صدره وبكى:

- تعلمين أنك أحب إليَّ من روحي، أعدك أن أعيش حتى أزوج ابنتيَّ هاتين من كبار النبلاء.

أقام الدير وليمة عظيمة تكريمًا له، ورنّت الأجراس، عندما علم أهل قشتالة ذلك، غادر الكثيرون منازلهم وأرادوا أن يتبعوه، وجاء مئة وخمسة عشر فارسًا مع «البار» وانضموا إليه وقبلوا يده.

وفي المساء قسم «لُذْرِيق» كل ماله على أتباعه:

- سنجتمع في الصباح الباكر ونغادر.

- أين سنذهب؟ هل إلى ملك «أرَغون سانشو بن راميرو»؟

- لا، فقدت شهدتُ مصرع أبيه، وربما لا يغفر لي! سنذهب إلى ملك «برشلونة».

وطوال الليل، تلا رئيس الأباتي الصلوات، وصلى «لُذْرِيق» وهو جاثٍ:

- أيتها الأم المقدسة، ويا أيها القديسون جميعًا، توسلوا إلى ربي أن يهب لي القوة لاستئصال المسلمين من أرضهم، وأن يمنحني من غنائمهم ما يُقدرني على مكافأة إخواني هؤلاء، ومكافأة كل من يتبعني ويعينني.

ثم غادر الجميع الكنيسة، وعانق «شيمانة» وبنتيه وباركهن، وهو يتألم لفراقهن، وطفق يبكي ويكثر من التلفت وترديد الزفرات ناظرًا حوله، فتقدم إليه «البار»:

- أين شجاعتك أيها «القمبيطور»؟ لقد ولدت سعيد الطالع مجدودًا! فكر في غزوتنا، الآن سوف يتحول حزنك إلى فرح.

ثم نظر إلى الأباتي، وقال:

- إذا رأيت من يهتم بمتابعتنا فقل لهم طريقنا، وحثهم على الإسراع، حتى يصلوا إلينا.

ثم أطلقوا العنان لخيولهم، وفي الطريق انضم إليهم العديد من الرجال وخاصة قطاع الطرق، وفي اليوم الأخير من الأيام التسعة توجهوا نحو الجبال الفاصلة لحدود مملكة «سرقسطة»، وقبل غروب الشمس أوقف «القمبيطور» جماعته وأحصاها، فوجد أن لديه ثلاثمئة رجل بخيل ورماح، وعدد كبير من المشاة.

***

(11)

ما إنْ علم موسىٰ «الطويل» بما حل برسول «سِسنانذُ» حتى تملكه الرعب والخوف من افتضاح أمره، وأخذ يتحرك في قلب منزله كفأر وقع في مصيدة، فلا أحد إلىٰ الآن يعلم أنه اعتنق النصرانية، وأنه مَن يقوم بترجمة الكتب إلىٰ اللاتينية، وقد أفصح إلىٰ نيفادة بذلك فقالت له:

- لو خرجنا الآن من طُلَيْطِلَة، لعلم الجميع أننا من يقوم بذلك العمل.
- ولو لم نخرج وافتضح أمرنا، لقتلنا رجال «المُتَوكِّل».
- فلتهدأ؛ فرجال «سِسنانذُ» لن يعترفوا أبدًا، وقد حدث قبل ذلك أن وقع أحدهم في قبضة «القادر» فلم يأخذوا منه شيئًا حتى تدخل «الفونسُ» نفسه فأطلق سراحه.
- «المُتَوكِّل» غير «القادر» ولا أظنه يترك القشتالي إلا بعد أن يعترف له بمَن يعمل معه هنا، فلمَ نعرض أنفسنا للتهلكة؟ لا والرب فإني أخشى الموت، وأكاد أموت رعبًا وخوفًا.

لم يكد ينهي كلمته، حتى دُق الباب ففزع، وارتعبت «نيفادة» ونظر أحدهما إلىٰ الآخر، ولم يستطيعا تحركًا، فما كان من الطارق إلا أن أعاد طرقه، وهنا تحرك «موسىٰ» متثاقلًا، وقد شعر أن مَن وراء الباب شرطة «المُتَوكِّل» ولكن خوفه زال، وتنفس الصعداء عندما فتحه ووجد «بِلاجيوس» أمامه، فأغمض عينيه لتهدأ ضربات قلبه الذي كاد ينخلع من الخوف، ثم فتحهما مرة أخرى، واصطحبه إلىٰ الداخل، وما إنْ دخل بِلاجيوس حتى قال بصوت جاد:

- يجب التحرك فورًا.

موسىٰ مرتبعًا:

- هل من جديد؟

- علمت من مصادر لي داخل القصر، أن «المُتَوكِّل» جاد في البحث عنا، وأن هناك من أشار عليه بعدم حرق الكتب، وعرضها على أهل السوق والمكتبات بعد أن عرف أصولها، وبدأ بالبحث عمَن باع تلك الكتب، وإلىٰ من باعها، ولو صدق في ذلك واجتهد فقطعًا سيصل إلينا، وعندها لن نرى منه رحمة أبدًا!

- لكني لا أطيق فراق طُلَيْطِلَة.

- لا وقت للعواطف يا نيفادة، نتركها أحياء بدلًا من أن ندفن فيها، على أنهم لن يقتلونا قبل أن نتعرض لأشد العذاب!

موسىٰ بلهفة قلقة:

- فإلىٰ أين نلتجئ؟

- إلىٰ قشتالة؛ لا أحد يستطيع حمايتنا إلا الملك «الفونسُ» فأعدوا عدتكم؛ لا يأتي الصباح إلا ونحن خارج أسوار طُلَيْطِلَة، وعلى حدود مملكة قشتالة.

***

شرد ذهنه إلىٰ أيام الطفولة بعد أن ذهبت به أمه إلىٰ مسجد «طُلَيْطِلَة» الجامع وعمره وقتها لم يتجاوز السادسة ليتلقى العلم عن كبار العلماء، وقد شعر حينها بالوحشة، فما كان من «موسىٰ» إلا أن اقترب منه، وراح يحدثه ويؤنسه، ثم راحت ذاكرته إلىٰ حيث الشباب والأيام الخوالي، وانقطاع «موسىٰ» عن الدرس، وأخيرًا زواجه من «نيفادة»...

ظل «زياد» واجمًا صامتًا مكتئب الوجه، لم يقطع تفكيره إلا صوت «ليلىٰ» الناعم الودود، وهي تقترب منه:

- حلوى المرصبان جاهزة.

- من أين لي بشهية بعد الذي كان؟ والله، إن أمره وقع عليَّ كالصاعقة، لا أعرف كيف لرجل عاش حياته بين الدرس والعلم، أن ينقلب به الحال هكذا! فهل تفعل النساء كل ذلك يا ليلىٰ؟

عانقته بنظراتها الحانية:

- ليس كل الرجال سواء يا حبيبي، وليس كل البشر تقودهم الأهواء، وإلا لفسدتِ الدنيا.

- ولماذا يكون هناك خونة دائمًا؟ لماذا يخون الناس بعضهم؟

- ليس علينا قتل أنفسنا حسرة على ما فات ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وإن كان هناك خائن كموسىٰ، فحولك عشرات الأوفياء غيره، لا تبتئس.

نظر إليها وهزَّ رأسه دون أن يتحدث، ومن داخله صوت يصرخ:

- لا، ليس «موسىٰ» كغيره إنه رفيق دربي، وصديق عمري! إنه أخي الذي لم تلده أمي... كيف لي أن أستبدله؟!

وعلى وقع حديثهما دخلت «فاطمة»:

- إنها الدنيا يا بني، فلا تذهب نفسك حسرات عليه.

اشتكى «زياد» وخز فضول حائر:

- لقد شاهدتُ الكثير، وعلمتُ الكثير، وقرأتُ أَيْضًا عن أخبار الخيانة والخائنين، ولكن لم أتخيل يومًا أنْ يكون «موسىٰ الطويل» واحدًا منهم!

نظرت «فاطمة» بأسى واستعطاف إلى «ليلىٰ» علها الوحيدة القادرة على أن تخفف عنه، ولكن ما لبث أن نهض مسرعًا وتركهما:

- سأذهب إلىٰ السوق، علِّي أجدُ جوابًا لأسباب ما فعل.

***

(12)

كونستانزة

أقيمت احتفالات استقبال «كونستانزة» زوجة الملك الجديدة بالدير الملكي «ساهاجون» وأقيدت الشموع، ورنت الأجراس، وقد أتت ومعها أعداد كبيرة من الفرسان والجنود ورجال الدين الفرنسيين، وعلى رأسهم ابن خالها الراهب «برنار[1]» الذي عينه «الفونسُ» رئيسًا للدير، وبسبب أصلهم الفرنسي، كانوا مهتمين بغرس الطقوس الرومانية[2] التي كانت تُمارس في فرنسا، مما أثار غضب «أُرَّاكة» ورهبان «ليون» لكنهم لم يجرؤوا على الاعتراض!

وما إن انتهت المراسم وعاد «الفونسُ» إلى «برغش» حتى وجد «القادر» في انتظاره، وقد حمل معه كل ما يستطيع من ذهب وهدايا، وهو يمني نفسه برضاء «الفونسُ» وعطفه، فلم يفكر لحظة واحدة في هيبته التي ستضيع أو ذله بهذا الشكل، بل كل هدفه العودة ملكًا ولو كان ملكًا اسميًّا بلا مُلك!

وربما لا يوجد في التاريخ لقب كلقب «القادر» فهو بالعكس تمامًا لم يكن قادرًا إلا على التنازل والخذلان والهزيمة، وبينما هو في قصر «الفونسُ»، لم يأذن له الأخير بالمثول فورًا بين يديه بل أمر رجاله أن يجلسوه في مكان قريب، لا يدخل أحد عليه حتى تأخذ الرهبة منه كل مأخذ، وبعد مرور وقت طويل أذن له بالمثول لا كملك طُلَيْطِلَة ولكن كأقل رجل عنده.

دخل «القادر» إلىٰ قاعة العرش، وما إنْ دخل حتى ألقى التحية، فلم يرد «الفونسُ» بل رمقه بنظرة فهم منها أنه يجب عليه أن يركع أمام ملك «قشتالة، وليون» فما كان منه إلا أن صدع بأمر النظرة، وانحنى وقبل الأرض بين يدي «الفونسُ» وبعدها سمح له بالجلوس وسط سخرية وزراء «الفونسُ» وتحقيرهم له.

- أرجو يا سيدي، أن تنال الهدايا رضاكم.

لم يعبأ «الفونسُ» كثيرًا بها فهو يريد الأرض التي تهب تلك الكنوز لا الكنوز ذاتها، لذا تحرك صوب أحد صناديق الذهب، وأمسك بقطع منه:

---

(1) Bernardo de Sédirac.

(2) وهو ما يخلاف عقيدة أهل القوط السكان الأصليين لشبه الجزيرة، فكان قدومهم كاحتلال فكري وثقافي.

- ذهب طُلَيْطِلَة وحريرها! طُلَيْطِلَة عاصمتنا قبل أن تدخلوها أيها القادر، أم تراك تجهل التاريخ؟

شعر «القادر» بما يدور في عقله، فظهرت عليه علاماتُ الارتباك قبل أن يبلع ريقه ويستجمع قواه ويقول:

- ذلك منذ زمن بعيد يا سيدي.

رمقه «الفونسُ» بنظره كادت أن تقتله، ثم عاد إلىٰ كرسيه وقال:

- بل ذلك زمن ضعفنا وقوتكم، زمن تشتتنا واتحادكم، أما وقد تبدل الحال، وصرتم أممًا وفرقًا متناحرة، وتوحدت «قشتالة، وليون، وجليقية» تحت حكم واحد فلتعلم أنه إن أردت أن تعود إلىٰ حكم «طُلَيْطِلَة» فوجب عليك الاعتراف بأننا أصحاب تلك الأرض مهما مرتِ السنون، وأننا سنسمح لك بحكمها، ولكن تحت إمرتنا، فقد كنا عزمنا على الخروج إليها، وأخذها من «ابن الأفطس» ولكن عرفانًا منا بما أسداه جدك لنا من جميل قديم، فسوف نسلمها لك تحكمها بأمرنا، وتحت تاجنا المقدس.

استرد «القادر» بعضًا من قوته، ولمعان وجهه الممتقع من هول ما سمع:

- أنا خادمكم يا سيدي، وإن أحكمها تحت إرادتكم فهو شيء لا ينقص من قدري، ولكن...

قاطعه «الفونسُ» بنبرة تأديبية:

- بل يزيدك شرفًا وقوة! ولكن ماذا؟

- لا أريد العودة لـ«طُلَيْطِلَة» فقد عافيتها لكره أهلها لي.

أبدى «الفونسُ» بعض التعجب:

- وماذا تريد إذًا؟

- أريد أن تساعدني على استرجاع «بَلَنْسِيَة» ودخولها، فهذا ما أفضله الآن.

لمعت في رأس «الفونسُ» تلك الفكرة وهتف مرحبًا بها:

- إذا أخليت بيني وبين «طُلَيْطِلَة» أخليت لك السبيل إلى «بَلَنْسِيَة».

***

(13)

لم يكن حزم «ابن الأفطس» وشهامته تُرضي كل شعب «طُلَيْطِلَة» وخصوصًا تلك الفئة المستفيدة من الفساد القديم الذي كان يرفرف عليهم زمن «القادر»، لذا كان مناصروه والمستفيدون من خيانته ورعونته قد بثوا سمومهم، وعملوا على إثارة الفتن فبدأتِ العامة تتقلب على «ابن الأفطس» ورغم تعدد ميولهم، فقد اجتمعوا على غاية واحدة وهي أن يذكروا الناس بفضل «القادر» الذي كانوا معه في دعة، ورغد عيش، وأمن، وأنه ربيبهم وابن سيدهم، بينما «المتوكل» غريب عنهم، وبسرعة كبيرة نسي العامة ما صنعه «القادر» ولم ينظروا إلىٰ ما يفعله «ابن الأفطس» لأجلهم تجاهلوا كيف قطع السرقات؟ وكيف عمل جاهدًا على تأمين بلادهم؟ وكيف صنع بمن يسرق كتبهم؟ تجاهلوا عداوته لقشتالة وتبعية «القادر» لهم، وبعدما كانوا يقولون:

- قشتالة عدوة لا يؤمن جانبها.

تغير وتبدل رأيهم بعد أن سار فيهم من يقول:

- إن قشتالة لم تصنع بنا شيئًا يذكر!

ومع توالي الأيام زادت وتيرة تلك الشائعات، ولم تنجح القلة من أهل «طُلَيْطِلَة» في تذكير الناس بشرور «القادر» وضعفه ورغم أن التعليم كان يسود «طُلَيْطِلَة» فقد كان الجهل والضلال يملأ قلوبهم، فليس كل متعلم يفهم، وليس كل أُمِّي يجهل!

وترددت تلك الأصوات في جنبات «طُلَيْطِلَة» وبدأ «ابن الأفطس» نفسه ينزعج منها ويتعجب؛ إذ كيف لهذا الشعب الذي أرسل إليه ليحكمه، أن يأتي اليوم وبهذه السرعة فيتأفف منه، ويتهمه؟ وشعر أن سياسته لن تجدي في شعب مُرد على الفساد وموالاة عدو الله «قشتالة» ولكن ورغم ذلك حاول أن يُفهم الشعب ومعه ثلة من العلماء يتقدمهم «المغامي».

***

ومع مرور الأيام بدأ «المتوكل» يشعر بفقد النصير بعيدًا عن عاصمة ملكه «بَطَلْيُوس»، وفي ذاتِ الوقت لم يستطع أن يجلب جيشه، فمن جهة لا يريد إخلاء «بَطَلْيُوس» من حامية تصد هجمات «ابن عبَّاد» ومن جهة أخرى لا يريد أن يتصادم بجيشه مع أهل «طُلَيْطِلَة» أو يظنوا أنه أتى بالجيش لقهرهم. وفشلت مع الوقت كل محاولاته لإفهامهم ما يدور من حولهم. ولم يكن الزمان

ولا المكان يسمحان بفرض الأمر بالقوة، وكذا فشلت مساعي «المغامي» ورجاله فانتفضتِ المدينة عليه، ونسوا ما كان منهم تجاهه، ودخل عليه وزيره «ابن عبدون» يقول:

- سيدي لقد اشتعلتِ المدينة بمجرد سماعهم باقتراب «القادر» من طُلَيْطِلَة وراح بعضهم ينادي به ملكًا، قال منهم من قال: إنه صاحب البلاد، وإنه ربيبهم، وإنك يا سيدي مغتصب للملك لا مكان لك هنا!

احمر وجه «ابن الأفطس» غضبًا:

- قبحهم الله! ينادون بالقادر ملكًا وهو يعود لهم على أسنة سيوف عدوهم! أما كان من الأولى بهم أن يتحدوا معي، فنبيد «القادر» وجيشه القشتالي.

- ماذا نحن فاعلون يا سيدي؟

وقبل أن يجيبه دخل عليه فارس يقول بصوت أقرب للنحيب:

- الأذفنش قادمٌ بجيشه، ومعه القادر يا سيدي!

صاح «المتوكل»:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! لن نستطيع مجابهتهم، وهؤلاء الخونة هنا، وحتى لو لم يكونوا خونة، فجهلهم خيانة لا تغتفر! لذا تجهز فسنعود إلىٰ «بَطَلْيُوس» في أقرب وقت، وليفعل الله ما يريد.

وكان «المُتوكِّل» خلال ذلك يجد في اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه من أسلاب «القادر» من أثاث، وفراش، وآنية، وسلاح، وكتب، وغيرها، حتى بعث منها إلىٰ «بَطَلْيُوس» المقادير الجمة، ولما شعر باقتراب «الفونسُ» غادر مسرعًا إلىٰ حاضرته، وذلك بعد أن قضى في حكم «طُلَيْطِلَة» زهاء عشرة أشهر.

وفي يوم عيد الأضحى 474/1081م خرج «زياد» مع أهل «طُلَيْطِلَة» لمقاتلة «القادر» في عددهم وعديدهم، وزحفوا إليه بكل أسلحتهم، وحاولوا رده بالقوة، ودارت معركة بين الجانبين في شوارع «طُلَيْطِلَة» ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي نتيجة، فترام منهم نفر إلى «الفونسُ» يشكون إليه «ابن ذي النُّون» ويستصرخونه عليه، فتصدى لهم وأظهر أنه يؤيده ويناصره، ونكل جنده بهم، ومزقوهم شر ممزق، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فتفرقوا بكل سبيل، ودخل «القادر» «طُلَيْطِلَة» في حماية «الفونسُ» وجنده النصارى، وهم حاملون الصلبان والنواقيس، والفوضى تسود المدينة، وأهلها في كدر ووجوم، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير.

الفصل الخامس

«ليس بيننا وبينك إلا السيوف،
تشهد بحدها رقاب قومك»

المتوكل بن الأفطس

(1)

جلس «القادر» على عرشه المتهاوي مرة أخرى، وهو حريص كل الحرص على إرضاء سيده «الفونسُ» بالطاعة والمال، فاجتهد في تحصيله وإرساله له، غير أن الأهالي سخطوا لذلك مرة أخرى، وتذمروا وهم يرون أموالهم تساق إلىٰ قشتالة بلا وجه حق، وصار من يجب عليه دفع الجزية يُحصلها! فعمد بعضهم إلىٰ التمرد... وفي ذاتِ الوقت فقد أمر بعودة كل من خرج على إثره من «طُلَيْطِلَة» وكان من بين هؤلاء «موسىٰ، ونيفادة، وبِلاجيوس» الذين عادوا إلىٰ المدينة، وأصبحوا تحت حمايته وفي ظل عرشه، وكان «الفونسُ» قد شدد عليه حماية النصارى في بلاده، وعدم التضييق عليهم مرة أخرى، وألزمه بذلك، وإلا فيسحميهم بنفسه.

وفي قلب المدينة أنعش الهواء العليل والنسيم البارد صدر «موسىٰ» الذي راح ينتشيه فيُذهب عنه وحشة الغربة، ويُضيف إليه سرورًا إلى سروره، وهو عائد مع «نيفادة» بعد غياب شهرين وشدة اشتياق لموطنهما، وما إن وصلا إلى موضع «البئر المُر» حتى أوقف «موسىٰ» فرسه ونزل عنه.

تعجبت «نيفادة» ونظرت حولها فليس هذا بمكان بيتهما:

- لمَ توقفت؟

ساعدها على النزول هي الأخرى، وسحبها من يدها حتى اقتربا من بئر قديمة مغلقة، ثم نظر بعمق داخل عينيها التي هي بالنسبة له ينبوع حياة، وقال:

- آه يا نيفادة، لو تعلمين كم كنت أخشى أن أظل أبكي بعدك عني!

بنبرة تأنيب متأففة:

- ما سبب تذكرك لهذا الآن يا موسى؟

- هذه البئر المغلقة تذكرني بكِ؛ فهناك أسطورة تقول إنها كانت شاهدةً على قصة حب لشاب مسيحي وشابة يهودية قد هاما ببعضهما عشقًا، وكانا يلتقيان سرًّا عند هذه البئر، إلا أن حبهما كان مستحيلًا آنذاك، لأن أتباع كل دين يكفرون الآخر، وبعد أن عرف والدها بالأمر وعجز عن اقناع ابنته الوحيدة بالعدول عن هذا الحب، قرر أن يقتل الشاب، فزعم أنه سيغيب في سفر؛ تاركًا إياهما يتناجيان عند البئر كل ليلة، وفي ليلة دامسة، تسلل من وسط شجيرات الحديقة وطعن الشاب في قلبه حتى أرداه قتيلًا. بعدها، ظلت ابنته العاشقة تأتي كل ليلة للبكاء هنا، ولكثرة ما سكبت من دموع مريرة تحول ماء البئر العذب، بالتدريج، إلى ماء مُر، لهذا صار يسمى «البئر المُر».. والبعض يقول بأن العاشقة أنهت حياتها ملقية بنفسها في البئر.

انفرجت شفتاها عن ضحكة متهكمة:

- إذًا، فلتحمد الرب أن ضمَّك لحظيرته؛ وإلا لم تكن لتنفعك دموعك ولو حولت «التاجة» لنهر مُر...

دارت برأسها قليلًا إلى جهة الحمام وتابعت:

- انتظرني هنا... سأذهب، لأزيل عني وعثاء السفر.

وقبل أن تذهب، انتشرت فجأة شرطة «القادر» في المكان، وهم يسوقون بعض الأفراد إلى السجن، وصيحات الأهالي تتبعهم، دقق «موسىٰ» النظر في الزحام، فإذ من بينهم «زياد» وقد أُبرح ضربًا، فاقترب منه وهتف به:

- لقد خسرت يا زياد، ولم ينفعك عنادك!

نظر إليه «زياد» بعين متورمة، فرآه يرتدي زيًا روميًا مقلدًا إياهم، و«نيفادة» تقف من ورائه تجذبه من ذراعه كي لا يقترب أكثر، فتأسف لما وصل إليه، وقال:

- الخاسر من تخلى عنه ربه... وما نحن فيه ابتلاء للمستضعفين سنؤجر عليه -بإذن الله-.

عمد رئيس الشرطة إلى ضرب المعارضين بالسياط، وزج بمئات منهم إلىٰ سجونه، ونفي البعض الآخر خارج أسوار «طُلَيْطِلَة» وقتل البعض،

فاضطربتِ الأحوال، وأصبح الطليطليون يرتاع الواحد منهم من ظله، وكثرت الجواسيس وانتشرت بين العامة، فأصبح الرجل يخشى من أهل بيته، والابن من أبيه، والصاحب من صاحبه، وبث «الفونسُ» رجاله يثيرون الفتنة في كل مكان.

رفض بعض ولاة المدن الصغرى التابعة لطُلَيْطِلَة ما يحدث في الحاضرة، ورفضوا أن يحكموا تلك الثغور تحت إمرة «الفونسُ» وأعلن بعضهم العصيان والخروج على «القادر» الذي سارع بالاستنجاد بغريمه، فاستغل «الفونسُ» ذلك وخرج من «ليون» قاصدًا تلك القرى والمدن الصغيرة، فنزل عليها وأخذها، واستولى عليها، وانتهب كذلك القرى المجاورة لطُلَيْطِلَة الخاضعة للقادر، وسط صمت «القادر» وعجزه، وربما وفاء لعهوده السابقة التي اقتطعها على نفسه، وقد كان من الخوار بمكان إذ إن أسوار مدينته كانت كفيلة بحمايته إن أعلن العصيان على «الفونسُ» ونجح في جمع شعبه حوله، وقد كانت «طُلَيْطِلَة» تعج بالكثير من حملة السيف، ولكن الجبن والخوف كانا قد امتلكا عليه كل شيء، كما كانت شرطته وسيلة لمساعدة «الفونسُ» بعد أن نكلت بكل مخلص، وامتلأتِ السجون بهم، ولم ينجح «المغامي» في إخراج «زياد» بل وصل الأمر إلىٰ أن مُنع «المغامي» من إلقاء الدروس بالمسجد الجامع بعدما علم «القادر» من رجاله أنه يحرض عليه، وخلت «طُلَيْطِلَة» للخونة والمستفيدين وقويت شوكة المعاهدين، حتى المساجد لم يبق بها إلا كل مصفقٍ للقادر مبارك لأفعاله.

وعاد الحال إلىٰ زمن ما قبل «المتوكل» وربما أسوأ فنشط كل منافق، وخرج المعاهدون من جحورهم، يظهر منهم أقبح ما فيهم، ونشطت سرقة العلوم الإسلامية، واجتهد «موسىٰ الطويل، ونيفادة» في ترجمة كل ثمين إلىٰ اللغة اللاتينية، ولم يعُد يخشى أحدًا، وقد اشترى الكثيرين بالمال، ولم يكتف بذلك حتى راح يشجع بعضًا من ضعاف قلوب المسلمين على مساعدته في الترجمة، يعدهم بالمال الوفير الذي يقدمه لهم «سِسناندُ».

وانقسم الأهالي فيما بينهم: مَن يدعم القادر في كل أفعاله، وهؤلاء قلة ولكنهم يملكون المال والقوة والنفوذ، ولا يعنيهم ما يحل بديار المسلمين قدر

اهتمامهم بمصالحهم، فهم أبعد ما يكون عن طاعة الله، وكان لهم رغم قلة عددهم التأثير الأكبر.

ومَن لا يرضى بما يحدث، ولكنه لا يملك ما يدافع به عن نفسه، وهؤلاء جل أهل طُلَيْطِلَة، وقد التزموا الصمت خوفًا من بطش «القادر» ورجاله، فهم ما بين فشل ووكل، وهؤلاء بالعموم هم سبب خراب الأوطان، فرغم يقينهم بأن ليس لهم غير تلك البلاد، ورغم حبهم لها فإنهم صمتهم وخوفهم هو سبيل كل متجبر لتجبر أكبر، ودليل كل خائن ليخون، وكل غادر ليغدر، فهؤلاء لا يتحركون ما دام أهلهم بخير، فإن وقع لأحدهم مكروه، تذكروا كره «القادر» وعسفه!

وقسم ثالث: رافض لأفعال «القادر» متحرك لذلك لا يهاب الموت ولا يخشى السجن أو القتل، وهؤلاء قلة قليلة خرجوا يصيحون بذلك في الشوارع، واستطاع «القادر» إخمادهم، وكان من بينهم «زياد» وجل تلامذة «المغامي» والأخير يعول في دعواته على العامة الصامتة، ويرجو أن يتحركوا، ولكن صمتهم أضاعه وكان نذيرًا بضياع طُلَيْطِلَة.

أما «الفونسُ» فقد كان على علم بما يحدث داخل «طُلَيْطِلَة» وبذل عيونه ورجاله بين أهاليها كما كان الكثيرون منهم يعملون لحسابه، وكذا حال الدول الضعيفة المتهالكة، قرب رحيلها يختفي من ميادينها الرجال لتظهر أشباه الذكور، فالضياع والسقوط والاحتلال لا يكون أبدًا والرجال مسيطرون، بل يأتي عندما تزخم البلاد بالخونة والرعاع، ويسيطر الجهل على ربوعها وأركانها! وبذلك كان «الفونسُ» على يقين من أن الجو قد أضحى ممهدًا لتنفيذ مشروعه، وأنه لن يجرؤ أحد أن يقف في طريقه. وكان مما يقوي أمله أن أهل طُلَيْطِلَة، لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم، وأن حزبًا قويًا منهم يناصر سياسته وأطماعه، ويشجعه على العمل، وكان أَيْضًا يعول على المعاهدين والمنتفعين، وكانتِ الغزوات والحملاتِ المتوالية، التي شنها على أراضي طُلَيْطِلَة، حتى ذلك الحين، سواء لحسابه الخاص، أو بحجة معاونة «القادر» ضد الثوار عليه، قد نالت من هاتيك السهول، وخربت كثيرًا من ربوعها النضرة، وأحرقت المراعي الخصبة، وأشاعت فيها الضيق والحاجة،

وأخذتِ المدينة التليدة، تتأثر بهذا الضغط، و«الفونسُ» يزمع أن تستمر حملاته المخربة، حتى يتم تجريدها من سائر مواردها.

***

(2)

لم يزل الشيخ الأبيُّ «أبو الوليد الباجي» في سفارته بين ملوك الطوائف مجتهدًا يؤلفهم على نصرة الإسلام، ونبذ أحقادهم، وجمع كلمتهم، فيُبدون له التقدير والإجلال ظاهرًا ويستبردون نزعته باطنًا، وكلما وفد على ملك منهم لقيه بالترحيب، وأجزل حظه بالتأنس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه بأمورهم، وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالًا تثوب، ومذنبًا يتوب، وبينما هو في المسجد الجامع بمدينة «المرية» وبعد أن صلى المغرب وجلس في حلقة يؤدي الأمانة وينصح الأمة، إذ وافاته المنية ليلة الخميس 19 من رجب 474هـ/1081م قبل تمام غرضه وتحقيق رغبته، عن عُمْرٍ يناهز الواحد والسبعين سنة، رحمه الله. وأمَّا جهوده وباقي الرسل العقلاء الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب، ما يضمره المستقبل من ويل ذهبت كلها سدى، وغلبتِ الأطماع والأهواء الشخصية، على كل تفكير سليم ومبدأ حكيم، ولبث «المُعْتَمِد بن عبَّاد» وهو أولى وأقرب من تقع عليه تبعة الإنجاد، يشهد تفاقم الخطب جامدًا معرضًا، وكل همه أن يحتفظ بما انتزعه من أراضي مملكة «طُلَيْطِلَة» الجنوبية، وحذا حذوه ملوك الطوائف فكان موقفًا يثير الألم والحسرة معًا: خضعوا لوعيد ملك قشتالة، وتعهدوا بأن يؤدوا له الجزية، منغمسين بملذَّاتهم وفسادهم، يحاربون إخوانهم، ويستخدمون المرتزقة من النصارى لحماية عروشهم التي تزعزعت، بعد أن فقدوا الأمل في شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجورهم وتعسُّفهم، وقد جعل الله بينهم من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تصل إليهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأَنْدَلُسى بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة، حتى كاد هذا الشعب الصابر أن يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حُكَّامه من الضرائب للتنعم بالعيش

الرغيد ودفع الجزية للنَّصَارَى، وأصبح بين حاكم مُبتزٍّ وعدوٍّ متربصٍ، إلا ملك «بَطَلْيُوس» الشهم «عُمر المُتَوكِّل»، الذي رفض دفع الجزية، ورفض عقد الهدنة معه، فأرسل إليه «الفونسُ» رسالة شديدة اللهجة يطلب منه أن يُسلِّم إليه القلاع والحصون المجاورة لحدوده مع تأدية الجزية كما يدفعها إخوانه المسلمين في الممالك المجاورة، فرد عليه «المُتَوكِّل» ردًا عجيبًا:

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدعٍ في المقادير وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويهدد بجنوده المتوافرة وأحواله المتظاهرة، ولو علم أن للَّه جنودًا أعز بهم الإسلام وأظهر بهم دين نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أعزّة على الكافرين، يجاهدون في سبيل اللَّه لا يخافون، بالتقوى يُعرفون وبالتوبة يتضرعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فبإذن اللَّه وليعلم المؤمنين، وليميز اللَّه الخبيث من الطيب ويعلم المنافقين. أما تعييرك للمسلمين فيما وهىٰ من أحوالهم فبالذنوب المركومة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك لعلمت أي مصاب أذقناك كما كانت آباؤك تتجرعه، وبالأمس كانت قطيعة «الحاجب المنصور» على سلفك لما أجبر أجدادك على دفع الجزية حتى أهدى بناته إليه.

أما نحن فإن قلّت أعدادنا وعُدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ولا صعب نروضه، ليس بيننا وبينك إلا السيوف، تشهد بحدها رقاب قومك، وجلاد تبصره في نهارك وليلك، وباللَّه تعالى وملائكته المسوّمين نتقوى عليك ونستعين، ليس لنا سوى اللَّه مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، نصر عليكم فيا لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل اللَّه فيا لها من جنة، وفي اللَّه العوض مما به هددت، وفرج يفرج بما نددت ويقطع بما أعدد».

وخرج «المُتَوكِّل» على رأس جيشٍ إلى «طُلَيْطِلَة» وعندما سمع «الفونسُ» بذلك لم يشأ خوض معركةٍ فانسحب، ورغم ما كان من تجبره وهيبته فإنه خشي أن يرسل إليه جيشًا، فعزة وصلابة «المُتَوكِّل» جعلته يوقن أنه لا يستطيع أن يقاومهم أهل الأرض جميعًا، وإن كانوا قليلين!

***

- ألا ترى أن «ابن عبَّاد» تأخر في أداء الإتاوة هذا العام؟

بادر «سِسنانْدُ» بتقديم الرد خشية اتهامه بالتقصير في عمله:

- إنه منشغل في حربه مع بني صمادح! وهناك أنباء أنه استنفد ما في يديه بسبب ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

استشاط «الفونس» غضبًا:

- أيشغله توسعه عنا؟ هذا ليس عذرًا!

ثم جزّ على أسنانه، واعتصر قبضة يده:

- رُوي كان يتولى جمعها، مَن نرسل إليه الآن؟

- طب خاطرًا يا سيدي، لدي من يقوم بهذه المهمة.

- إذن تعجل، فلا يظن «ابن عبَّاد» أنا نغفل عنه، واطلب منه بعض الحصون زيادة على الضريبة.

- سمعًا وطاعة يا سيدي، فأنا دومًا رهن إرادتك.

هدأت أنفاس «الفونسُ» وعاد إلى جلسته، ثم إلى الفكرة التي تحوم طول الوقت بين جبهته ومؤخرة رأسه:

- أخبرني يا سِسنانْدُ عن العرب وأحوالهم في طُلَيْطِلَة؟

- لقد فسدوا يا سيدي، ولن يأتي فاسدٌ بخير!

- لا أسألك عن عامتهم، ولكن عن علمائهم، وعلومهم.

- أما هذه يا سيدي، فهم أعظم الأمم وأكثرهم علمًا.

- فكيف السبيل إلىٰ التفوق عليهم؟

- لقد بذلت في سبيل هذا الأمر عمري كله، ولكن أين أنا من أمة كاملة؟ والله لن نقدر عليهم ما لم يتحرك سيدي الإمبراطور.

- سنتحرك يا سِسنانْدُ، بعد أن نفني فيها أكثر من فيها، ولكن أترى حقًا أننا سنتفوق عليهم ببضع كتب تترجمها إلىٰ اللاتينية؟

- قطعًا يا سيدي، ولكن ذلك يحتاج الكثير من الوقت والمال، أما المال فلشراء الذمم والكتب، وأما الوقت فللقضاء على أصول الكتب المترجمة حتى لا يكون لها أصل سوى ما نملكه، فلا يأتي الزمان ويقول مسلم: هذه علومنا. فوالله يا سيدي، إن هدم الأمم يبدأ بنشر الجهل فيها،

وبتحطيم الهمم، ولن تحطم همة هؤلاء وهم يملكون تلك العلوم، فمن يملك العلم سيسود ولو بعد حين، فما النصر العسكري بالقاهر ما لم تصحبه قوة حضارية ضخمه توازيه.

- ممم، لنمتص إذًا علومهم كما نمتص دماءهم.. وماذا عن «ابن ذي النُّون»؟ هل تسول له نفسه تغيير اتفاقه معنا؟

- اطمئن يا سيدي، لا يفكر إلا بما نريده، لقد ملكت «عجب» زمام عقله ولبه، فلا يحيد عمَّا تقول ولا يسمع لغيرها.

ضحك «الفونسُ» ضحكة عالية، وارتفع طرف حاجبه بإعجاب:

- إنَّ رجال الأندلس ثلاث: ابن رويش، وابن عمَّار، وأنت يا سسناندُ.

وبينما ضحكاتهم تجلجل، إذ فُتح الباب ودخل أحد الخدم:

- مولاي حضر الراهب «هيو» ومعه أسقف ليون، وهم في انتظار لقاء سموك عند الملكة.

نهض «الفونسُ» مسرعًا، فهو لا يتأخر في طلب لهؤلاء الفرنسيين، وتوجه إلى غرفة زوجه، فوجد الغرفة مليئة بالخدم وهناك أطباء يفحصونها، فقال «برنار»:

- إنَّ الملكة حامل.

ابتهج «الفونسُ» رغم عدم محبته لها، فإنه يطمح في ولي عرش له، لا سيما إن كان من نسل ملكي، فتكلف ابتسامة عريضة، بينما ظلت «كونستانزة» واجمة، فتجاهل نظرتها المرتابة قائلًا:

- كم هو خبر سعيد!

اقترب الراهب «هيو» وربت على كتفه، وتحدث بصوت أقرب للهمس:

- الأمر ليس يسيرًا، لقد سبق وأجهضت الملكة أكثر من مرة، إن حملها لا يثبت، وهذا ما أكده الأطباء.

حَدَّقَ إليهم وملامح الصدمة قد اعترته:

- أليس هناك حلٌ؟

صمتوا ولم يجبه أحد، فركز كل انتباهه على خالها، وأردف:

- لنجد لها طبيبًا عند العرب، إنهم بارعون ويستطيعون مساعدتها و...

شَمَخَ «هيو» بأنفه وقاطعه بصوت رن صداه في أنحاء الغرفة:

- إن كانوا سيساعدون الملكة، فعليها أن تلد في مسجد «قُرْطُبَة» فإن ولدت ولدًا في هذا الجامع فسوف يدين لك المحمديون بالولاء.

***

وصل خمسمئة فارس صليبي على رأسهم السفير اليهودي «ابن شاليب» إلى «إشبيلية» وعسكروا في ظاهر المدينة، وأرسلوا بطلب الجزية المتأخرة، فسيَّر إليهم «المعتمد» المال المعلوم مع بعض الأشياخ والأعيان من بينهم وزيره «ابن زيدون»، فلما وضعوا أمام «ابن شاليب» المال العين والسبائك، تحرك بتكبر واضح وعجرفة، ونظر إلىٰ الصناديق في غير اكتراث، ثم فتح أحدها، وقلب فيه وصاح في غضب:

- إن هذه الدنانير مغشوشة.. معدنها زائف! والله لا آخذ منها إلا ما كان ذهبًا خالصًا! وبعد هذا العام لا آخذ من «المُعْتَمِد» إلا أجفان البلاد، ارفعوه عني، وردوه إليه ولتقدم لنا الأموال الكافية، ومن العيار السليم، وإني أعيذكم أيها المحتالون، إن لم تفعلوا أن ندخل مدائنكم، ونأخذ ما تحت قدميكم، وأنتم تعلمون صدق قولي، ولينفذن «المُعْتَمِد» ما سنطلبه منه!

كظم الوزير «ابن زيدون» غيظه:

- إن الذهب من العيار المتفق عليه، وهذا ما كنا ندفعه لمن قبلك، ثم ما هو الطلب؟

- على «المُعْتَمِد» إعداد جامع قُرْطُبَة لكي تلد فيه زوجة الملك الفونسُ.

أثارت كلمات «ابن شاليب» نقمة وزراء «المُعْتَمِد» فانصرفوا، وكاد «ابن زيدون» أن يجنَّ وهو ينظر إلىٰ «المعتمد» وردة فعله وخصوصًا وقد التزم الصمت هنيهة، ولكن صمته ذلك تبعه انفجار، فنهض عن كرسيه وصاح بصوت عالٍ لرجاله:

- ائتوني باليهودي وأصحابه، واقطعوا حبال الخباء.

لم يجلس «المُعْتَمِد» في مقعده، وذلك من روع ما سمع، وانتابته رعشة شديدة، إذ كيف يطلبَ منه «الفونسُ» ذلك؟ فلما أحضروا «ابن شاليب» وكانت له خصلتان طويلتان تتدليان على كتفيه، ويلبس جبة طويلة ممزقة الذيل وسخة، قال له:

- لمَ هذا الطلب؟ ألا يسعها أن تلد في أي مكان آخر؟

«ابن شاليب» في منتهى التحدي والاستخفاف:

- أطباء قشتالة قالوا لـ«الفونسُ السادس» إن الملكة بحاجة لأن تسكن بـ«الزهراء» فهواؤها رطب عليل، ومنها تتردد إلى جامع «قُرْطُبَة» حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة الموضع الغربي على أنه موضع كنيسة قديمة مكانها الآن منبر الجامع المذكور.

أخذت «المُعْتَمِد» الغيرة، فتغير وجهه، وصمت هنيهة، وحاول كتم غيظه، وتحرج بعد سنين من دفع الجزية فقال:

- أنا أدفع لك الجزية مضاعفة، لكن لن تلد القمطجية في مسجدنا.

- أتجرؤ على الرفض يا ذليل؟ إنك لا طاقة لك بملك «قشتالة» فارتدع!

لم يحتمل «المُعْتَمِد» فأخذ محبرة كانت بين يديه، وضرب بها رأسه، وصاح في جنده:

- اصلبوا اليهودي الملعون منكوسًا على أسوار «قُرْطُبَة»! وألقوا بجماعته في السجن.

تبدلت أحوال «ابن شاليب»، وانهارت كبرياؤه، وجثا على ركبتيه:

- الرحمة يا مولاي، لا تفعل وأنا أفتدي منك بوزني مالًا، إنما أنا رسول، والرسل لا تقتل.

رد «المُعْتَمِد» بصرامة كبيرة:

- والله لو أعطيتني العدوة والأندلس ما قبلتهما منك؛ ولا رحمة لك... ولقد تجاوزت حد الرسل فسقط عهدك وأمانك!

وعاد يضربه، ففلق رأسه، وأنزل دماغه في حلقه، ثم رجع إلى كرسيه، ولما سكت عنه الغضب، سأل الفقهاء الحاضرين:

- ما حكم ما فعلت؟

خاف الفقيه «محمد بن الطلاع» أن يكسل «المُعْتَمِد» عما عزم عليه من منابذة العدو، ورجا أن يجعل الله في عزيمته للمسلمين فرجًا! فبادره:

- لك رخصة في ذلك يا مولاي، لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما يستوجب القتل له، إذ ليس له أن يفعل ما فعل!

***

(3)

كمين «روطة»

تكومت الثلوج على قصر «برغش» مثلما تكومت الهموم على «الفونسُ» وهو يجلس بمفرده في إحدى الغرف جوار مدفأة ألقت بظله على رقعة الشطرنج، وهو يعض أنامل الغيظ لما وقع لسفرائه، واضطراره أن يعيد حصن «المدوّر» القريب من «قُرْطُبَة» إلى «المُعْتَمِد»، ثمنًا لإطلاق سراحهم، بيد أنه أقسم أن ينتقم منه أروع انتقام.

وفي ذات الوقت ندم أشد الندم على ترك «لُذْرِيق» حرًا، وكاد الغيظ أن يُجنه بعدما وصلت أخباره، فما إن خرج شريدًا مع حفنة من المحتالين وهو يائس يبحث عن قوته معتمدًا على سيفه، إلا وسرعان ما ذاع صيته بين المسيحيين والمسلمين، فاتجه إلى أمير «برشلونة» طالبًا اللجوء، لكنه لم يلبث أن صده وأعرض عنه، فولى وجهه شطر ديار الإسلام عساه يلقى عندهم ما لم يجد في معسكرات النصارى، فعرض نفسه على ملك «سرقسطة» ودخل في خدمة «المقتدر» وصار يعمل لحسابه، ووجد عنده من إكرام ما لم يجده عند بني ملته، ثم ما لبث أن توفي «المقتدر» وكعادة ملوك الطوائف تنازع ابناه «المؤتمن، والمنذر» المملكة من بعده، فما كان من «لُذْرِيق» إلا أن انضم إلى حزب «المؤتمن» وهو الأكبر، وصارع معه حزب أخيه الذي استنصر بأمير«برشلونة» وملك «أرَغون». وهكذا وجد نفسه مضطرًّا إلى قتال «الأرغونيين والقطالانيين» في آن واحد لحساب ملك سرقسطة المسلم!

ووقعت أول معركة بين الأخوين عند «المنارة[1]» وتمكن «لُذْرِيق» من أسر أمير «برشلونة» ولم يتردد في إطلاق سراحه، ثم دخل «سرقسطة» واستقبل فيها استقبال الأبطال، وغمره «المؤتمن» بالهدايا والنفوذ.

كل هذا جعل «الفونسُ» يخشى أن يشكل «لُذْرِيق» جبهة ضده بتحالفه مع المسلمين، وأن يعيق طموحاته ويذهب بأحلامه في أخذ «طُلَيْطِلَة» وبينما هو يفكر، إذ فُتح الباب، ودلف منه قائد قواته «ابن أُردُنيو» وأسنانه تبرز مع ابتسامته القبيحة وقال:

- سيدي وصلنا رسول من حاكم قلعة «روطة[2]».

نظر إليه «الفونسُ» بقرف شديد متمتمًا:

- ومَن ذاك؟

جلس «ابن أُردُنيو» أمامه، تتهلل أساريره، وتبرق عيناه:

- فرصة ذهبية أتت إلينا حافية القدمين.

- أفصح!

- ذاك «المقتدر» الهالك كان يحبس أخاه في تلك القلعة، وقد اتفق السجين الماكر مع السجان إن أخرجه، وتمرد على «المؤتمن» ابن أخيه وأخذ العرش، سيكافئه، وهو بدوره يستعين بنا.

ضاقت حدقة «الفونسُ» ودارت في رأسه رُحى الأفكار، ثم مالت زاوية شفتيه ببطء، واشرأب بعنقه:

- يريد أن ندخله ملكًا لـ«سرقسطة»، القادر الجديد إذًا!

- ليس هذا فحسب؛ وذاك الكلب المنفيّ «رُوي» سيسر برؤيتنا هناك، أليس كذلك؟!

بدأت السعادة تدب في ملامح «الفونسُ» بعد غياب، وقال بصوت يملؤه الحماس:

- وما العرض المقدم لنا؟

---

(1) Almenar

(2) Castillo de Rueda تقع على حدود قشتالة وقريبة جدًا من مدينة سرقسطة.

- حاكم حصن «روطة» على استعداد للتنازل عن الحصن لنا.

برقت عينا «الفونسُ» ولم يتحمل الانتظار كثيرًا كي لا تضيع الفرصة من يده، فجمع بسرعة أتباعه، وجهز حملة كبيرة، وتوجهوا مع المبعوث المسلم إلى الحصن.

وفي ذلك الوقت توفي أخو «المقتدر» فجأة، ووجد حاكم الحصن أن خطته أصبحت مستحيلة؛ فإن خاطر شخصًا ما بالإبلاغ عنه، فلن يفقد منصبه فقط بل رأسه أيضًا، لذا ندم على هذه الدعوة، وأرسل سرًا إلى «المؤتمن» يخبره بما تمَّ، ويقدم توبته والدليل أنه سيغرر بأعدائه من القشتاليين، ويدبر مكيدة للقضاء على «الفونسُ» عدوهم الأكبر.

***

6 يناير 1083م

صهلت خيول الجيش الذي حلَّ برحاله عند جبل عال مساوٍ لعنان السماء، يقف على الضفة اليسرى لنهر، ورأى «الفونسُ» على قمته القلعة المنيعة، وسرَّ بجمال برجيها المربعين، وسورها الكبير الذي له ثلاث زوايا، ولا يمكن الصعود إليها إلا من جانب واحد، تحرك «الفونسُ» منتفشًا كديك مزهو، والراحة تطيب نفسه؛ فما هي إلا خطوات قليلة وسيضع يده على كل أموال «سرقسطة» بمجرد وصول أخو «المقتدر» للسلطة، اقترب الجيش القشتالي من القلعة، وفتحت البوابات، وأرسل الحاكم يقول:

- أودُ تسليم الحصن لـالملك نفسه.

توجس «الفونسُ» خيفة من هذا الطلب، وكسر عادته في أن يكون مع الطليعة، وذهب إلى مؤخرة الجيش، وترك كبار قادته[1] وعدد كبير من الأمراء والفرسان يدخلون أولًا، وما كادوا يجوزون إلى الداخل، حتى انهال عليهم وابل من الصخور، وهاجمتهم حامية المسلمين بشكل غير متوقع، ووقعوا في الفخ، ولم يستطع «الفونسُ» فعل شيء سوى سماع صرخات أتباعه:

(1) Gonzalo Salvadores أحد أقوى فرسان عصره والمسمى ذو الأيادي الأربعة بسبب شجاعته الكبيرة، والأميرSancho Garcés ابن العم الأول لـ«الفونسُ» وكان معه أخيه غير الشقيق Ramiro Garcés.

- خيانة... خيانة!

فقتلوا جميعًا، وأنقذ «الفونسُ» حياته مع مؤخرة الحملة التي خيمت خارج القلعة، وقد زلزلته المذبحة ولم يكن أمامه خيار سوى رفع المعسكر، فليس لديه ما يكفي من محركات الحصار أو القوة لمحاولة الهجوم على قلعة منحوتة في الصخر يمكن الدفاع عنها بسهولة، وعاد وهو يضطرم أسى وتحرقًا إلى الانتقام.

***

(4)

كان «لُذْرِيق» في غرب «سرقسطة» فلمَّا علم بالمكيدة، حزن وخشي أن يقحمه أعداؤه فيها، فهرع في صحبه إلى قشتالة لتبرئة نفسه، وكان «الفونسُ» قد ذهب بحزنه إلى «بلد الوليد» حيث صديقه «ابن أنسور»، فلما وصل «لُذْرِيق» خرج «الفونسُ» من بوابة القلعة لينظر لمَ عاد عدوه؟ فترجل «لُذْرِيق» وتقدم نحوه تاركًا وراء ظهره جماعته، وما إن أقبل حتى ركع أمامه:

- تعازي الحارة لك يا مولاي، أقسم لك لم تكن لي أي صلة بحاكم «روطة».

ولى «الفونسُ» وجهه عنه بكبرياء منهزم، ثم عاود النظر إليه، فتابع:

- إن الوعد، والخيانة التي فعلها تمت كلها من خلف ظهر ملك سرقسطة، ولم أعلم بشيء منها.

رأى «الفونسُ» الصدق في عينيه، وشدة تأثره بالفاجعة، فقال بنبرة معاتبة:

- لمَ أتيت يا رُوي؟ ماذا تريد مني؟

- العفو منك والصفح يا سيدي، ولتأذن لي بالعودة إلى خدمتك، وأعدك ألا أرجع إلا بعدما أنتقم لك من حاكم «روطة» وهؤلاء المُحمديين.

دخل «الفونسُ» القلعة، وجلس على كرسيه، وأمر بإخلاء الغرفة لكليهما، ثم نهض وسار نحو «لُذْرِيق» ووضع يديه على كتفه:

- يا رُوي، لقد كنت مثلك منفيًّا في يوم ما، ولكنني أحسنت التصرف، أريدك أن تعود إلى «سرقسطة» ولتكن عيني ويدي هناك، اعمل في خدمة بلاطها بأي شكل حتى وإن كنت جنديًا أجيرًا، ولتقل لهم إنني لم أرض عنك بشكل كاف، وقد عدتُ إلى هواجسي القديمة نحوك، ازرع بينهم الفرقة قدر ما تستطيع، حطمهم ولا تحطم رجالنا.

قبل «لُذْرِيق» يده:

- شكرًا لك يا سيدي، أدام الله بركتك، سأكون في خدمة «قشتالة» إلى أن أموت.

ظهر طيف ابتسامة على وجه «الفونسُ» سرعان ما تلاشت، فقال «لُذْرِيق»:

- ما بك يا سيدي؟

- مات أكثر الفرسان قوة، وأنا في أشد الحاجة إليهم لأتمَّ عملي تجاه «طُلَيْطِلَة»، ولولا احتياجي لبقائك في «سرقسطة» لطلبت منك البقاء، و...

قاطعه «لُذْرِيق»:

- سيدي، سأترك معك فارسًا قويًا، ابن عمي «البار» يمكنك الاعتماد عليه، سيُجد في خدمتك ولن يقصر.

خرجا معًا مجددًا من بوابة القلعة، ثم رأى «الفونسُ» الهدايا التي جلبها له فقال «لُذْرِيق»:

- هذه الخيل العربية من غنائمي، وأمنحها لملكي الذي أرغب في فضله.

أظهر «الفونسُ» الفتور نحوه، وقال بنبرة مثقلة:

- قريبًا على الرجل المنفي أن يسأل ملكه؛ ولا يليق بملك أن يغضب لفترة قصيرة جدًا، ومع ذلك، لأن الخيول عربية فسوف آخذها، وأنا أسعد لشجاعتكم.

ثم مال بوجهه نحو «البار» وقال بصوت جهوري مشجع:

- أعفو عنك يا البار، وأبقيك هنا في خدمتي، وسأعطيكم مرة أخرى كل الأراضي التي كانت لكم، ولكم إذن مني للذهاب والمجيء كما تريدون،

لن أقول شيئًا الآن، إلا أن كل من يريد أن يتبع «رُوي» فليفعل ذلك، وأرواحكم وممتلكاتكم في أمان.

صاحوا جميعهم:

- عاش الإمبراطور الفونسُ!

لم يطل «لُذْرِيق» مقامه في قشتالة، فغادر إلى «سرقسطة»، واستقبله «المؤتمن» بترحاب ومودة، وعاد «الفونسُ» في شن الحملاتِ الجديدة المخربة، التي بدأها منذ أعوام، وفي كل مرة يجتاح بقواته أراضي «طُلَيْطِلَة» من سائر جنباتها، حتى لا يتمكن الناس من تخزين المؤن، ويجردهم من وسائل الدفاع، فخرب الضياع، وقطع الكروم والأشجار، وأباد الزروع، ودمر المحاصيل، وسبي الذرية، ويأسر وقتل وحرق ومثل، وسما السعر، وتفاقم الأمر، وأنكرت الموارد والمصادر، وبلغت القلوب الحناجر، ولم يجد أمامه من يرده عن هذه الأعمال المدمرة وذلك العبث! في ظل جبن «القادر» عن المواجهة، وموقف ملوك الطوائف المخزي الذي لم يتغير، وهكذا عدمت «طُلَيْطِلَة» كل مصدر للعون الحقيقي، كل ذلك والموقف يتحرج، و«الفونسُ» ماضٍ في غزواته المدمرة، حتى أضحت سهول «طُلَيْطِلَة» كلها خرابًا يبابًا.

وبدأ المؤيدون للقادر في الاستيقاظ وهم يرون ثغور «طُلَيْطِلَة» تتهاوى تحت ضربات «الفونسُ» واستجابوا للإمام «المغامي» الذي جمع حوله مجموعة كبيرة منهم، وبدأ بالضغط على «القادر» الذي لم يكن يعبأ بكل ما يدور حوله، وكأن «طُلَيْطِلَة» محصورة في قصره فقط! وكان يقنع ويرضي نفسه برد «الفونسُ» أنه إنما يقتل الثائرين على «القادر» وما يفعله ليس لنفسه، بل من أجل تأمين طُلَيْطِلَة للقادر، حتى لا يخرج عليه من ينتزعها منه، وتساعده في تقبل الأمر «عجب» إذ تقول له:

- إن أهل طُلَيْطِلَة يكرهونك، ويتمنون بوارك، ولا ناصر لك إلا «أذفُنش» وجنده، فإن أنت خسرتهم، فقد خسرت كل ما تملك! وإن لم تكسب قلوب الرعية، فلا تخسر «أذفُنش» وقد عاد بك إلىٰ عرشك، ولو أراد وقتها لانتزعها لنفسه.

وهكذا غررت به «عجب» وغرر بنفسه ولكنه رغم ذلك قال لها:

- سنرضي أهل طُلَيْطِلَة ببضع كلمات، ونظهر لهم أننا نريد الوقوف بوجه «أذفُنش» فنكسب رضاهم، وهو يعلم أن ما يخرج عليه من طُلَيْطِلَة ليس منا.

***

(5)

كانت نفس «المُتوكِّل بن الأفطس» تائهة بين الحسرة والألم، كثيرًا ما يلوم نفسه تركه لـ«طُلَيْطِلَة» بعد أن كان حاكمًا لها، ورغم محاولته في صد «الفونسُ» فإنه كان يشعر بمرارة ما فعل، وأنه ربما يساهم في ضياعها، وكثيرًا ما كان يؤنب نفسه:

- خطأ كبيرٌ! لقد تركتها وكنت أعلم بما سيحدث لها! لا والله يا عُمر، لن تعذر إلىٰ ربك، ولو قُتلت فيها لكان خيرًا لك.

وبدأ يفصح بذلك للمقربين منه، وكان يجلس في حضرته قاضيه «ابن مقانا»، الذي قال له:

- يا أبا إسحاق، هل يغفر الله لي؟!
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ.
- وماذا عن «طُلَيْطِلَة» وما يحل بأهلها وقد تركتهم؟
- لقد كان الأجدر بك أن تدافع عنها، وألا تسلمها إلىٰ هذا الأرعن «ابن ذي النُّون» ولكن قُضي الأمر ولا فائدة من البكاء الآن.
- ما خرجت منها إلا بعدما أيقنتُ أن بقائــي سيسبب إراقة المزيد من دماء المسلمين، فقد اجتمع لـ«ابن ذي النُّون» مناصرون له كما اجتمع لي، وخشيت أن يضربنا «الأذفُنش» بهم ويضربهم بنا، ثم يقضي بعد ذلك على المنتصر منا ويدخلها رغم أنوفنا، فنكون مثل جادع أنفه بيده...

نهض من مكانه، وتقدم خطوات للأمام، واستطرد بعد صمت يسير:

- وما كنتُ أعلم أن «ابن ذي النُّون» سيكون بمثل هذا الخوار، حتى يأخذ «أذفُنش» منه كل هذه القرى والمدن وهو لا يحرك ساكنًا!

- خائن خائر أسوأ من عدو قوي.

- إيهٍ والله، لكأن الله طمس على قلبه وعينه، فلم يعد يرى الشر الذي يريده «أذفُنش» وقد قطع عن «طُلَيْطِلَة» كل أسباب القوة والحياة.

- لقد اجتهدت فأخطأت يا سيدي، فلا بأس عليك.

- يجب علينا الآن أن نتحرك لإنقاذ المدينة ومن بها رغم أنف «ابن ذي النُّون».

- كيف يا سيدي نحرك الجيش وقوات «المُعْتَمِد» تحاصر «بَطَلْيُوس» من الجنوب والأذفنش من الشمال؟!

- لن نعدم حيلة، ولن نقف مكتوفي الأيدي!

***

خريف 1084 الحصار الأخير

تقدم «الفونسُ» بقواته صوب العاصمة طُلَيْطِلَة هذه المرة، و«القادر» لا يحرك ساكنًا، أما في داخل المدينة فقد هاج الشعب ورفض الخضوع لـ«الفونسُ» وعولوا على المقاومة وإرسال الصرخات لباقي بلاد المسلمين، وبدأ البعض يلقي باللوم على «القادر» مريدين البطش به لولا أن العقلاء منهم رفضوا ذلك فقال قائلهم:

- لو قتلنا القادر لتحول بأسنا بيننا، وانقسمت طُلَيْطِلَة حزبين حزب مناهض لـ«أذفُنش» وحزب يتبعه يريدون الثأر للمقتول، وبيننا معاهدون كثر وخونة سيدلون البغي على عوارتِ البلاد.

وعلى مائدة تضم أصنافًا مصنفة من الطعام والفواكه، جلس «القادر» ومعه جاريته «عجب» يأكل بنهمٍ شديدٍ، في وقت كان كثير من الرعية لا يجدون ما يسدون به رمقهم، وكلما قيل له:

- إنَّ أهل المدينة جوعى.

زاد نهمه من الطعام والشراب، وكأنه يريد أن يأكل طعام المدينة وحده، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه خادمه:

- أعيان المدينة، ورجالها يلحون في طلب الإذن بالدخول عليك يا سيدي.

القادر بفم ممتلئ بالطعام:

- دعهم ينتظرون حتى أفرغ من الطعام.

ثم أخذ يأكل ويأكل، حتى لم يعد هناك مجالٌ في معدته، وكأنه يأكل ليومه وغده، وما إنْ انتهى من طعامه، حتى نهض متكاسلًا ومتأففًا وهو يقول:

- حتى طعامنا لم يعد شهيًا، فهؤلاء الرعاع صاروا يقطعون علينا لذات وقتنا فقد نغصوا علينا بكثير طلباتهم حياتنا.

حركت «عجب» رأسها وهي تضم شفتيها وتبدي فضولًا مصطنعًا:

- لا بُدَّ أنهم سيتحدثون إليك في أمر مهم يا سيدي.

تنهد «القادر» ونهض قائلًا:

- هَمٌّ العامة الحصار والطعام، وكأنَّ القادر واجبٌ عليه أن يطعم هؤلاء!

ثم تحرك صوب بهو القصر متكاسلًا، وما إنْ دخله حتى قام جميع من فيه ما عدا «المغامي» فلم يتحرك وقد لاحظ «القادر» ذلك ولكنه لم يجرؤ على توبيخه لمكانته أولًا ولسنه ولضعف القادر وعجزه، فجلس والعيون تنظر إليه، وبادرهم قائلًا:

- أعلم ما جئتم من أجله، ولكنني لم أقصر، وقد حاولت الزب عنكم، ولم أتردد في أن أرد «الأذفُنش» بما يريد من أموال وهدايا، حتى إنني قلت له: إنما أنا رجل أحكم باسمك ورسمك، وما خرجت عن طاعتك يومًا وكل ذهب ومحاصيل «طُلَيْطِلَة» طوع أمرك على أن تتركنا نرسلها إليك. فما كان منه إلا أن أجاب قائلًا:

«إنما هي بلادنا التي سلبتموها منا زمن قوتكم وضعفنا، وقد حان الوقت إلىٰ استردادها، أما تلك الأموال التي تحاول أن تردني بها فهي أموالنا التي سلبتموها منا، وما أخذناها منكم في السابق إلا لنتقوى بها عليكم، أما الآن فلا مكان لكم هنا، فارحلوا».

تنحنح أحد الحاضرين:

- سيدي الأمير، لقد بلغ منا الجهد مبلغه، وأشرفتِ المؤن والطعام في المدينة على النفاد، وخزائن القصر مليئة يا سيدي، فلو أمرت بإخراج الطعام والغلال منها؛ لتبدل الوضع، والعامة يا سيدي لا صبر لهم على

الجوع والمدينة رهن لجوعهم وطعامهم، ومَن يدري فلعل النجدات تأتينا فيكون هذا الطعام سببًا في نجاة المدينة.

انعقد حاجبا «القادر»:

- أمَّا خزائن القصر فخاوية وليس بها ما يكفي.

المغامي بلهجة حادة:

- أخرج ما في القصر أيها القادر! فقد بلغ الصبر مبلغه، وائذن للجند بالخروج من الأبواب، ومهاجمة الأعداء، فلا خير في محصور، ولا خير في سيف لا يدافع عن دينه.

- كيف أخرج لهم؟ والله، لئن فعلت ليدخلنها القشتاليون علينا!

ضرب «المغامي» بعصاه الأرض واشتد في لهجته:

- الموت تحت ظلال السيوف خير من الموت جوعًا أيها القادر! وإن كنت تخشى الموت والهزيمة، فلتعلم أن أول الخزلان الخوف، وأننا لا ننتصر بالسيف، وإنما بالقلب الذي خلفه والعزم الذي يحمله، وأما العدد فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

حاول «القادر» أن يحافظ على ثباته أمامهم:

- سنراسل ملوك الأندلس، فلرُبما هبّوا لنجدتكم وحينها سنفتح الأبواب ونحصر جيش «قشتالة» بيننا وبينهم.

نهض المغامي وقال بوجه متجهم:

- أصلح نيتك وعزيمتك أيها الأمير، قبل أن يدخلها عليك القشتالي، ووقتها لن تجد ملجأ من الله.

ثم خرج بينما عضَّ «القادر» على أسنانه، وقد امتعض وجهه وقال في نفسه:

- لولا ما أنا فيه لبطشت بك أيها الشيخ العجوز، وما راعيت فيك أحدًا!

***

(6)

في كل يوم تطلع فيه الشمس كان الجيش الجبار يستمر في التدفق من كل حدب وصوب، ومن «فرنسا» عبرت القواتِ الأوربية والمتطوعة، كلٌ يريد الانضمام إلىٰ الحرب المقدسة التي يقودها «الفونسُ السادس» ضد مسلمي الأندلس، حتى إذا وصلوا إلى حدود «طُلَيْطِلَة» رأوها فوق رابية صخرية مرتفعة وحولها بطاح شاسعة فسيحة الأرجاء، مزروعة قمحًا، ومغروسة زيتونًا، يسيل فيها الماء تاركًا الرّملَ وصغارَ الحَصَى بينها، يحيط بها عند الأفق هلال من الجبال العالية، ويجري عند سفحها ويكتنفها نهر نشيط ضحَّاك يحفها من ثلاث جهات الشرقية والجنوبية والغربية فكان كوعاءٍ حامٍ، أسوارها لا يمكن تسلقها أو ثلمها، وقصبتها عالية حصينة في غاية المنعة، وأبنيتها عتيدة أزلية، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد، والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري، وأضافت الناعورة لها صمودًا وهي تُصعد الماء إلى أعلى القنطرة، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة، وكانت المدينة قد أغلقت أبوابها في وجه «الفونسُ» الذي وقف أمامها عاجزًا عن اقتحامها، وتقدم منه سِسناندُ:

- هل سنعسكر هنا يا سيدي؟

نظر إليه وبطرف ذقنه أشار:

- بل في «المنية المنصورة» الواقعة في منحنى نهر «التاجُة».
- تقصد يا سيدي، «منية الْمَأْمُون» المسورة التي زودها بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة، وجعل منها جنة يخلد إليها أيام أنسه ولهوه، لقد علمت أنه كان يحشد إليها كل حسن، ويباهي بها جنة عدن.
- رأيتها من قبل وأعلم كم ينعم نازلها بالمتعة والراحة، ولكن ما جئتُ إلىٰ هنا لاستراق الملذات، وإنما لفتح تلك البلاد وإعادتها إلىٰ حيث كانت قبل أربعة قرون، وما نزولي في تلك «المنية» إلا لحصانتها ولكي يعلم أهل «طُلَيْطِلَة» أن الملك الفونسُ الآن في قصر ملكهم الأعظم.

ثم لوى رسن جواده وتحرك، وعندما وصلوا إلى مخاضة نهر «التاجُة» المتضخم وقتها وكان سيله جارفًا، وكأنه أول المدافعين عنها، سقط به من

الجنود من سقط ميتًا، وخاف أشجع الفرسان من المرور عبره، فقام راهب في المعسكر يمتطي بغلًا، وقاد الطريق بحرص ومروا خلفه بأمان...

ونزل «الفونسُ» في «منية الْمَأْمُون» وما كاد يجلس في غرفة يعكس زجاج نوافذها الملون أشعة شمس الظهيرة، حتى دخلت عليه الملكة «كونستانزة» وهي تمسك صليبًا كبيرًا وفوق رأسها تاج عظيم، وكانت ملكة متعصبة جدًا لنصرانيتها ترى وجوب طرد وقتل كل ملسمي الأندلس حتى لا يتسللوا إلىٰ «الفرنجة» بلادها، وكان «الفونسُ» يعرض عنها، ويراها دون النساء ولولا حاجته لدعمها، لتزوج غيرها فهي لم تفلح في إنجاب وريث عرشه للآن، ومن جهة أخرى يخاف إن طلقها أن يَغضب لها ملوك «فرنسا»، فيخسر بذلك حشدهم المقدم.

تقدمت «كونستانزة» واقتربت منه، وكلما نظر إليها ضرَّس أسنانه:

- أما زال الملك على حاله من غضبه من الملكة؟

- تعلمين سموك، ما أنا فيه من مهام ومشاغل تمنعني عن أمور أخرى.

اقتربت «كونستانزة» أكثر منه، وبدأت تتدلل عليه:

- ولكني أشتاق لك، وقد هجرتني لشيء لا يد لي فيه، فكيف أصنع بإرادة الرب؟

- لن نصنع شيئًا يا كونستانزة، فدعيني وشأني الآن.

أطلت بوجهها من شرفة صغيرة مخرمة مغلقة بشبكات من خشب الصندل والأرز، وظهرت السماء الصافية بلونها الأزرق القوي، وسقط لهيب أشعة الشمس الحارقة على أشجار البستان، كان كل شيء صامتًا، الرياح ساكنة ولم يتحرك غصن واحد، وفي المسافة الممتدة تمكنت من رؤية طُلَيْطِلَة جالسة على ارتفاع مثل ملكة على عرشها محمية بأبراج متينة على طراز الخلافة، وبسورها المتين، وفي أعلى نقطة فوقها حصن القلعة بأبراجه القوية وقبابه العالية.

- مدينة حصينة! كيف لمن فيها أن يسلموها؟!

أمسك «الفونسُ» بكأس خمره:

- يسلمونها عندما تنهزم قلوبهم، وتختلف أفئدتهم، ويرون فينا قوة لا تهزم وإرادة لا تنكسر، حينها يوقنون بالهزيمة فينهزمون بلا سيف، ويفرون بلا خيل... الأسوار لا تحمي الجبناء ولا تحفظ المدن إلا السيوف، وسواعد تحملها وقلوب تتبعها.

عادت «كونستانزة» وجلست على يمينه، ونظرت إلىٰ سقف القصر:

- ولكن تلك هزيمة كبيرة، فكيف نصل إليها ويصلون؟

- لقد هُزموا بالفعل، وإلا ما تحصنوا بتلك الأسوار التي لن تمنعهم، هُزموا عندما عدموا رجالًا يحكمونهم وصار أمرهم إلىٰ «القادر» وأمثاله! وتلك فرصتنا التي علينا ألا نضيعها قبل أن يستفيقوا ويستعيدوا رشدهم، حتى إذا حدث لم تكن لهم في الجزيرة موضع قدم.

- يعنى ذلك أنك لا تخشى «القادر» إن باغتك بجيش؟ وهو خلف أسواره محتمي بها.

- إن كان عليَّ أن أخشى شيئًا فهو شعب «طُلَيْطِلَة» وهذا قد فرقته الفتن وغلبت عليه شهوته.

***

(7)

المدينة المحصورة

كانت الدموع تنسال من عيني «فاطمة» وهي تلتزم الصمت وتحاول إخفاءها ومغالبتها، ولكن دون جدوى فقد انتبهت لها حفصة:

- هوني عليك يا أماه! والله لن تخرج الدموع «زياد» من سجنه، وهو بالنهاية لم يفعل إلا ما حفظه عنك، ألم تغرسي فيه يومًا حب الجهاد وحب بلاده؟ ألم تخبريه كيف استشهد أبوه وجده؟ ألم تربيه على تحمل صعاب الأمور ومشاق الحياة؟

- لو كان الأمر كذلك ما حزنت يا بنيتي؛ والله، لو أن القشتاليين هم من سجنوه أو حتى أسروه لما حزنت مثل حزني الآن عليه؛ إذ كيف

يصل بنا الحال إلىٰ تخوين الأمين وتأمين الخائن؟! إن كانتِ السجون لـ«زياد» وأصحابه، فمَن يحافظ على تلك الديار ويحميها؟

طُرق الباب طرقات خفيفة، فنظرت «فاطمة» إلىٰ ابنتها:

- باكرًا أن تعود ليلىٰ من الدكان! عله طارق يخبرنا أحوال زياد؛ انهضي للباب يا بنتي.

نهضت «حفصة» وفتحت الباب، فإذ بملثم لا يظهر من وجهه أي شيء، نظرت إليه بقلق، فرفع اللثام لحظة وأعاده:

- أنا أبوك.

فما كان منها إلا أن أفسحت له مُلقية بنفسها بين ذراعيه، وبتوجس نظرت إلىٰ الشارع، فلم تجد أحدًا، ودخل وتقدم صوب «فاطمة» التي استقبلته باسمة:

- جعفر!

- أجل، وقد أتيت لأطمئنكم على زياد.

- هل التقيته؟

- لم أستطع فالشبهات ما زالت حولي، وقد صرتُ مطلوبًا مثله.

- وكيف عرفت أخباره؟

- من أحد أصحابي من رجال الشرطة، فاطمئنوا؛ هو بخير.

- آهٍ يا زياد، ويلي عليك يا ولدي.

تجشم «جعفر» وغالب دموعه:

- هوني عليك يا فاطمة، واصبري واحتسبي... المصاب كبير، وليس علينا وحدنا، لو رأيت ما حل بالمدينة من شمول البلوى وعموم الضراء، لاعتُصر قلبك؛ إن سوق الدواب لم تشهد خلوًا كهذا من قبل، وحتى التجار في سئم من ارتفاع الأسعار، والأعجب يا فاطمة، أنه لم ترفع الغلة من جُرْن البيدر حتى أسرع فيها الفساد، وقد كانت الحنطة تقيم في «طُلَيْطِلَة» مخزونة خمسين سنة لا تتغير، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع أكلها.

شهقت «فاطمة» وقالت بدهشة وأسف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله... إن ذلك بمشيئة الله تعالى، ولن يكون إلا ما أراده!

أمسك يدها وربت عليها بحنو:

- أجل يا فاطمة، إن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر، ونفع وضر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره، ولا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به.

همَّ بالانصراف، ونظر في عين «حفصة»:

- راقبي لي الطريق.

- أمرك يا أبت.

ثم خرجت ففتحت باب المنزل، فإذ بـ«ليلىٰ» تندفع منه مهرولة:

- أبشري يا أماه... أبشري؛ لدي خبر سيشفي جميع أوجاعك.

حفصة بلهفة:

- ما هو؟

- سيأتي «زياد»؛ علمتُ من البعض في السوق أنه عمَّا قريب سيكون هنا بين أيدينا، لقد عزم «القادر» على إخراج كل من في السجون؛ ليدافعوا عن المدينة، وجئتُ لأكون أوَّل مَن يخبركم هذا النبأ العظيم.

***

(8)

أمام سجن المدينة وقف «جعفر» وهو يمتطى جواده الأدهم، وقد رفع اللثام عن وجهه فأخيرًا لن تطارده الشرطة بعد أن أبطل «القادر» قرارته بينما «الورهاء» لا أحد فوقها، وجعفر يراقب باب السجن ينتظر الخارج منه حتى إذا صهلت نظر إليها وقال:

- لقد آن وقت خروج صاحبك فقريبًا تسعدين، ابتهجي أيتها الورهاء.

تأخر الوقت وتوسطتِ الشمس كبد السماء، وراح جعفر يراقب المكان والعرق يتصبب من جبينه، ولا يمل من الانتظار، وفجأة فُتح الباب، وخرج «زياد» من سجنه فهرول إليه «جعفر» واحتضنه:

- حمدًا لله على سلامتك يا رجل!

نظر زياد يمينًا ويسارًا:

- لقد طالتِ الغيبة كثيرًا يا أبا حفصة، وفاتتني أمور كثيرة.

ربت جعفر على كتفه:

- سنعوض كل ما فات، هيا بنا.

تقدم زياد صوب الورهاء وأمسك برأسها يداعب خصلاتِ الشعر فيه، وهي تحك رأسها في صدره فقال جعفر:

- حتى الورهاء افتقدتك!

- إنها فرس أصيل، والأصيل لا ينسى صاحبه أبدًا.

ثم تحركا و«زياد» ينظر يمينًا ويسارًا، وقد هاله حال «طُلَيْطِلَة» وما آلتِ إليه فقال بعد أن رأى الخوف والرهبة في وجوه أهلها:

- كنت أظن أني سأخرج من السجن إلىٰ الحرية، فإذا بي أخرج من سجن لألقى سجناء!

- هكذا حال المحصور يا زياد، لقد دب الخوف فيهم مع وجود «الأذفُنش» على الأبواب، وهم يتوقعون الشر في كل وقت.

- الخوف يهدم ويؤخر، وإنما يصنع الرجل مصيره لا يصنعه غيره، فلو كانوا كما تقول، لاستعدوا لما هو آت، هذا خير لهم من ترقب لهزيمة أراها في أعينهم.

- ألا تترك الآن أمور «طُلَيْطِلَة» وتسارع الخطى صوب بيتك لترى زوجك وأمك؟

- حسنًا، هيا بنا.

- سأذهب إلى الدكان؛ فقد اشتقت إليه، على أن نلتقي ليلًا.

لكز بطن «الورهاء» وانطلق يشق الشوارع، حتى إذا وصل إلىٰ الدار سحب رسنها وبينما ينزل عن ظهرها، صهلت، ففتحت «ليلىٰ» الباب وكانت تفوح منها عطور منعشة لوزية وتزينت كعروس بهية، وقالت وهي تنظر إليه بفرح جارف والبهجة تملأ وجهه:

- عرفت من صهيلها قدومك، فمنذ فارقتها وهي لا تفعل، وكأنها تشاركنا الحزن على فراقك يا حبيبي.

دخل إلىٰ البيت وعانقها، وزاد من ضمها معترفًا:

- لقد اشتقت لك شوقًا كبيرًا.

اكتسى وجهها بصبغة الحب الحمراء:

- لم نعرف للحياة طعمًا في غيابك يا زياد.

ابتسم مشفقًا، وأدار عينيه بين جنبات الدار قائلًا بلهجة استغراب:

- أين أمي؟

- هي بالداخل، ولكنها مريضة فلا تجزع.

سارع الخطى صوب غرفة والدته التي ما إن رأته، حتى اجتهدتِ النهوض لاحتضانه، ولكن المرض حال دون ذلك، فجلس واحتضنها وقبل يدها وقال:

- اللعنة على القادر! منعني برك، وحرمني دعواتك والبقاء عند أقدامك.

- الحمد لله... أنا بخير يا بني ما دمت كذلك، لقد دعوتُ الله كثيرًا ألا أموت قبل أن تكتحل عيني برؤياك.

***

كانتِ الشمس في كبد السماء عندما كان «زياد» وأصحابه يتدربون على رمي السهام فأمسك «جعفر» بسهم وشد القوس وضرب بقوة، فأصاب هدفه ثم ضحك:

- أما زلت تريد أن تتحداني يا زياد؟

- أجل.

- إذًا فلترني ماذا تستطيع أن تفعل؟

شد «زياد» القوس بعدما أبرى السهم، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم أطلق سهمه يشق الهواء حتى أصاب آخر ورقة في الشجرة التي كانت هدفًا لهم. نظر إليه «جعفر» مبتسمًا:

- كنت أظن أن السجن قد أضاع مهارتك.
- لا تضيع مهارة ممن يطلبها، ولا يفقد هدف ما سعينا خلفه، ولا تنس أن جدي كان أمهر من قذف السهم في كل الأندلس.

ثم جلس على أحد الأحجار تحت الشجرة، وجلس «جعفر» جواره، وبينما يتحدثان إذ سمعا صوتًا عاليًا:

- قُتل الوزير ابن عمَّار، قُتل الوزير ابن عمَّار!

فأردف زياد:

- أتسمع ذلك؟
- هذا يعنى أن السفراء قد عادوا.
- أرجو أن يكونوا قد نجحوا في إيقاظ «المُعْتَمِد» من غمار أحلامه وأطماعه، وأن يكف عن غزو جنوب «طُلَيْطِلَة» وينهض لرد أذفُنش عنا.
- سنعرف كل شيء عما قليل، وإني لأرجو مثلك لما قد يحل بالأندلس قبل فواتِ الأوان.
- هيا بنا لنعرف ما الذي دار؟

تحركا حتى اقتربا من أحد السفراء وكان عائدًا من قصر «ابن ذي النُّون» وقد ظهرت عليه علامات الحزن والأسى، فاستوقفه «زياد»:

- ألا تخبرنا ما الذي جرى بينكم وبين المُعْتَمِد؟

تنهد الرجل ونظر في جنبات «طُلَيْطِلَة» ثم ارتد ببصره صوب «زياد» وقال:

- ما إن وصلنا إلىٰ «إشبيلية» حتى مُنعنا من الدخول إلىٰ أميرها، فلما سألنا لماذا علمنا أنه قتل «ابن عمَّار» وأنه في حزن عظيم، فأخبرونا أن نأتي غدًا صباحًا، فنلتقيه.

- إن كان صديقه وحزن عليه هكذا، فلمَ قتله من البداية؟ هل لما فعله «ابن عمّار» من محاولة الاستقلال ببعض مدن «مرسية».

- لم يكن لذلك السبب فقط، بل إنها «الروميكية»!

- تلك التي عشقها «المُعْتَمِد» وصارت حديث الأندلس.

- أجل.

كان «المُعْتَمِد» يجلس في إيوان قصره «المبارك» وحوله وزراؤه ومنهم «ابن زيدون» وقائده «خلف بن نجاح» الذي تحدث:

- عدتُ للتو من زيارة «ابن عمَّار» في سجنه، وقد حملني قصيدة يا سيدي، وألح عليَّ في نقلها لكم، بل وأقسم عليَّ ذلك بعدما أسمعني إياها.. ووالله، لقد وجدت فيها كلامًا في الاستعطاف يذيب الجماد، وتعالج بمرامها جراح القلوب، وتُعَفي على هضباتِ الذنوب...

شرد «المُعْتَمِد» بذهنه وتذكر خيانة «ابن عمَّار» له في «مرسية» بعد أن ولاه إياها، وما آلمه أكثر وصول رسالة بعث بها «ابن رويش» واليه على «بَلَنْسِيَة» وهي قصيدة بخط «ابن عمَّار» نفسه استطاع يهودي يأخذها من بين يديه أثناء سكره، وأن ينقلها إلى «ابن رويش» وفيها أبيات لاذعة وهجاء فاحش للمعتمد وأم بنيه زوجته «اعتماد»:

تخيرتها من بناتِ الهجين ... رميكية ما تساوي عقالًا

فجاءت بكل قصير العذار ... لئيم النجادين عمًّا وخالًا

قصار القدود ولكنهم ... أقاموا عليها قرونًا طوالًا

سأكشف عرضك شيئًا فشيئًا ... وأهتك سترك حالًا فحالًا

أراد «خلف» استيضاح موقفه:

- إن أراد سيدي فهي معي وإلا أردها له، فكأنَّ شيئًا لم يكن.

تردد «المُعْتَمِد» قليلًا، ثم قال:

- بل اِقرأ ما فيها.

وقف «خلف» وتقدم صوب «المُعْتَمِد» ثم فتح الرسالة وقال:

سَجاياكَ إن عافيتَ أندى وأسمَحُ ... وعُذرُكَ إن عاقبتَ أجلى وأوْضَحُ
وإن كان بيــن الخُطّتَيــن مَزيَّــةٌ ... فأنــتِ إلــىٰ الأدنى مِـن اللــهِ أجنَحُ
حَنانَيْكَ في أخذي برأيِك، لا تُطِعْ ... عُدَاتي وإن أثنَوا عليكَ وأفصَحوا
وإنّ رجائـي أنّ عنـدك غيـر مـا ... يخوض عـدوي اليوم فيـه ويمرحُ
ولـم لا، وقـد أسـلفت ودًّا وخدمـة ... يكرّان في ليل الخطايا فيصبح؟
وهَبْنيَ قد أعقَبتُ أعمالَ مُفسِدٍ ... أمـا تَفسَـد الأعمـالُ ثُمَّـتَ تَصلُحُ
وماذا عسى الأعداءُ أن يَتَزيَّدوا؟ ... سِوى أنّ ذنبي واضحٌ متصحّحُ
نعم ليَ ذنبٌ، غير أنّ لِحلمِه ... صَفَاةٌ يَزِلُّ الذنبُ عنها فيسفَحُ
أقِلْني بما بيني وبينك مِن رضًا ... لـه نحـو رَوْحِ اللـهِ بـابٌ مفتَّـحُ
وعَفِّ على آثارِ جُرْمٍ جَنَيتُه ... بهَبّـةِ رُحْمى منك تمحـو وتُمصِحُ
ولا تلتفِت رأيَ الوُشاة وقولِهم ... فـكلُّ إنـاءٍ بالـذي فيـه يَرشُـحُ
سيأتيكَ في أمري حديثٌ، وقد أتى ... بـزُورِ «بني عبـد العزيز» موشَّـحُ
وقالـوا سـيَجزِيه فُـلانٌ بفِعلِـه ... فقلتُ وقد يعفو فُلانٌ ويَصْفَحُ
ألَا إنّ بطشًـا لــ «لمؤيَّـد» يُرتَجى ... ولكـنّ حِلمًـا للمؤيـد أرجَـحُ
وبيـن ضلوعـي مـن هـواه تميمة ... سـتنفع لـو أن الحمـام يجلّـح
سـلامٌ عليـه كيـف دار بـه الهوى ... إلـيّ فيدنـو، أو علـيَّ فينـزَحُ
ويَهْنيـهِ إن مـتِ السلـوُّ فإننـي ... أمـوت ولـي شـوق إليـه مبرِّحُ

وبينما يقرأ الرسالة، ظهر الطرب على وجه «المُعْتَمِد» الذي كان يكن الكثير من الحب لــ«ابن عمّار» حتى فكر أن يعفو عنه، ولما لاحظ الوزير «ابن زيدون» ذلك وكان يكن كراهية شديدة لابن عمّار ويرى فيه منافسًا له تنهد وقال:

- ما أتفَه قَولَ الخائن: وبين ضُلوعي من هواهُ تميمةٌ ستَنفَع لو أن الحِمامَ يُجلَّحُ... أي معنى أراد؟ ما قال شيئًا ولا كاد!

أظهر «المُعْتَمِد» دفاعه عن شاعرية «ابن عمار»، ومعرفته بنواحي الجودة في الشعر، دون أن تؤثر العداوة في أحكامه، فقال لهم:

- مهما سلبه الله من المروءة والوفاء، فلم يسلبه الشعر، إنما قلب بيت الهذلي المخضرم:

وإذا المنيَّـــة أنشـــبَت أَظفارَهـــا ألفَيـــتَ كلَّ تميمـــةٍ لا تَنفَـــعُ

حاول انتهازيون آخرون أن يتخذوا من النقد وسيلة للبلوغ إلى رضى «المُعْتَمِد» وهم يعلمون ما بينه وبين صديقه القديم من ود مفقود، فقال أحدهم:

- ما معنى: ولم لا، وقد أسلفت ودًّا وخدمة... يكرّان في ليل الخطايا فيصبح؟ وهلا بدل هذا اللفظ بسواه؟!

فتعبث به «المُعْتَمِد» متحديًا:

- غير العبارة إذن!

وهكذا استعصَت القصيدة حتى عن ذم الكارهين، وحرَّكَت في نفس «المُعْتَمِد» ذكرياتٍ قديمة، وكان قد تهيَّأ لجلسة خمر، فأرسل إلى «ابن عمَّار» أن يأتي وطلب ممن أَرْسَله ألا يراه أحدٌ وهو قادم به، وأَخلَى «المُعْتَمِد» القاعة وانفَضَّ القوم وهم لا يعلمون بما أسرَّه للخادم.

وحضر الصديق الخائن، وجلسا معًا وانسابت إلى ذهنهما ذكريات سالف عهدهما صداقة خمسةٍ وعشرين عامًا حتى لَتَكادُ النفوس أن تَصفُو ويُشرق الصباحُ، وينصرف «المُعْتَمِد» إلى جَناحِ نَومِه متأثرًا بعد أن عقد العزم بقرارة نفسه أن يعفو عن صاحبه، ولم يشر له بذلك صراحةً، ولكنه أوحى إليه بإيحاءات تدل على نيته، وطلب إليه أن يتفاءل خيرًا، وأن يكتم أمر زيارته له، وعاد «ابن عمَّار» إلى السجن والفرحةُ تكاد تنفَجر من فؤاده، فلم يملك نفسه، فبدأ بمراسلة أعدائه من سجنه يتوعّدهم بعفو «المُعْتَمِد» عنه، فما إن علم «المُعْتَمِد» بذلك حتى صرخ صرخة غاضبة، وذهب إلىٰ السجن، فدخل على «ابن عمَّار» وهو مقيد في السلاسل، وما إنْ رأى الأخير الغضب على وجهه

وبيديه الطربزين الذي أهداه إليه «الفونسُ»، حتى تقافز الفزع من عينيه، وأخذ يزحف وقيوده تثقله حتى ارتمى على رجليه يقبلهما ويبكي بكاء مرًا، ولكن «المُعْتَمِد» أخذ يضربه ويضربه حتى فلق رأسه وترك الطربزين فيها، وخرج وهو جثة هامدة تضرجها الدماء، ثم أمر به فغُسل وكُفن، ودُفن في ركن من «القصر المبارك».

ثم استطرد الرسول وقال:

- ثم دخلنا عليه في اليوم الثاني، فالتقانا بشدة وجفاء وقال لنا:
- بيني وبين ملك قشتالة عهود لا أقطعها، ولا أنزع يدي ما لم ينزعها.

هتف «زياد» في استنكار وحنق:

- عهود!
- أجل، قال لنا ذلك.
- أي عهود هذه التي تجعله يقف صفًا إلىٰ صف بجوار مَن يعتدي على أهل دينه وأمته؟! أي عهود تلك التي تخول له الخيانة وتجعلها شرفًا؟! ما أقصر نظر هذا المُعْتَمِد. والله، إن استعان «الأذفُنش» به اليوم علينا لينقلبن عليه غدًا، فهؤلاء قوم لا عهد لهم ولا ذمة، والأعجب أنه قتل من صنع له تلك المعاهدة فكأنه قتله ليحفظها!

***

(9)

سُمع صوت صرير فتح الباب فتعلقت أبصار «ليلىٰ، وحفصة» به، ودخل «زياد» حاملًا بعض الأعشاب، وقد ظهر عليه آثار التعب، وبابتسامة على وجهه توجه إلى غرفة والدته التي كانت طريحة الفراش منذ عدة أيام، وقد تبدلت أحوالها، وظهرت عليها علاماتُ المرض فشحب وجهها، وامتقع لونها:

- هذه الأعشاب انتقيتها بنفسي من الحديقة الملكية بعدما سمحوا لي بذلك، وقد ذهبت إلى عيادة «ابن بصّال» واستشرتهم يا أماه، فأعطوني تلك الوصفة، وشددوا على تنفيذ شرط «ابن وافد»، وهي قبل أن أعدها لكِ، تأكلين جيدًا.

- لا شهية للطعام يا بني.

دنت «حفصة» منها، وأمسكت بيدها في حنان:

- إن لم تأكلي للشهية، فلأجلنا يا أمي، فلا نطيق أن يلحق الأذى بجسدك.

أخذت «ليلىٰ» الأعشاب من «زياد» وتحركت صوب موقد النار، فوضعتها عليه، بينما حاول «زياد» أن يطعم والدته التي قالت وهي تئن من الألم:

- لا تخش على أمك يا بني، ولا تنشغل بها عن واجبك وجهادك، والله لأن أموت وتحيا «طُلَيْطِلَة» خير من أن أعيش، وأطرد منها، ويدخلها اللعين «أذفُنش» ويحول مساجدها كنائس، فاخرج يا ولدى، ولا تنشغل بغير واجبك، أما أمك، فلن تغادر بجسدها المكان!

مسحت بباطن كف يدها اليمنى على ظهره وكتفه:

- خذ قوس جدك، وعد لي منتصرًا.

كانت مشاعر «زياد» مترددة بين خوفه على أن يباغتها ملك الموت وهو على أسوار «طُلَيْطِلَة» وبين أن يدخل القشتاليون وهو في بيته، فوقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل؟ ولكن نظرات أمه، وقول ليلىٰ:

- لن ينفعنا شيء، ولن يغني عنا وجودك هنا إن هم دخولها علينا، فقم يا حبيبي وأطع أمر والدتك، وقبل ذلك أمر ربك.

جفف دموع خوفه، وأمسك بيد «ليلىٰ» في توسل:

- لا تدعيها بمفردها، اسقيها الدواء، واهتمي بها، فوالله إنها أغلى عندي من روحي، ولولا طُلَيْطِلَة وأمرها ما قمت عن قدميها.

طبع قبلة على جبين ويد والدته، قبل أن يخرج حاملًا قوسه وسيفه، ليلتحق بالمجاهدين على أسوار المدينة الخالدة. ويتفقد بنفسه الحراسة، وخاصة عند الأبواب فبدأ بمدخل المدينة الرئيس باب السهل ومن ورائه القنطرة، وضاعف الحراسة على باب الشقراء، ثم انتقل إلى باب الشمس الذي يقع في الشرق، ثم دار مع السور وعرج إلى الجنوب لينظر إلى باب الحديد، وباب الدباغين اللذين يشرفان على نهر التاجة.

***

لم ينتظر «لُذْرِيق» طويلًا، وحضر بقلب ملئ بالوفاء، ليساند إمبراطوره في أخذ «طُلَيْطِلَة»، وصل برفقة مئة فارس، من بينهم أشجع الفرسان الذين ساعدوه في «سرقسطة» وكان لمقدمه رفع للروح المعنوية، ففرح «الفونس» به وقدم له استقبالًا، وكشف عن التقدير الذي يكنه له، وفهم جنود المشاة أنه ليس لديهم خيار آخر سوى احترام القائد اللامع، وهذا ما شجعهم عليه «ابن أردُنيو» الذي لم يظهر له عداء.

وبعد سماع القداس، أدى «لُذْرِيق» صلاته، وسهر مع «الفونس» في احتفال ماجن وكل ممسك بكأسه، وعروض للقرود بهلوانية يشاهدونها، تفحص «لُذْرِيق» الوجوه ثم همس قرب أذنه وأشار بطرف إصبعه إلى جانب الرهبان الفرنسيين:

- إنهم يشبهون القردة بتلك الهيئة، يحلقون اللحية ووسط الرأس.
- أطبق فمك يا روي، ما هذا الهراء؟
- لماذا جلبت هؤلاء إلينا؟ فلا أرى لهم أي أهمية، كما إنهم لا يشبهوننا لا لسانًا ولا شكلًا ولا مضمونًا.

سخر «الفونس» وهو يمزح:

- أكل هذا بسبب اللحية؟!
- إنَّها ذات قيمة حقيقية عند أسلافنا، ولكن من يراهم هكذا، وهم محاطين بالجند والمحاربين، يظن أنهم أتوا ملوكًا، ونحن خدم لهم.

أطاح «الفونس» الكأس من يده واحمر وجهه:

- حذارٍ أن تتجاوز يا رُوي، عُد إلى رشدك.

سمعهما «ابن أنسور» فتدخل لتهدئة الحوار وسط دهشة الحاضرين، ولكن «الفونسُ» ترك الحفل وسار وحيدًا، فتبعاه خارجًا وقال «لُذْرِيق»:

- لماذا تغضب من الحقيقة؟ ألستَ ملكًا للقوط؟ ألا تعلم أننا لا ننتمي إليهم؟ أنت بذلك تنتقص من سيادة قشتالة، وتدخلنا في تبعيتهم، وهم بنو الروم أعدؤنا مُنْذُ أَمَدٍ بَعيدٍ، وما حضروا بعدتهم إلا طمعًا في ثروات الجزيرة لا حبًا فينا.

جحظت عينا «الفونسُ» واتقدتا احمرارًا، وصرخ بعروق منتفخة:

- لم يعد غير الشحاذ قائد اللصوص الذي يعلمني السياسة!

كظم «لُذْرِيق» غيظه، وعاد يرد بإصرار:

- إنَّ هؤلاء الرهبان الذين يدعون العبادة والتنسك حريصون كل الحرص على النفوذ والسلطة، ويبعدون النبلاء شيئًا فشيئًا، حتى سيجعلون منهم صفًا ثالثًا أو لا شيء، أتستطيع أن تخبرنا أين هما الدوقة «أُرَّاكة، والبيرة» مما يحدث؟ ألم يعهد إليهما الملك «فِرْنَانْدُ» سلطة الكنائس والأديرة؟

ما زالت أوداج «الفونس» منتفخة وعيناه تلقي حسرة إلى الصليب المحفور على مقبض سيف «لُذْرِيق»:

- مَن يسمعك تتحدث هكذا يظن أنك من المحمديين... وما العجب وهم ينادونك بالسيد؟! لقد صرت مستعربًا وضيعًا يا رُوي.

- أن أحكم العرب وأصير سيدًا لهم، أفضل عندي من أن أصير خادمًا لمن يتبرزون في الطرقات.

لم يتمالك «الفونسُ» نفسه، فهجم عليه، وأخذ بتلابيبه مثل وحش يزأر، وكاد أن يلكمه في وجهه، ولكنه تراجع وقال وهو يضغط ما بين فكيه:

- احفظ لسانك، هؤلاء مَن سيُدخِلوننا طُلَيْطِلَة، وحين ينتهي أمرها، لتعد من حيث أتيت، فلا أريد أن أرى وجهك أو أسمع رأيك!

بصعوبة شديدة انتهى الجدال بينهما، وما إن بزغت خيوط الشمس البيضاء، وظهر السهل بوضوح حتى كان «ابن أنسور»، غير قادر على احتواء نفاد صبره، فركب حصانه الناري، ودفعه نحو باب «الشقراء» ومن ورائه ثلة من الجند.

أدرك «زياد» وأصحابه من مكانهم أن فارسًا من المعسكر القشتالي قادم إليهم، فاستقبلوه برشق السهام، تفادى «ابن أنسور» الخطر بمهارة، وهو يضرب الأشجار بفأس، ويمزق كل ما نبت من الأرض وهو في طريقه للحصن، ولما اقترب من الباب المغلق، عاد أدراجه، وعرفه «زياد» فخلع خوذته، ومسح بضع حبات من العرق تجمعت على جبينه، وقال لجعفر:

- هاك ابن أنسور.

- الرفيق اللعين لأذفنشُ!

- أجل، أتدري من أي عائلة هو؟ إنه سليل «بنو غوميس[1]» أسرة قشتالية قديمة كانت قد استعربت ومنهم من أسلم وخدم بولاء «بني أمية» حتى سموا بها، وما زالت تحتفظ باسمها رغم سقوط الخلافة! وهم الآن يحاربون ليسقطونا.

- لا فرق بينه وبين «بلاجيوس» إذًا، آكلونا وشاربونا، وشهدوا أن المسلمين من خير الناس وعشنا جميعنا بسلام، ولما تبدل الحال، ظهر خبيث نياتهم!

***

(10)

كانتِ الأصوات تتعالى داخل السوق بينما جند «القادر» يحاولون ضبط الأسواق، ومعهم المتطوعة من رجال «المغامي» وتلاميذه الذين لبسوا السلاح، وعملوا على توزيع الأقوات للجميع دون تمييز، و«زياد» يتقدم بعض أصحابه لتهدئة الناس، وضبط الأمور، وقلبه مضطرب بين خوفه على أمه، وجهاده في سبيل الله.

وفي وسط السوق كان «موسىٰ الطويل» يقف وقد ظهرت عليه علامات عدم الرضا وهو يقول محتدًا:

- إلىٰ متى سنظل هكذا؟ الأطفال جوعى والطعام في المدينة قارب على النفاد، أم تريدوننا أن ننجو من سيف القشتالي لنموت بالجوع هنا.

تحرك «زياد» صوبه:

- تعلم ما نمر به من محن يا موسىٰ، والواجب على أمثالك أن يعينوا الناس على الصبر، لا أن يعاونوا الشيطان علينا!

موسىٰ مستهزءًا:

- أعاون الشيطان!

---

(1) Gomes.

- عندما تتحدث عن الطعام ونفاده، فأنت تساهم بذلك في تأليب الناس، ونحن الآن بحاجة إلىٰ التعاضد، لا إلىٰ التفرق والاختلاف، ولا يمنعك زواجك من كاثوليكية أن تتذكر أنك مسلمٌ من أهل تلك البلاد!

ارتبك «موسىٰ» وارتعشت شفتاه:

- ماذا تقصد؟ وماذا تقول؟ أنت لست أكثر مني وزوجتي حبًا لـ«طُلَيْطِلَة» وترابها، ولو أردنا أن نكون مع «أذفُنش» ما عدنا يوم أن عاد «القادر» إلىٰ هنا.

- حقًا يا موسىٰ! ألا تعلم ماذا يقول صهرك بِلاجيوس من دعوات باطلة؟

موسىٰ متلعثمًا:

- ماذا يقول؟

اقترب منه «زياد» وحاول توعيته واستجلاب عاطفته من جديد:

- يقول إن «طُلَيْطِلَة» لم تكن يومًا بلادًا للمسلمين، وإننا مجرد غزاة لها.

- لا، لم يقل مثل ذلك، وحتى إن قال، فما شأني أنا به؟

اغتاظ «زياد» من إنكاره:

- فلتعلم إذًا، وليعلم كل أهل «طُلَيْطِلَة» أننا إن سمعنا أحدًا يقول مثل هذا القول فلن نرحمه، والآن خذ ما تريد، وامض راشدًا.

رمقه «موسىٰ» بنظرات حادة، ثم حمل ما يريد من طعام، وكظم غيظه وهو يقول في نفسه:

- تظنون أنكم أصبحتم سادتها والمدافعين عنها، بلى والله، ليدخلنها «الأذفُنش» وحينها ستعلم يا زياد الأعز من الأذل!

وما إنْ عاد إلى داره، حتى التفتت إليه «نيفادة»:

- ما زالوا يملكون الطعام إذًا؟

وضع ما يحمله من طعام وقال قبل أن يشرب من القدر:

- ليس الكثير منه.

تقدم «بِلاجيوس» وعبث بما أحضره، وقال بازدراء:

- ما هذا؟

- لا يوجد في طُلَيْطِلَة خيرًا منه.

- ولكن هذا الطعام لا يكفي!

- أعطوني أكثر مما أخذ غيري.

زمجر «بِلاجيوس»:

- وحق الرب، لأخرجن لهم، ولأحضرنَّ خيرًا من ذلك.

- لا تفعل يا أخي، فهؤلاء متربصون لك.

تربع «موسىٰ» في جَلْسَته:

- نيفادة محقة؛ لئن رأوك لقتلوك دون غيرك، فلم ينسوا بعد أنك هنا رغمًا عنهم، وفي حماية «القادر» وتحت رعايته.

نظر إليهما بعينيه المحتقنتين قبل أن يقول بنبرة متوعدة:

- لا بأس لن أخرج، ولكني مَن سيتربص بهم!

***

(11)

كانتِ الشمس تميل إلى الغروب حينما خرج «الفونسُ» يتفقد جنده المحاصرين للمدينة التليدة ومعه الملكة «كونستانزة» وقد بدا الجند وهم يلهون ويلعبون وقد طال عليهم أمد الحصار، حتى وصلوا تقريبًا إلى حالة يأس من تحقيق هدفهم، وكان الراهب «برنار»، يقوم بالصلاة من أجل نجاحهم، أما «الفونسُ» فقد ترك جنوده، وراح يراقب قرص الشمس وهو يفقد بريقه ولمعانه شيئًا فشيئًا، ثم يختفي خلف الجبال العالية، نظرتِ الملكة إليه:

- لم أكن أعلم أن الملك يحب الغروب ويراقبه.

دار بوجهه نحوها:

- من قال لك ذلك؟ ليس لأني نظرت إلىٰ الغروب، فإني أحبه! فالغروب يدل على قرب الرحيل الذي يعقبه ظلام، وأنا لا أحب النهايات ولا أطيق الوداع، غير إنه ذكرني بغروب شمس القوط من «طُلَيْطِلَة» منذ أربعة قرون، والآن غروب شمس هؤلاء العرب الخائفين خلف تلك الأسوار..

أتعلمين يا كونستانزة أن طُلَيْطِلَة جوهرة الأندلس الثمينة، والحصن الذي إن ملكناه ملكنا ما بعده، وهي الصخرة التي ستتحطم عليها أحلام المسلمين.

ردت وهي تبتسم بشيء من السخرية:

- أراك تهيم بها حبًا.

كاد أن يجيب بفتور لولا أن الحديث جرى على لسانه:

- طُلَيْطِلَة مختلفة في دروبها ودورها، حتى في هوائها وتربتها، جبالها وزروعها، أسوارها وبيوتها، بها عطر من التاريخ والحاضر والمستقبل، انظري إلى نهر «التاجة» الذي يلفها! لكأن الطبيعة تحاربنا مع هؤلاء العرب يا كونستانزة، فهل سنجبر الطبيعة يومًا أنْ تتحالف معنا؟

- إن كان الأمر كذلك فهذا يعني أن من ملك طُلَيْطِلَة هو أسعد الناس ومن فقدها فهو أتعسهم.

- هو كذلك.. إنها قلب الجزيرة النابض، ومن خسرها فقد خسر الجزيرة كلها.

زفرت بقوة وقالت في عدم صبر:

- فلماذا لا تهاجم وينقضي الأمر؟ لماذا الحصار وقد طال؟

- لا أريد أن أدخل في حرب خاسرة الآن.

رفعت حاجبيها في تساؤل:

- الملك الفونسُ يقول ذلك!

فرأت عينيه تشتعلان وهو يقول:

- ليس من الحكمة إيقاظ أناس موتى، فإن هاجمنا الأسوار سنضطرهم إلىٰ حمل السلاح، وربما تجرأ من تجرأ منهم وفتح الأبواب وخرج يحاربنا، والمدينة مكتظة بالرجال وأنا خبير بها، ولن يعدم هؤلاء من سلاح يحاربوننا به، وهم في صنعه ماهرون، فنجمع بين سيوفهم وأسوارهم، ولكن إن طال عليهم الحصار، خارت قواهم وانهزموا دون سلاح.

***

(12)

أوغل الليل في المضي، واختفى القمر، وغارتِ النجوم في سماء «طُلَيْطِلَة» المظلمة، وبينما البرد القارس يضرب في الأجواء، والسكون يلف المكان إلا من الجند الذين يراقبون الأسوار مخافة أن يتقدم إليها القشتاليون في غفلة منهم، تحرك مجموعة من الملثمين، وخرجوا من بيوتهم على حذر، كل واحد منهم يتحرك بمفرده، ويعرف طريقه جيدًا، حركات محسوبة بدقه شديدة، وقبيل بزوغ الفجر كانوا مجتمعين في مكان قريب من مخازن الغلال التي لم يكن عليها كثير من جند الحراسة، فقد أمن القوم لأنفسهم، وكانتِ الحماية فقط حتى لا يطمع أحد في طعام أحد!

وقف زعيمهم «بِلاجيوس» يراقب الأمور من كثب، ثم رفع يده لرجاله:

- هيا؛ يجب أن ينتهي هذا الأمر سريعًا.

بخطوات لا تجلب أي صوت تقدموا نحو أبواب المخازن، كان الخوف يتملك «بِلاجيوس» أن يتنبه لهم أحد، ولكن حقده على «طُلَيْطِلَة» فاق خوفه فدفعه دفعًا، وهكذا تحرك الأحقاد الجبناء، فيفعلون بجبنهم ما لا يرضاه الشرفاء، ويفعلون في الظلام ما لا يفعلونه في وضح النهار. وما إنْ تنبه لهم أحد الحراس حتى رفع «بِلاجيوس» يده ليتوقفوا فقال الحارس:

- لمَ أنتم هنا الآن؟ تعلمون أنه ليس موعد توزيع الطعام.

ابتسم له «بِلاجيوس» واقترب منه وفي خفة عجيبة، عاجله بطعنة في بطنه! ثم أخرج كل واحد منهم سيفًا، وتحركوا إلى داخل المخازن، فوجدوا أغلب الحراس في نوم عميق، فقتلوهم جميعًا وهم نيام، ثم نظر «بِلاجيوس» إلىٰ المخازن الممتلئة، وقال والحقد يفيض من عينيه:

- هذا سبب صمود «طُلَيْطِلَة» ومقاومتها.

وأشار إلىٰ رجاله، فانتشروا في المكان، وفي لحظة واحدة أشعلوا النيران في كل جوانب المخزن، ثم انطلقوا مهرولين لا ينظرون إلىٰ شيء إلا نجاتهم.

وفي دقائق معدودة تصاعدت ألسنة اللهب تحرق الغلال والغذاء، واستيقظ الناس على الأصوات، ومحاولات إخماد نيران لا تأكل غلال «طُلَيْطِلَة» وحسب ولكن أسوارها وقلوب أهلها!

وقف «المغامي» متكئًا على عصاه، وحوله رجاله والأهالي، وقد ظهر وهج النيران التي أضاءتِ السماء على وجوههم، وهم ينظرون بحسرة كبيرة، بينما تملك الهلع معظمهم، وهم يرون ضياع أموالهم وأقواتهم.

وترددت في أذانهم حمحمة وصهيل خيل قشتالة، أما «زياد» الذي كان وجهه قد تلطخ بالرماد، وتشبعت ثيابه بالدخان فقد فقد أعصابه، ولم يشعر بنفسه إلا وقد استل سيفه، وأخذ بعض أصحابه، وتوجه فورًا إلىٰ بيت «بِلاجيوس» وقد علم أنه الفاعل ومَن غيره يفعل ذلك! وبقوة شديدة دق الباب، ففزع من به، وكان بِلاجيوس لم يتخلص بعد من ثيابه التي تعلقت بها آثار ما فعله، فتوجس خيفة وشرًا، وهرب من الباب الخلفي بينما فتح «موسىٰ» الباب:

- ما بك يا زياد؟ ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟

زياد غاضبًا وبنبرة ساخرة:

- حقًا لا تدري.
- لا أعلم شيئًا.
- أخرج لنا بِلاجيوس يا موسىٰ، فقد أحرق خزائن الطعام، ولن ندعه حتى نقتله!

موسىٰ بهدوء وكأن غضبه غير مبرر:

- لا أظن ذلك.

زياد محتدًا وهو يصر على أسنانه:

- لم يفعلها غيره، فأين هو؟

جلس «موسىٰ» على العتبة وكأنه يستفزه بهدوئه:

- لا أحد بالدار يا زياد، بِلاجيوس غير موجود، ولا أعلم أين هو.
- إذًا فلتعلم أننا لن نتركه.

ثم التف وعاد، في ذاتِ الوقت كان «بِلاجيوس» يقترب من أسوار «طُلَيْطِلَة» محاولًا الفرار منها، والنجاة إلىٰ معسكر قشتالة.

***

رامون وتوماس

بالقرب من أسوار «طُلَيْطِلَة» وعند آخر خيمة من خيام «الفونسُ» وبينما الصقيع يتوغل في الأعماق، قال توماس لصديقه:

- يكاد البرد يقتلني، ارتديتُ كل ثيابي، وما زلت لا أشعر بأطرافي.

ثم أمسك بأصابع قدميه يحاول فركها وتدفئتها، وكذا يفعل «رامون» بيديه وهو يقول:

- لم أر يومًا مثل هذا!

- لماذا لا تقم، وتجمع لنا بعض الأخشاب نشعل فيها النيران قبل أن يبتر البرد أصابعي.

- حبًا وكرامة.

تحرك «رامون» والفجر قد أذن للبزوغ، ولكن ندرة الأخشاب في هذا الوقت من العام جعلته يقترب أكثر من أسوار «طُلَيْطِلَة» خاصةً أن معظم الجيش القشتالي كان يجتهد في جمعها لإشعال النيران، وبينما هو يبحث إذ سمع أصواتًا قريبة من الأسوار فجثا على قدميه، ونظر يراقب ما يحدث فإذا بأحد يتقدم من جهتها، وما إنْ اقترب صاحب الصوت منه، حتى أشهر «رامون» السيف وأراد قتله لولا أن قال له:

- على رسلك يا رجل، إنما أنا رجل منكم.

- لا أعرفك! فمن أنت؟ ومن أي البلاد جئت؟ هل أنت من ليون أم جليقية أم بلاد الإفرنج؟

رد بِلاجيوس بعفوية:

- بل أنا من طُلَيْطِلَة.

- أتسخر مني أيها العربي؟

- لا أسخر منك، وهل أفعل ورقبتي تحت ظل سيفك؟ وهل كل أهل طُلَيْطِلَة عربًا؟! وهل جميعهم مسلمون؟

نظر إليه بشيء من الاحتقار والاستخفاف:

- مستعرب إذًا، فما الذي أخرجك منها بهذه الطريقة الآن؟!

- خرجت فارًّا، حتى لا يقتلوني بعد الذي فعلت... لقد أحرقت لهم مخازن الطعام، والآن ألا تغمد سيفك فأنا لا أحمل سيفًا.

- لن أغمده حتى أتحقق من صدق كلامك، سر أمامي، ولا تفعل ما يوجب قتلك.

تحرك بِلاجيوس وخلفه رامون حتى دخلا خمية «توماس» وكان البرد قد فعل به ما فعل فجمع ما في الخيمة من أقمشة، وجعلها فوقه حتى لم يكد يظهر منه أي شيء، وما إنْ سمع صوت أقدام حتى قال:

- بسرعة أشعل النيران يا رامون.

- ألا تنظر أولًا مَن معي؟

رفع «توماس» الغطاء من على رأسه ونظر:

- أسير عربي!

- لست عربيًا أقسم لكما على ذلك.

صاح بها «بِلاجيوس» ثم قص ما حدث عليهما، وكيف أحرق الغلال والطعام؟ وكيف أنه التقى الملك «الفونسُ» زمن لجوئه إلىٰ طُلَيْطِلَة؟ فقال توماس:

- أشعل النيران يا رامون، واطمئن فإن كان صادقًا، وإلا هان علينا قتله!

***

(13)

كان «زياد» يمتطي «الورهاء» ويتحرك ببعض الجند حول أسوار المدينة يراقب الناس وأحوالهم والجند ويقظتهم، إذ قدم «جعفر» على جناح السرعة وقال له:

- أدرك «فاطمة» يا زياد، لقد اشتد بها المرض!

لم يكد «زياد» يسمع ذلك حتى ترك كل شيء، ولكز بطن «الورهاء» فانطلقت به صوب البيت، وأنفاسه متسارعة، وقلبه يخفق من الخوف عليها، والوجوم يظهر على محياه، حتى إذا دخل الدار بادر إلىٰ غرفتها ليجدها

طريحة الفراش بين الموت والحياة وحولها «حفصة، وليلىٰ» تبكيان، وهي تنقل بصرها بين الجميع، وبين أركان الغرفة وكأنها تودع كل شيء.

هوى «زياد» على يدها يقبلها:

- لا بأس عليك يا أماه.

فاطمة بصوت متهدج وهي تحاول إظهار ابتسامة خفيفة:

- لا بأس بعد اليوم يا ولدي.

زاد بكاء «حفصة، وليلىٰ» حتى تحول إلىٰ نحيب، بينما جفف «زياد» دمعة على طرف عينه ليشعرها أنها بخير، ولكن العبرات خنقته، فلم يستطع كلامًا، وانسالت دموعه حارة من مقلتيه، فتأثرت «فاطمة» وقالت:

- لا تجزع يا ولدي، فلكل أجل كتاب، أما أنا فسأخبر جدتك بأنك نجوت وصرت مثل جدك «مَسْلَمة» جندي من جنود الإسلام لا يخطئ سهمك.

ثم نظرت إليه مليًا:

- احفظ وصيتي!

وغمغمت بالشهادة، ثم تهاوت يدها وفارقت روحها الحياة.

***

ارتدى «بِلاجيوس القوطي» زي الجيش القشتالي، وهو يكاد يطير من الفرح والسعادة، وجلس في خيمة «توماس، ورامون» بعد انضمامه إلىٰ الجيش المحاصر، وحول موقد النيران جلس الثلاثة فقال بِلاجيوس:

- متى يصدر مولانا الفونسُ أوامره باختراق تلك الأسوار اللعينة؟ فإني في شوق إلىٰ دخولها علانية، وقد فررت منها خيفة وتوجسًا في جنح الظلام.

توماس:

- لا تستعجل، فللحرب ظروفها وخططها، وتحتاج إلىٰ الصبر... لقد صرت قشتاليًا أكثر منا يا بِلاجيوس، فهل أنت مستعد لتغير صلواتك التي اعتدت عليها؟

- ماذا تقصد؟

- عند دخول «الفونسُ» إلى طُلَيْطِلَةَ لن يكون هناك مكان للهوية القوطية، وستستبدل الطقوس المستعربة، بطقوس فرنسية رومانية!

تحرج «بِلاجيوس» ونهض ينظر إلىٰ الأسوار:

- ليس الأمر هكذا ولكنها بلادي ودياري، وأريد العودة إليها في أسرع وقت ممكن، ولا آمن على أختي وزوجها وهما بين ظهرانيهم.

نظر «رامون» إليه بشيء من الاحتقار، وبشيء من الشفقة أيضًا:

- علمت من أخلاق العرب أنهم يحافظون على العهود، لذا لا أظن أبدًا أنهم سينتقمون منهما لفرارك، فلن يأخذوهما بذنبك.

- أرجو ذلك.

مال توماس عليه:

- أخبرني عن نساء طُلَيْطِلَة.

بِلاجيوس متنهدًا:

- هنَّ أجمل النساء لولا إسلامهنَّ.

- لا يغير الدين من جمال النساء.

- على كل حال لن تستطيع الزواج من إحداهن ولو أعجبتك.

قهقه «توماس» وقال متهكمًا:

- أتزوج! ومَن قال لك أني أريد ذلك؟ ولكنهن السبايا والجواري.

***

(14)

كاد «زياد» يتميز غيظًا وهو جالس مع «جعفر» في الدكان (الذي عافته الزبائن وأصبح مكانًا لمناقشة الخطط الدفاعية) يسمع أخبار «القادر» وقد تناقلتها العامة، و«جعفر» يضرب كفيه ببعضهما وبصوت مرتفع:

- ويل له! أفي مثل هذا الوقت يظهر الخنوع والخضوع؟!

- ظن الناس أنه سيبادر بفتح الأبواب ومهاجمة القشتالين، في ذاتِ الوقتِ الذي يهاجمهم فيه «المُتَوكِّل» وهو الوحيد الذي ساندنا في محنتنا،

وأرسل من «ماردة» جيشًا من خيرة قواته بقيادة ابنه «الفضل» لفك الحصار، في محاولة مستميتة لرد العدو الغاشم، فيقعون بيننا وبينه، ولكن «القادر» أحجم وحال دون ذلك، فاستفرد القشتالي بجيش «بَطَلْيُوس» فانسحب بعد خسائر كبيرة، وهُزم هزيمة نكراء، وكاد أن يقضي على كامل الجيش لولا رحمة الله.

- الأحمق الذي سيضيعنا! يبحث فقط عن نجاته لا نجاة طُلَيْطِلَة.

تململ «زياد» في ضجر وهو يلحظ بطرف عينيه السوق الذي فارقته مباهج الحياة، وفي عقله تسيطر أفكار شتى، ولم يتحمل المكوث أكثر من ذلك، فهب من مكانه، ثم امتطى جواده، فخرج وراءه «جعفر»:

- إلىٰ أين؟

- أريد أن أكون وحدي.

ثم تحرك الهوينا في الشوارع، يقلب نظره يمينًا ويسارًا، ويتردد بصره بين طرقات «طُلَيْطِلَة» وأسوارها القوية، فيرى شعبًا يائسًا فقد القدرة حتى على الحركة، وشعر بالهزيمة الذي مني بها «ابن الأفطس»، وأصبح جل همه الطعام والشراب، وفجأة تعلق بقدم «زياد» أحد العامة وصرخ:

- أطفالي يموتون جوعًا، فإلىٰ متي يظل هذا الحال؟ إلىٰ متى ولا ناصر لنا ولا معين؟

ربت «زياد» على كتف الرجل:

- سيجعل الله بعد عسر يسرًا، فاصبر واحتسب.

ثم تحرك، وقد لاحظ حشدًا في السوق قرب المسجد الكبير، فتطلع لما يحدث، ووقف يراقب من بعيد، فإذا «بجعفر» يقترب منه بفرسه، ويشير بيده إلى الحشد:

- إنه «موسىٰ الطويل» فقد عرفته.

أظهر «زياد» اندهاشه:

- ما كنت أظن أنك ستلحق بي بعد الذي قلتُه.

ابتسم «جعفر» ابتسامته اللطيفة الواهنة:

- اعلم أنه لا طاقة لي بابتعادك وعدم معرفة حالك؛ أنت ابني وصديقي في هذه الدنيا.

تبادلا النظرات المؤثرة، واستطرد جعفر:

- تحركت خلفك أرقبك لا أقترب فتغضب، ولا أبتعد فأفقدك.. هيا نرى ماذا يفعل هذا الشيطان؟

- وأي شيطان!

تحركا مسرعين صوب الحشد، فإذ بموسىٰ يصيح:

- سنموت جميعًا هنا داخل الأسوار! فأي جدوى من المقاومة إن كان الجوع سيفتك بنا؟ وسيكون فتكه أشد علينا من سيوف القشتاليين، فإن كان لا بُدَّ، فليفتحوا لنا الأبواب، وليحدد كلٌ منا مصيره، ولكن أن نموت جوعًا، فهذا لن يحدث!

شجب أحد العامة:

- لقد نفد الطعام! حتى أوراق الشجر، والفئران، والكلاب لم يعد الحصول عليهم أمرًا هينًا، وقد شاهدتُ البارحة رجلين يهرولان خلف قطة علهما يعثران عليها فتكون وجبة لهما ولأطفالهما.

ظل «موسىٰ» يسْتَنكر ويصب الزيت على النار:

- بئست الحياة؛ نأكل القطط والكلاب!

رمقه «زياد» بنظرة قاسية وهتف به:

- ما وراءك من كل هذا يا موسىٰ؟ أهي زوجك النصرانية؟!

عقد «موسىٰ» ذراعيه أمام صدره وسأله مستهجنًا:

- وما شأنها بما يحدث؟ فهل هي من أفسدت الغلال؟ أم من استحضرت جيوش قشتالة للحصار، أم هي من منعت باقي ملوك الأندلس من نجدتنا؟

وتقدم نحوه وهو يشير بإصبعه محذرًا:

- لا يا زياد، ليس هكذا تورد الإبل، وإن كنت أنت وأصحابك على حق، فلتفتحوا لنا الأبواب، ولا تكونوا جزءًا من الحصار.

بسط «زياد» كفه في الهواء ودار في مكانه:

- أما مَن أحرق الغلال فهو صهرك يا موسىٰ، وأما القتال، فوالله أبغاه، ولكن كما ترى قواتِ المدينة أقل من أن تستطيع فك طوق الحصار اللعين... أيها الناس، دعوني أحاول الحديث إلىٰ صاحب الأمر، فلعله يتحرك وينتهي الأمر!

ثم لوى رسن حصانه، وتحرك حتى دخل المسجد الكبير، وكان «المغامي» يصلي فيه فجلس إليه:

- سيدي!

رفع «المغامي» وجهه:

- أعلم ما ستقول يا زياد، وإني والله لفي غم عظيم، ولقد راسلنا جميع ملوك الأندلس، فلم يهب لنجدتنا غير «ابن الأفطس» وقد رده «أذفُنش» بخسائر فادحة.

- هل يعني ذلك أن نسلم لهم؟

نهض «المغامي» وقال للمتحلقين حوله:

- بل وجب علينا أن نخرج لقاتلهم.

- ماذا يصنع بضع مئات من الجند مع هذا الجيش المرابط بالخارج؟!

التفت «المغامي» لمن سأله:

- كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، هلمَّ نشرع الجهاد من قبل الأمير الحاكم، ولعل أحدهم جاء إليه بخبر عما يدور خلف الأسوار.

ثم خرج من المسجد، وتحرك صوب القصر وخلفه «زياد» ومجموعة من الفقهاء والطلبة، والتحق بهم بعض من وجوه الناس، فدخلوا على «القادر» الذي لم يعبأ كثيرًا بما حدث، وكأن «طُلَيْطِلَة» لا تعنيه، وكأن قصور جده التي يرتع فيها «الفونسُ» أَيْضًا لا تعنيه!

- لقد بلغ السيل الزبى أيها الأمير! وإني لأخشى من غضبة العامة أن يفسدوا عليك أمرك، فقد أعذروا عندما طلبوا منك فتح الأبواب، وقتال الأعداء.

صاح بها «المغامي» فارتبك «القادر» واصفر وجهه وقال متصنعًا:

- لو كان لي جيش يحارب ويقاتل، ما ترددت لحظة واحدة.
- جيشك يا أمير ما صنعته يداك، وإلا فقد كان لدينا ما يؤهلنا إلىٰ مجابهة العدو، فهو تقصير منك بالنهاية تحاسب عليه أمام الله.

تميز «القادر» غيظًا:

- ومَن أنت حتى تقول ما تقول؟
- أنا رجل من هذه الأمة التي توشك أن تضيع!

أراد «القادر» أن ينصرفوا من أمامه سريعًا، ليتخلص من نظراتهم الحارقة:

- حسنًا، سنفتح الأبواب، فاستعدوا.

خرج الوفد من القصر، فصفق «القادر» بيده، فإذا بالخادم يأتيه بباطية من شراب رفعها على فمه، وشرب منها وهو لا يعبأ بشيء، حتى دخلت عليه «عجب» مهرولة:

- كيف لمولاي أن يفعل ذلك؟!
- لا بديل عن ذلك يا عجب، فوالله لو شعر القوم أني على غير رأيهم لفتكوا بي.

ضمت «عجب» شفتيها بعبوس لطيف:

- وماذا عن الملك الفونسُ؟
- سأرسل له سرًا من يخبره بما حدث، على أن يعوضني بـملك «بَلَنْسِيَة» فوالله لن تقاوم «طُلَيْطِلَة» أكثر من هذا بعدما فنيتِ الأقوات، ولن يرضى أذفُنش عن امتلاكها بديلًا، فلأخرجنَّ بأفضل ما أستطيع.

***

(15)

شهدت مئذنة الجامع الكبير احتشاد الجموع في وسط المدينة بحي «كُدية الحطب»، و«المغامي» واقف يخطب فيهم، وحوله ثلة كبيرة من العكسر، يدعوهم إلىٰ الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن مدينتهم وكان مما قاله لهم:

- إن تجبنوا تموتوا جوعًا، وتسبى النساء، وتحول مساجدكم كنائس، فيحل الصليب محل الهلال، ويكون الجرس بديل الأذان، فالبسوا الدروع، وزودوا عن أنفسكم، ومساجدكم، ودياركم! أغيثوا الصوامع، وانصروا الله ينصركم!

ولم ينته من حديثه، حتى صاح الناس:

- اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ!

وارتدى الكثير منهم الدروع، وحملوا السيوف والرماح، ودبت فيهم روح لم يعهدوها من قبل، وركب «زياد» «الورهاء» ومعه أصحابه، والعسكر، والمتطوعة من الأهالي، وجابوا الطرقات، والأزقة يحثون الناس على الجهاد والحرب، وبدت «طُلَيْطِلَة» في ثوب المقاومة وعدم الاستسلام، ورجت التكبيرات والدعواتِ المدينة.

ومن خلف الأسوار كان القشتاليون يأمنون أن تفتح عليهم الأبواب فهم هنا منذ شهور، ولم يجرؤ أحد من الداخل على مهاجمتهم، واستغل «زياد» تلك الثغرة في دفاعاتِ العدو، وأول ما قام به ترتيب النبالة على الأسوار، وانضم إليهم «جعفر» وزاد من عددهم، وعدتهم.

وفي الساعة المحددة فتحتِ الأبواب، وانطلقتِ الصيحات فرجتِ المكان، ونزل الرعب في قلوب القشتاليين الذين لم يكونوا يعلمون أنها ستفتح لغير الاستسلام، وانقض «زياد» وأصحابه يثخنون فيهم، حتى قتلوا منهم الكثيرين، ولكن ثبات وكثرة عدد الجيش القشتالي، وحسن تدريبه قلل الخسائر، وسريعًا ما استجمعتِ القوات القشتالية زمام الأمور، وهنا قرر «زياد» العودة إلىٰ «طُلَيْطِلَة» وفي نفسه أن شوطًا يعقبه أشواط، وغزوة تعقبها غزوات، وأقيمت بالمدينة الاحتفالات، وتعلقتِ الزينات، وسرت فيها البشريات..

وفي المساء..

بينما كان الجميع يحتفل، والكل خارج من الحرب يحكي: كيف قتل هذا، وانقض على هذا؟ كان «موسىٰ» ومن معه من المعاهدين يستمعون، ويهمسون للناس بأحاديث غريبة فكان مما قالوه:

- لم تفعلوا شيئًا، لا أنتم أزحتموهم، ولا ثبتم لهم! فكأنكم أيقظتم بفعلتكم نارًا ستحرق طُلَيْطِلَة، فوالله لن يرضى بعد ذلك القشتالي إلا بدمائنا!
- هل تظنون أن مناوشاتكم تلك ستجليهم عن المدينة؟ لا والله، لقد أعطيتم «أذفُنش» الحق في سبي النساء، ولا أظن بعد ذلك أن يرضى أن تستسلموا وتخرجوا بنسائكم.

فكانوا يبثون في المدينة روح الهزيمة، فهم يخشون على مصايرهم ومنافعهم إن استيقظت «طُلَيْطِلَة» فكانوا كمعول هدم لها من الداخل، وكانوا أشد عليها من جند «الفونسُ» ففعلوا بأهلها الأفاعيل، حتى صار مَن يحتفل بالأمس يقول:

- دعونا نخرج منها سالمين!

***

(16)

انقضى فصل الشتاء بكل ما فيه وحل الربيع مكانه ولكن الزهور لم تتفتح والأشجار لم تكتسِ باللون الأخضر الجميل إذ لم يبقَ في كل طُلَيْطِلَة أشجار إلا وأكل الناس أوراقها وكذا لم تصدح العصافير والطيور فقد هجروا طُلَيْطِلَة التي لم يعد لهم مكان فيها، فلا شجر ولا زرع ولا حبوب تؤكل ولا ثمار على الأشجار، ولم تفح من الزهور عبيرها فلم يعد في كل طُلَيْطِلَة أزهار أو ألوان إلا .رائحة الموت فتوح من كل جنباتها فقد كان كل شيء في المدينة يدعو للرحيل وينذر بالنهاية الأليمة .....

شحبت «حفصة» وهزلت حتى فقدتِ القدرة على الحركة، و«ليلىٰ» تنظر إليها لا تملك لها حيلة، وقد أجهدها الجوع أَيْضًا، وغارت عيناها، وفارقهما الجمال. رفعت «ليلىٰ» بصرها إلى السماء:

- يا الله، حتى أوراق الشجر، والزروع، والحشائش، والفئران، والقطط، والكلاب، نفقوا من «طُلَيْطِلَة» وكأن القيامة قامت فوجوه الناس مصفرة، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن ألم الجوع كبير.

- إن كان هذا حالنا، فماذا عن باقي الناس يا ليلىٰ؟ والله لم أر أو أسمع في حياتي بؤسًا كهذا! وأي بؤس بعد حصار كهذا قضى على الأخضر واليابس.

تحركت صوب النافذة وأمسكت بحديدها، تنظر فيها:

- ربما يأتينا أبي أو زياد ببعض الطعام قريبًا.

- لا تنتظري كثيرًا؛ فهما في شغل عنا.

- أيعقل أن ينشغلا عن نسائهما، فلا حتى يطعمانا؟

- وهل سيبقى لهما نساء إن ضاعت طُلَيْطِلَة؟

عادت «حفصة» إلىٰ مقعدها بجوار «ليلىٰ» وألقت برأسها في حجرها:

- ربما صدقت في هذه، فوالله ما لنا حياة دون طُلَيْطِلَة.

ران الصمت عليهما لم يقطعه سوى طرقات خفيفة على الباب أعقبها صوت «زياد»:

- يا أهل الدار، قد أتينا!

اعتدلت «حفصة» في جلستها وكذا فعلت «ليلىٰ»، ودخل «جعفر، وزياد» وهما يحملان قليل الطعام، وقد ظهر عليهما شبح الجوع، وهزل جسداهما حتى برزتِ العظام، وبابتسامة شبه متهالكة قال جعفر:

- كيف حالك يا حفصة؟

- الحمد لله على كل حال يا أبي.

أرادت «ليلىٰ» أن تخلق جوًا مازحًا، فقالت لزياد:

- وأنت، ألا تسأل عن زوجك؟

زياد ضاحكًا:

- زوجتي بخير، فقلبي دائم السؤال عنها.

اقتربت «حفصة» من أخيها تأمل في أن تسمع منه ما يطيب خاطرها:

- كيف حال المدينة؟

- كما هو.

انصرف «جعفر» منسلًا بائسًا وتبعته «حفصة»، بينما جلس «زياد» مع زوجه يشكو لها:

- لكأن ملك الموت حاضر في «طُلَيْطِلَة» لا يفارقها هذه الأيام، الجند يتساقطون من فرط الجوع، يموت الواحد منهم، فلا يجد من ينقذه، وقد أعيا الجوع الجميع.
- وصراخ الأمهات صار يهز جنباتِ المدينة، ويعلو في كل مكان ينعين أولادهن القتلى من الجوع، وقد نفد اللبن من صدور المرضعات، وأطل شبح الفناء على كل شيء.
- كل ذلك و«أذفُنش» خارج المدينة يتمتع بخيرات قراها وثغورها، وملوك المسلمين منشغلون عنا بحروبهم وفتنهم وملذاتهم.

عضت «ليلىٰ» على شفتها السفلى، وقالت بمرارة:

- ألا يعلمون أن طُلَيْطِلَة واسطة العقد؟!
- آه يا ليلىٰ، أفكر لماذا لا نموت بالسيف؟ فهو أكرمُ وأعزُ من الموت بالجوع داخل المدينة، ولكن ماذا نفعل مع ملك عاجز ضعيف؟ لم يخرج إلىٰ شعبه منذ بدأ الحصار، ويخص نفسه دون غيره بالطعام.

تناثرت عبرات جفونها، وتصاعدت أنفاس وجدها، وقالت باستحياء:

- أخشى أن الناس قد أعجزهم الجوع عن حمل السلاح، فقد تأخر الوقت، وخارتِ العزائم، وضعفتِ الأجساد، وانحلتِ الآمال، كنا نعول على طول الحصار علَّ «أذفنش» يمل، ولكنه لم يفعل، وصرتِ الآن أخشى أن يمل أهل طُلَيْطِلَة، فيستسلموا.

نهض «زياد» وكأنه ينفض عن نفسه وساوس الانهزامية:

- ولو خارت عزائم الجميع، لن تخور عزيمتي! ولو يئس الجميع لن أيأس يا ليلىٰ!

***

ولم تكن «ليلىٰ» تتحدث من فراغ، فسريعًا حدث ما خشيت منه، وبدأ الناس يتلاومون فيما بينهم وقد غدت «طُلَيْطِلَة» غير عزيزة عندهم، وصار جُلَّ همهم الطعام، والبقاء على قيد الحياة، ولو كان ذلك على حساب دينهم،

وكان موقف «القادر» مريبًا، فقد خرج أخيرًا على أقبح صورة وأفظع سيرة، ورآه الناس، وبيده إسطرلاب ينظر به إلى النجوم ليحدد وقتًا يرحل فيه، يريد أن يهرب، وقد سولت له نفسه أن يحمل آلة واحدة يقدرها تقديرًا بالغًا.

وأصبح الأمر يشتد بالمدينة المحصورة يومًا عن يوم، حتى تحرج الموقف، واضطر الزعماء والقادة بالاتفاق مع «القادر» أن يرسلوا إلىٰ ملك قشتالة وفدًا للتحدث في أمر الصلح، ولما عرضوا على «زياد» أن يكون معهم، أبىَ قائلًا:

- لن أتفاوض على تسليم المدينة ما حييت، ولن أتحمل معكم عارَ الهزيمة، ولن أكون مشاركًا في مأساة تحويل المساجد إلىٰ كنائس، فاذهبوا لا رأي لي معكم.

وكان «المغامي» قد لزم المسجد الجامع، وكان ممن أيدوا عدم التفاوض، ولكن لم يسمع له أحد، فقد سيطر الخوف والجوع على الجميع، وبرغم جوع «المغامي» ورجاله وتحملهم مشاق المقاومة، فإنهم رفضوا أن يكونوا جزءًا في تلك المأساة المروعة.

***

وفتحت أبواب المدينة، وخرج منها وفدٌ من قادتها يحملون الراية البيضاء علامة الرسل، وتقدموا وهم يشاهدون جنود «الفونسُ» وقد اصطفوا عن يمين ويسار حتى وصلوا إلىٰ قصر «الفونسُ» وطلبوا أن يتحدثوا إليه.

ضحك «الفونسُ» ضحكة عالية تردد صداها في الأجواء، وهو يطل من الشرفة:

- لن أقابل هؤلاء الرعاع!

قال هذا، وقد علم من الراية غايتهم، فأراد أن يتمادى في إذلالهم:

- ولن تقابلهم يا «بن أنسور» ولا أنت يا «البار».

- هل نتركهم يعودون، يا سيدي؟

- بل نجعل «سِسنانڈ» يتولى الأمر.

- صواب رأيك دائمًا يا سيدي، فهو عجوز داهية ذو براعة فائقة، وعلى علم بكل ما يدور خلف أسوار طُلَيْطِلَة.

فلما قصد إلىٰ «سِسنانڈُ» وفد طُلَيْطِلَة استمع إليهم فقال أحدهم:

- كان بيننا وبين الملك عهود ومواثيق لم ننقضها، فإن كان الملك يريد المزيد من المال بذلناه له، وإن كان يريد بعض الحصون سلمناها له.

ضرب «سِسنانْدُ» بعصاه الأرض:

- استمعوا إليَّ جيدًا، فأنتم تعلمون حرصي عليكم، لا فائدة من المفاوضة، ولا أمل بأن يتزحزح الملك عن موقفه قيد شعرة، ولا بُدَّ من تسليم المدينة فهو يريدها، ولن يتنازل عنها.

- لماذا، وقد أعطيناه ما يريد، ولم نخرج يومًا عليه؟

«سِسنانْدُ» بهدوء مغيظ:

- لأنه يراها دار ملكه، وعاصمة بلاده قبل دخولكم.

القائد بنبرة جادة متوعدة:

- إن رفض الملك هذه المفاوضات، فلنرجعن إلىٰ «طُلَيْطِلَة» وإننا لننتظر عونًا من إخوتنا في باقي الأندلس، فإن هم حضروا سيتغير الموقف ويتبدل، ووقتها لن نعطيكم الأموال التي نعرضها عليكم الآن.

خشي «سِسنانْدُ» أن يفسد الأمور، إن أطال الحديث:

- لا بأس، انتظروا هنا، حتى أرجع إليكم.

خرج من خيمته، وتوجه إلىٰ حيث «الفونسُ»، فلما أبلغه بقولهم، سخر قائلًا:

- الحمقى! أيحسب هؤلاء أن لهم وزنًا عندي؟ أدخلهم عليَّ الآن.

تحرك «سِسنانْدُ» إلىٰ حيث الزعماء المسلمين، وعاد بهم إلىٰ خيمة «الفونسُ»، فدخلوا عليه، فوجدوه يتظاهر بالنوم رافضًا استقبالهم، يمسح الكرى من عينيه، ثائر الرأس، خبيث النفس، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضعف شعره الذي صار كالثَّغام بَيَاضًا، فما نسوا رائحة ثيابه الخبيثة التي فاح رِيح صُنَانِها، ودَرَنّ أظفاره، ثم أقبل عليهم بوجه كريه، ولحظ لا يشكون أن الشر فيه، وقال لهم:

- إلىٰ متى تتخادعون؟ وبأي شيء تطمعون؟

- بِنا بُغيَةٌ، أن ترحل بجندك، وتأخذ من أموالنا ما تشاء.

- وإن لم أفعل!

- سنقاوم، حتى تمل وتيأس، وإن سقط منا الكثير، فلنا بقية في رجال الأندلس وفي صاحب «إشبيلية» وباقي الملوك أمنية وإخوة، ولن يتركونا لقمة سائغة لك.

صفق «الفونسُ» بيده، فدخل عليه أحد حجابه، فقال له:

- أين رسل «ابن عبَّاد»؟

فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة، وينبسون بألسنة السمع والطاعة، وينبون في لثم يده، فقال «الفونسُ»:

- مُذ كم تَحُومون عليَّ، وتَرومون الوصولَ إليَّ؟ ومتى عَهْدِكم بابن عبَّاد؟ وأين ما جِئتُم به؟ ولا كُنتم ولا كان.

تقدم سفير «المُعْتَمِد» وهو يهودي يُدعى «ابن مشعل»:

- قدمنا نرجو الصفح عن مقتل سفيركم «ابن شاليب»، وقد أحضرنا مال الجزية كاملًا، ونرجو منك الرضا، وأن تترك البلاد والعباد في مأمن ما لم تعاديك.

أظهر «الفونسُ» كبرياءه وأسهب في احتقاره:

- كيف أترك قومًا مجَّانين، تَسَمّى كلٌّ واحدٍ منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم «المعتضد، والمُعْتَمِد، والمعتصم، والمُتَوكِّل، والمستعين، والمقتدر، والأمين، والْمَأْمُون» وكل واحد منهم لا يَسُلُّ فى الذّبِّ عن نفسه سيفًا، ولا يرفع عن رعيته ضيمًا ولا حيفًا، قد أظهروا الفسوق والعصيان واعتكفوا على المغانى والعيدان؟ وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحدًا، وأن يدعها بين أيديهم سُدًا؟

فجاءوا بجملة ميرة، وأحضروا بين يديه كل خيرة خطيرة، ثم ما زاد على أن ركل ذلك برجله، وأمر بانتهابه كله؛ ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله، وكانت حاله حال من كان قبله.

وكان «ابن رزين»[1] أحد ملوك الطوائف، قد حل بنفسه ليهنئ «الفونسُ» على احتلال «طُلَيْطِلَة» وقتل وسبي إخوانه وأخواته! وبوجه خال من المروءة وبقلب مرتعد ويدين مرتعشتين وقف بين يديه يقدم الهدايا النفيسة من الحُلِي والحلُل، والخيل والبغال، وتحف الملوك، يعجز عنها الوصف، و«الفونسُ» لا يلتفت إلى أي هدية تقدم له، لكنه أعجب بهديته، فكافأه بإهدائه «قردًا» مدربًا؛ احتقارًا له!

فرح الأمير بذلك أيما فرح، وعدّها مفخرة يتباهى بها، وهو شديد الإعجاب بنفسه، بعيد الذهبة بأمره!

ضحك «الفونسُ» ومن معه على حماقته وضعف عقله، فكان سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلًا لا متجاهلًا، وجعل «الفونسُ» رجاله يدفعون في ظهورهم، وأهل «طُلَيْطِلَة» يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم، فخرج مشيختها من عنده وقد سُقط في أيديهم، وطمع كل شيء فيهم، يتعثرون في أذيالهم ويجرون خيبات رجائهم.

ودخلوا «طُلَيْطِلَة» منكثي الرؤوس وقد خارت عزائمهم، فتلقفهم الناس بالبكاء والعويل، وزاد ذلك من قلق العامة وخوفهم ورهبتهم، وزاد من اضطرابهم، فنفذ ما كان عندهم من صبر، وهكذا تفعل القراراتِ غير المحسوبة أن تسير بك صوب انحدار لا تريده، ولا تستطيع التراجع عنه، وبدأ كل رجل يفكر في مصيره، ويطلب النجاة لنفسه وبنيه، ونسي جلهم «طُلَيْطِلَة» ومساجدها، ودورها، وأيام صباهم، ولهوهم.

***

(1) أَبُو مَرْوَان عبد الْملك بن هذيل بن خلف بن رزين الملقب بـ حسام الدين ذُو الرياستين أمير مدينة «شنتمرية الشرق» تقع ما بين شرق طليطلة وسرقسطة.

الفصل الأخير

لثُكلكِ كيف تبتسم الثغــورُ سرورًا بعدما سُبيت ثغــورُ
أما وأبي مصـــابٌ هُد منــهُ ثَبِــيرُ الدين فاتصل الثبــورُ
لقد قُصمتْ ظهور حين قالوا أميــرُ الكافريــنَ لــه ظهورُ
طُلَيْطِلَــة أبــاح الكفــرُ منها حِماهـا إنَّ ذا نبــأٌ كبيــرُ
أليس بها أَبِيُّ النّفْس شــهمٌ يُديــر على الدوائر إذ تـــدورُ
فليس مثالها إيوان كســرى ولا منها الخــورنق والسديــرُ
محصنـــة محصنـــة بعيــدٌ تنــاولها ومطلبهــا عسيــرُ
ألم تكُ مَعْقلًا للدين صعـــبًا فذَلَّلَــه كمــا شــاء القَديــرُ
وأخرج أهلها منها جميعـــًا فصاروا حيث شاء بهم مصيرُ
وكانــت دار إيمــانٍ وعلــمٍ معالمها التي طُمست تنــيرُ
فعـــادت دار كفر مصطفاةٌ قد اضطربت بأهليها الأمورُ
مســاجدها كنائس، أيّ قلبٍ علــى هـــذا يقرُّ ولا يطــيرُ

فيا أسفاه يا أسفاه حزنًا يكرَّرُ ما تكررتِ الدهورُ
تجاذبنا الأعادي باصطناع فينجذب المخولُ والفقيرُ
فباقٍ في الديانة تحت خزي تثبطه الشويهة والبعيرٌ
وآخر مارقٌ هانت عليه مصائبُ دينه فله السعيرُ
كفى حزنًا بأنَّ الناسَ قالوا إلى أين التحولُ والمسيرُ
أنترك دورنا ونفرّ عنها وليس لنا وراء البحر دورُ
ولا ثمَّ الضياع تروق حسنًا نباكرها فيعجبنا البكورُ
لقد ذهب اليقين فلا يقينٌ وغرّ القوم بالله الغرور
فلا دينٌ ولا دنيا ولكن غرور بالمعيشة ما غرورُ
رضوا بالرق يا لله ماذا رآه وما أشار به مشيرُ
مضى الإسلام فابك دمًا عليه فما ينفى الجوى الدمع الغزيرُ
ونحْ واندب رفاقا في فلاةٍ حيارى لا تحطُ ولا تسيرُ
ولا تجنح إلىٰ سلمٍ وحاربْ عسى أن يُجبر العظم الكسير
ونرجو أن يتيح الله نصرًا عليهم إنه نعم النصيرُ

(1)
شبح الفناء وتسليم المدينة

ومضت ثلاثة أيام سود، نهارها كالليل البهيم، اتشحت فيه الأشجار بثياب الحداد، وأغمضت السماء جفونها والليل يلفها في سكون قاتل، والصمت يطبق على الأجواء، كهدوء ما قبل العاصفة، حتى استيقظ الناس ولم يهنأوا ليلتها، وقد مضى على حصارهم زهاء تسعة أشهر، وتفاقم الخطب، وبلغتِ الشدة بهم أقصاها، فضجت المدينة بأصوات العامة الذين أضناهم الجوع والحرمان، وقد خرجوا إلىٰ الأسواق يبكون حالهم، ويطلبون الاستسلام، وحفظ أرواحهم ولم تفلح محاولات «المغامي، وزياد» وأصحابه في ثنيهم، ولم تجد صلابة أولئك الذين تمسكوا بالمقاومة والدفاع حتى الموت شيئًا، وتزعم «موسىٰ الطويل» الفئة القائلة بوجوب سرعة التسليم، وإلا سيفتحون بأنفسهم الأبواب للغازي، فلم يجد حزب المقاومة إلا أن يرضخ خشية من تقاتل بينهم، ولأن الغالبية العظمى صارت تريد التسليم.

ورفض «زياد» أن يكون من شهود مهزلة التسليم فرجع إلىٰ بيته، وكسر سهمه ورمحه، أمَّا «المغامي» فقد اعتكف في المسجد الجامع يبكي، ويتضرع إلىٰ الله، ويشكو الهوان والضياع، ويشتكي ملوك المسلمين.

***

أرسل «القادر» وفدًا رسميًا من زعماء «طُلَيْطِلَة» ليعرضوا التسليم، فاستقبلهم «سِسناندُ» بالترحاب، وتلطف لهم، فقال القائد:

- طُلَيْطِلَة بها من الأهالي من لا يستطيع فراقها، فهل إذا فتحنا لكم الأبواب، يأمن أهل المدينة في النفس والمال؟

أومأ «سِسنانْدُ» برأسه موافقًا:

- لهم كل الأمان، وليغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم، وسيسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم، ولكن على المقيمين بها أن يؤدوا إلىٰ ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس.
- ومع هذا نسلمها بشرط أهم من كل البنود.
- ما هو؟

أراد الزعماء حفظ ماء وجوههم فقالوا:

- أن يحتفظ المسلمون إلىٰ الأبد بمسجدهم الجامع، ويتمتعوا أحرارًا بإقامة شعائرهم، ويحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم.

نظر «سِسنانْدُ» إلى «الفونسُ» الذي بدا صامتًا، ثم تبادل الهمسات والهمهمات مع الرهبان الفرنسيين، وبعد لحظات أشار له بيده ورأسه ليكمل الاتفاق، فقال «سِسنانْدُ»:

- يوافق الملك على أن تسلموا له سائر القلاع، والحصون، والقصر الملكي، والمنية المسورة وكل ما كان ينزل به ملككم.
- فهمنا أن نسلم سائر القلاع، ولكن مَن سيحكمنا، وأين سيحل ملكنا «القادر»؟
- أما حكم المدينة فسيقرره الملك، وأما عن «القادر» فمولاي «الفونسُ» يتكفل بتمكينه من الاستيلاء على «بَلَنْسِيَة»، بل ويعرض عليه أن يحصل له على «دانية، وشنتمرية الشرق» ومن أراد أن يلحق به منكم، فلن يتعذر تحقيق ذلك، لأنكم ستذهبون تحت حماية جنودنا وكبير قادتنا «البار بن هان».

سُرَّ الوفد ووجدوا في ذلك سخاءً، ولم يخبرهم «سِسنانْدُ» أن «الفونسُ» ما فعل ذلك إلا لأنه يعرف جيدًا أن تلك القواعد الشرقية إذا خلصت للقادر، فستكون في الواقع ملكًا له ورهن تصرفه، وتم الاتفاق على تسليم المدينة في 27 محرم سنة 478هـ.

وغادر الملك المنكود «يحيى القادر بن ذي النُّون» «طُلَيْطِلَة» ومعه أهله ومتاعه، في ركب كبير من الخيل والبغال، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء،

والأشراف الذين آثروا المغادرة، ورآه الناس منشغلًا أثناء تحرك موكبه بتشغيل الإسطرلاب يريد استطلاع الفأل والتطير، فتغامز وتلامز جند الإسبان حتى ضجوا بالضحك خاصة «توماس، ورامون» الذين لم يروا ذليلًا غير مبال هكذا من قبل، واغتاظ منه المسلمون والحسرة تنهش قلوبهم، فهو يتركهم قاصدًا «بَلَنْسِيَة» خائبًا مما تمناه، شرقًا بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه وتستأذن في انتقامه، والسماء تود لو لم تُطلع نجمًا إلا كدرته عليه حتفًا مبيدًا، ولم تنشئ عارضًا، إلا مطرته فيه عذابًا شديدًا، واستقر بمحلة «الفونسُ» مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب... ثم أكمل مسيره وخلال ذلك ظهر له من موقف الحصون المختلفة أنها جميعًا تقف ضده، ولم يبق على ولائه منها سوى حصن «قونقة» فنزل بها وصحبه، حتى تتهيأ له ظروف العمل.

***

(2)
مسجد باب المردوم

وفي صباح يوم الأحد غرة صفر سنة 478هـ/ 25 مايو 1085م، تقدم «الفونسُ السادس» وحوله جحافل من الفرسان والرهبان حتى وصل إلى الأسوار، ووقف أمام بوابة «الشقراء القديمة» وهو باب فخم ملتصق بالجدران الصلبة لحصن عربي مميز على واجهته قوس فريد للغاية ومن فوقه أقواس أُخرى على شكل حدوة حصان كبيرة، مرت اللحظات بطيئة على «الفونسُ» وشعر أن وفد التسليم تأخر في الوصول..

وفجأة سُمع من الجانب الآخر من السور داخل المدينة مسيرة صاخبة تعزف فيها الطبول والمزامير، وبعد ذلك بوقت قصير ظهرت مجموعة صغيرة من أهل المدينة يرتدون ملابس بسيطة دون أسلحة، على رأسهم القائد المكلف بالتسليم وآخر يحمل راية كبيرة بيضاء، وقد حضر ليعطي «الفونسُ» مفاتيح المدينة ويوجه الولاء، فارتجف من العار والألم، وهو يحمل مفتاحين من الحديد على صينية ذهبية واحد للمدينة والآخر للقلعة، وقدمها

راكعًا، في نفس الوقت لم يسمح له «الفونسُ» بالانتهاء من الركوع حتى نزل من جواده، فقال القائد بصوت مبلل بالدموع:

- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

أجابه الفونسُ بصلف:

- أعان الله المؤمنين الحقيقيين.

وأخذ المفاتيح، وأشار بيديه لـ«ابن أنسور» ومن عينيه يخرج ذلك الشعاع وقد صارت طُلَيْطِلَة تستقر فوق راحة يده، ودخل المدينة دخول الفاتحين، وخلفه راية قشتالة، ومر من البوابة ولم يسلك طريقًا سهلًا، بل اختار طريقًا منحدرًا حتى وصل إلى مسجد «باب المردوم» وأمامه شدَّ اللجام بقوة إلى الوراء، ففزع الجواد وأخذ في الصهيل، ورفع رجليه الأماميتين في الهواء يلوح بهما ثم هبط على الأرض، وظل «الفونسُ» يكرر هذا، وأظهر أنه قد تعثر في قيادته بعض الشيء، ولم تكن هذه الحركة سوى إشارة خفية لـ«برنار» رئيس الأساقفة الذي كان حاملًا لصليب خشبي بطوله تقريبًا، فوقف أمام الملك والحشد من ورائه وقال:

- انظروا الأحصنة لا تريد مغادرة المكان.

فهبط «الفونسُ» من فوق ظهر الجواد إلى الأرض، ونظر حوله بنظرات صلبة وقبض على ناصية الجواد، وجذبه بيده فخر الجواد على ركبتيه من قوة الجذب، وصاح «برنار» بحماس وهو يقف أمام الموكب:

- هذه لمحة من السماء! هذه لمحة من السماء... ما هذا المكان يا سيدي؟

نظر «الفونسُ» إلى المسجد الذي خرج إمامه على إثر تلك الضجة، وأشار بيده:

- أعتقدُ أن هذه محبسة قديمة سكنها الرهبان النسّاك وقد حولها العرب إلى مسجد.

صاح الإمام في غيظ مكتوم:

- إنه مسجد بني حديثًا، ولم يُتم قرن على بنائه، فمن أين يسكنه الرهبان؟

ثم أشار بيده لأعلى الواجهة حيث إفرِيْز يقع بين صفين من الأسنة البارزة:

- اقرأوا ما كتب على النقش «بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد «أحمد بن حديدي» من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يد «موسىٰ بن علي» البناء وسعادة، فتم في المحرم سنة تسعين وثلث مئة».

هزَّ «الفونس» كتفيه، وقال عابسًا:

- ولماذا يُسمى الباب المردوم؟ لا بُدَّ أن هناك ردمًا مقدسًا هنا، سنكشف عنه!

فغر الإمام فاه وهو ينظر إليهم في ذهول:

- ولكن هناك بوابة اسمها هكذا، وهناك بيت قديم اسمه كذلك أيضًا، إنه مجرد اسم، وقد بني المسجد ليكون موضع استراحة لزوار المدينة.

الفونس لرجاله بلهجة آمرة:

- قوموا ببحث دقيق، إن كان هناك ردم!

حاول الإمام الاعتراض وأن يثنيهم عن الاقتراب منه، فضربه الجنود، ودخلوا المسجد الذي كانت نوافذه طولية على هيئة بوابات زخرفية مغطاة بزجاج يفيض النور منه، وعاثوا فيه تخريبًا، وأمرهم «برنار» بالحفر أسفل المحراب، ثم فجأة خرج وهو يصيح:

- عثرنا على نور المسيح، إن وهج ضوء مصباحه الذي يحترق خلال ثلاثمئة وسبعين عامًا من سيطرة المسلمين في طُلَيْطِلَة ينبعث هنا، المسيح يريد هذا المسجد!

أومأ «الفونس» برأسه:

- لنتم إرادة الرب ولنجعل المسجد كنيسة نور المسيح.. فليسترح هنا الفرسان.

أعقب «برنار»:

- وتخليدًا لذكرى هذا الحدث المجيد ولنقدم شهادة للأجيال القادمة، ضعوا حجرًا أبيض في نفس المكان الذي وقف فيه خيل الملك الفونسُ.

أكمل «الفونسُ» طريقه نحو القصر الذي كان ينزل به أيام محنته في ضيافة «الْمَأْمُون»، ثم استقر به وعهد بحكم المدينة إلىٰ «سِسنانْدُ»،

وأوصاه بمتابعة الترجمة، ونقل كل أمهات الكتب العربية في «طُلَيْطِلَة» إلىٰ اللاتينية وأخذها من أهلها بالقوة! فضبط «سِسنانْدُ» الأمور، وحاول التقرب من المدجنين المسلمين، وسلك مع أهلها مسلك المودة واللين، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبديل في مصايرهم، وفرق على ضعفائهم مئة ألف دينار ليستعينوا بها على الزراعة والاعتمار، فاستمال قلوب الكثيرين منهم، وأقبل بعض العامة على التنصر، وأظهر «موسىٰ الطويل» ما كان يخفيه، وعاد «بِلاجيوس» إلىٰ داره.

ونصح «سِسنانْدُ» إلىٰ مليكه أن يلتزم الاعتدال والروية في معاملة المدينة المفتوحة، وأن يقف مؤقتًا عند هذا الحد، وألا يلح على ملوك الطوائف خوفًا من أن تنقلب الآية!

***

(3)

كان «زياد» لا يفارق داره مذ سقطتِ المدينة، وقد حاولت «ليلىٰ» أن تخرجه عما هو فيه فجلستِ إليه:

- لقد أعذرت والله إلىٰ ربك، فلم تخرج مع الخارجين، ولم ترض التسليم، وقد كان كل ما فعلت يدل على حسن تدبيرك، وكنت إنما تريد الموت تحت أسوار المدينة، ولكن ماذا يفعل السيف إن لم تجتمع إليه سيوف؟ وماذا يصنع القلب وقد انفضت عنه القلوب؟ وقريبًا يعلم الذين استسلموا عاقبة استسلامهم، فلا ذنب لك، ولا تذهب نفسك حسرات عليهم.

نظر إليها نظرة تحمل كل معاني الضياع:

- لا يا ليلىٰ، فإن نفسي لا تذهب على مَن استسلم حسرات، ولكنها على المساجد وقد جعلوها كنائس، وعلى بلد فتحه الرجال وأضعناه! على بلد فتح بالقليل وضاع من الكثير، وأي طيب للحياة وكرامة ونحن هنا أسرى بين أيديهم؟ وأي كرامة وبلادنا تقتطع من أطرافها؟ والآن ذهب بعض من قلبها!

أخذت «ليلىٰ» برأسه وضمتها إلى صدرها:

- وهل سيفيد «طُلَيْطِلَة» هلاكك الآن يا حبيبي؟

ترقرق الدمع في عينه:

- يا ليتني مت تحت أسوارها، ولم أشهد وداعها! وهي تخرج من قبضة الإسلام، وترتد إلىٰ النصرانية حظيرتها القديمة!

وبينما يبكي «زياد» ضياع «طُلَيْطِلَة» كان في شوارعها يسير «بِلاجيوس» ومعه صديقيه الجديدين «رامون، وتوماس» يرافقهما «موسىٰ الطويل» الذي رسم الصليب علانية في صدره، وأظهر للجميع ما كان يخفيه، وأكثر ما أراحه أنهما لم يتعرفا عليه إذ إن ملامحه وثيابه تغيرت عما كان في «شِقُوبية» تحركوا يشاهدون المدينة وكأنها عروس فتية، وساروا في شارع القنطرة حيث متنزه عريض مغطى بمظلة كثيفة من الخضرة والعشب الناعم، لم يكن هناك أحد ولم يُسمع أي ضجيج باستثناء جدول على يمين الشارع تداعبه هبات النسيم فيلغو بصوت الخرير، أطلق «توماس» من فمه صفيرًا وسط السكون المخيم:

- لم أك أعلم أن بلاد العرب جميلة هكذا!

وانساب الجمال الأخاذ إلى قلب رامون:

- وأي سحر؟ وأي جمال؟ انظر إلىٰ الأزقة كيف بلاطها؟ وإلىٰ البيوت والحدائق الغناء كيف جمالها؟ فهل متنا يا توماس ودخلنا الجنة؟

ضحكوا بينما قال موسىٰ:

- ليس هذا فحسب فطُلَيْطِلَة تموج بمباهج الحياة، ولكن أي حياة تروق دون خمر نشربها.

توماس ورامون في نفس واحد:

- هنا في طُلَيْطِلَة؟!

بِلاجيوس مزهوًا:

- أجل هنا.

- كنت أظن أني لن أجدها هنا أبدًا، وقد علمت أن تعاليم المسلمين لا تسمح لهم بشرب الخمر.

قهقه موسىٰ:

- ذلك يا توماس، لأنهم ينكرون ذهاب العقل وتغييبه، ولم يعلموا أن الخمر ما تذهب العقل إلا لتستحضر القلب، فتقوده إلىٰ ما يطلب من متاع الحياة، وتبتهج الدنيا كلها، إنها تنسيك الغم ووجوه تكرهها، وتجعلك تعيش عالمًا غير عالمك... هيا فاليوم نحتفل بحريتنا.

تحرك الجميع حتى ولجوا دكان «النخاس منصور» الذي ما إن رآهم، حتى سارع وقدم لهم أعتق الخمور، فشربوا حتى ذهب عقلهم، وثقلت أجسادهم، وظلوا هناك طوال الليل وعندما حلَّ الصباح، تحركوا وهم يتمايلون ويصيحون، والناس تستهجن صراخهم، ولكنَّ أحدًا لم يجرؤ على الحديث إليهم وردعهم، وكيف وهم من جند قشتالة أسياد «طُلَيْطِلَة» الجدد؟!

وبينما يتمايلون إذ ركز «توماس» عينه على امرأة ما تتحرك، وحدق إليها النظر، ثم قال لرامون:

- انظر، إنها هي!

- مَن تقصد يا رجل؟ هل ذهبتِ الخمر بعقلك؟

- لا لم تذهب، وإلا ما تذكرتها، دقق النظر مرة أخرى.

نظر «رامون» إلىٰ امرأة تشتري الخضار اليابس، فسفتِ الريح حجابها ورفعته، فوقفت تمسك به، وتعيد إحكامه حتى لمحتهم ينظرون إليها، فارتبكت ارتباكًا شديدًا، وسقطتِ السلة من يدها، وانفرط الخضار على الأرض، فصاح:

- أظنها هي!

وما إنْ قال ذلك، حتى ركض «توماس» وراءها، وهم بالانقضاض عليها، ولكنَّ «موسىٰ» ركض وراءه هاتفًا:

- على رسلك، ماذا تريد منها؟

أخرج «توماس» سيفه، والشرر يتطاير من عينه:

- ابتعد عني! فلن يُفلتها مني أحد.

فما كان من «موسىٰ» إلا أن دفعه بشدة، حتى أسقط السيف من يده، ووقع «توماس» على الأرض، بينما هرولت «ليلىٰ» لا تعبأ بأحدٍ، ولا تنظر حتى خلفها، وما إنْ ابتعدت، حتى اقترب «موسىٰ» من «توماس» وقال له:

- لمَ فعلت ذلك؟ فإن كان من أجل الحرب فقد وضعت أوزارها، ونساء طُلَيْطِلَة لسن سبايا، فلا تشعل فتيل غضبي.

انهال «توماس» عليه بالشتائم، فجذبه «بِلاجيوس» وكذا فعل «رامون» من جهة أخرى حتى هدأ قليلًا.

***

(4)

كانت «ليلىٰ» تطرق الباب بشدة، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، وقد فتحت لها «حفصة» فوجدتها مذعورة ترتجف أوصالها وتبكي بكاءً شديدًا:

- إنهم خلفي، إنهم يلاحقونني!

خرج «زياد» مشدوهًا وهو يقول:

- مَن؟ مَن فعل بكِ هذا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

نظرت ليلىٰ إليه باكية:

- توماس، ورامون!

- تعني...

- أجل يا زياد، ولولا «موسىٰ» الذي ما رضي لي بالقتل أو السبي مرة أخرى، لكنتُ الآن قتيلة أو جارية لديه.

ذُهل «زياد» وشعر أن الدنيا تموج به للحظة، وانتبه على صراخها وتوسلها:

- لنخرج من طُلَيْطِلَة فلا حياة لنا فيها، وقد ملكها هؤلاء! لن يتركنا «توماس» هذا نحيا بسلام فيها، وليس لنا عاصم يعصمنا منهم الآن ونحن في جوارهم.

دسها «زياد» في حضنه:

- مَن يقترب منك، سيسبقه سيفي إلىٰ قلبه.

مضى اليوم سريعًا، ولجأ أهل الدار إلى مضاجعهم منكسرين الخاطر، يخشون القادم، وفجأة سمعوا صوت جلبة وكسر بالباب، فتحت «ليلىٰ» عينيها فزعة، واستل «زياد» سيفه، وكذا فعل «جعفر» وسبقه إلى الباب، ولكن «توماس» كان معه أربعة جنود أقوياء، فضربوه على حين غره إذ مكث له أحدهم وطعنه من الخلف، وتقدم صوب «زياد» يريد النيل منه، و«جعفر» مرضخ في دمائه، وقد خارت قوته، وسرعان ما أمسك جنديان بـ«زياد» مقيدًا من ذراعيه، فشلت حركته ولم يقدر على فعل شيء، فتقدم «توماس» نحوه والغضب والكراهية يتقافزان من عينيه:

- أين مَن اختارتك عليَّ؟ فلأقتلنك أمامها، ولكن قبل ذلك سأذيقك ما هو أشد من الموت!

فما كان من «ليلىٰ» إلا أن اندفعت من غرفتها في جُرأة رافعة خنجرًا، وأشارت به تجاه «توماس»:

- سأغمده في قلبك، إن اقتربت مني أيها اللعين!

صاح بها «زياد»:

- ارجعي يا ليلىٰ!

بينما تقدم «توماس» نحوها بحركة ضعيفة وخُطى وئيدة لا يخشى ولا يهاب شيئًا، ولكنه يتلذذ بنظراتِ الفزع في وجهها، واقترب منها وهي تطلق أنفاسها اللاهثة، حتى سمع صوتًا من خلفه:

- لم نتفق على ذلك يا توماس!

ظهر «موسىٰ» فجأة، ونظر إلىٰ «جعفر» المسجى، فجزع مما رأى:

- لم تخبرني أنك ستقتل أحدًا؟ وقد أقسمت إنك فقط تريد استرداد أموالك.

- وهذه أَيْضًا من أموالي، وقد جئت لأخذها.

- لن تقترب منها يا توماس! ولن تمسها!

زمجر «توماس» في حنق وغضب:

- ابتعد عني، وإلا قتلتك!

تبدلت ملامح «موسىٰ» وكشر عن أنيابه، وانتهز «زياد» غفلة الجنديين وهما يتابعان الحوار، فركل أحدهما في ساقه، ودفع الآخر، وأخذ سيفًا فقطع ذراع أحدهما، بينما هرب الآخر ذعرًا، فانقض «زياد» على ثالثهما، واشتبك معه اشتباكًا عنيفًا، في نفس اللحظة كان «موسىٰ» قد أشهر سيفه في وجه «توماس» واصطكتِ السيوف في قلب المنزل، وصيحات «حفصة» تصم الآذان، حتى سمع الجيران، وبدأوا يتجمعون، فاقتحموا الدار، وتدخلوا لوقف القتال، وحملوا «جعفر» المطعون، وكذا الجندي المصاب، وكان ممن دخل «بِلاجيوس» الذي أخذ بيد «موسىٰ، وتوماس» خارجًا:

- أوصل بكما الأمر أن تتقاتلا فيما بينكما؟ ألم تتفق على سلبه ثمن ما أخذه منك فقط؟

زفر «موسىٰ» غاضبًا:

- ألا ترى ما فعل بزياد؟ لقد همَّ باغتصاب زوجه! فلتشكر الرب أني لم أقتله.

نظر بِلاجيوس في عينه وقال بنبرة اتهام:

- وهل أنت حزين عليه يا موسىٰ؟ ماذا لو مات؟ فلا يكون هذا سببًا لتصارعكم.

أشار «توماس» إلى موسىٰ:

- لقد شهر هذا العربي الحقير سيفه في وجه جندي للملك الفونسُ، ولن أتركه يحيا بعدها.

- على رسلك يا توماس، إنما هو مسيحي مثلك، وصهري أَيْضًا.

- لن أتركه يحيا وإن كان في ظل الملك نفسه، فقد اعتدى على حرماتي وحرمني من أخذ أموالي.

ولم يزل «بِلاجيوس» يتحدث إليهما، حتى عاد كل منهما إلىٰ رشده، شريطة أن يترك «موسىٰ، توماس» حرًا في أحقاده، ولا يكون عائقًا أمام انتقامه ممن سلبه أمواله.

***

(5)
وداعًا طُلَيْطِلَة

- هل سيعود موسىٰ إلىٰ الإسلام، أم ماذا؟ ولكن في مثل هذا الوقت، وبعد فواتِ الأوان!

قالتها «حفصة» وقد تعجبت منه وهي تعلم ردته وتنصره، وأفعاله إبان حصار المدينة فأجابها «زياد»:

- لا، لم يعود، ولن يفعلها، ولكن ربما كان بداخله وفاء لصديق قديم هذا كل شيء.

- إن تمكن «توماس» منا فلن يتركك تعيش، ولن يتركني حرة، فالعزيمة الآن أن نخرج من طُلَيْطِلَة قبل أن ندفن فيها! هيا يا زياد فوالله، لن تعود طُلَيْطِلَة بموتنا هنا!

لم تكد «ليلىٰ» تنهي حديثها حتى قال «زياد»:

- تجهزي وحفصة، وسأعود لكما بعد قليل.

هتفت «حفصة» في جزع:

- إلىٰ أين يا زياد؟

- يجب أن ألقى سيدي الإمام.

وخرج «زياد» من داره لأول مرة بعد احتلال القشتاليين للمدينة، وتحرك وكأنه في بلاد غير بلاده، حتى ولج المسجد الجامع، وفيه وجد شيخه جالسًا عند المحراب، فتقدم صوبه وقصَّ عليه ما كان، فمسح «المغامي» على فخذه وقال ناصحًا:

- يجب أن تخرج لتنجو بحياتك وأهل بيتك، وإن الهجرة من دار الكفر واجبة، خاصة لو مثل البقاء تهديدًا لدين الرجل، وحياته.

- دار الكفر!

نهض «المغامي» واحتضن «زياد» الذي بكى كثيرًا، وكلمته الأخيرة تطن في أذنه، وترددت نظراته في جنباتِ المسجد يتذكر أيام الدرس، والقرآن زمن أن كان الإسلام سيدًا، ثم قبل يد الإمام، وخرج ودموعه لا تتوقف، وبينما هو

عائد إلىٰ المنزل، إذ رأى فَقِيه يعرفه جيدًا يُدعى «أَبُو الْقَاسِم بن الْخياط» رآه حالقًا لحيته ووسط رَأسه، ويستبقي من شعره خصلتين قصيرتين تتدليان خلف أذنيه، وقد شد الزنار[1] فوق ثيابه، فَأوقفه «زياد» وقَالَ لَهُ:

- أَيْن عقلك؟

- مَا فعلت هَذَا إِلَّا بعد مَا كمل عَقْلِي.

ثم راح يهمس إليه بشعرٍ:

تلـوَّنَ كالحِرْبـاء حيـنَ تَلَـوُّنٍ ... وأَبصـرَ دُنْيَـاهُ بمـلْءِ جفونِـهِ
وكلٌّ إِلَى الرَّحْمَنِ يُومِي بِوَجْهِهِ ... ويذكـره فِـي جهـره ويقينـهِ
ولوْ أَنَّ دِينًا كانَ نَفْيًا لخالقي ... لمَا كُنْتُ يَوْمًا دَاخِلا فِي فنونِهِ

فصاح به «زياد» ونياط قلبه تتقطع حسرة:

- أَقَمت خمسين سنة على العفاف وَالْخَيْر ولم تُعرف لَك زلَّة، ثم تتنصر!

- يا هذا، إنك لا تهدي من أحببت!

تركه «زياد» وتحرك هائمًا وهو لا يدري كيف وصل إلى المنزل، فوجد «ليلىٰ، وحفصة» قد تجهزتا، فودع البيت وكل ما فيه ثم حمل ما يمكن حمله من مال، وتحرك الثلاثة..

لم يمنعهم أحد من الخروج تنفيذًا للمعاهدة، وساروا في وسط جموع تنتحب، وعائلات تستبق الهروب، وراح «زياد» يودع ببصره أزقة المدينة، وشوارعها الضيقة، ومساجدها التي كانت يومًا بالإسلام عامرة، والدموع تكاد تنفجر من عينيه، حتى وصل إلىٰ «القنطرة» فعبرها ومنها إلى البوابة الخارجية ومعه زوجه وأخته، حتى إذا أمن على نفسه، وعلم أنه بعيدًا عن «طُلَيْطِلَة» أدار ظهره للمدينة الخالدة، وكانت أسوارها العالية ما زالت ظاهرة فبكى، ورفع يده قائلًا:

---

(1) حزام غليظ مطرز مألوف استخدامه كأحد ملابس الخدمة الكنسيَّة.

- وداعًا طُلَيْطِلَة! وداعًا يا بوابة الشمس! يا سُوَيْداءَ القَلْبِ يا مدينة «طارق بن زياد، وموسىٰ بن نصير» وداعًا يا ثغرًا أوسطًا! يا واسطة العقد! وداعًا يا مدينة الزعفران، والثلج، والأبطال!

خرج «زياد» باكي العين موجوع الفؤاد فاقد العزيمة، وكأنه يساق إلىٰ الموت لا يعلم أين يحط رحاله؟ هل إلىٰ «إشبيلية» تحت حكم ملكها الخانع لـ«الفونسُ» أم إلىٰ «المغرب» حيث العدة والعدد والمرابطين؟ أم إلىٰ «بَطَلْيُوس» وملكها الشهم «ابن الأفطس»؟ ذكريات كثيرة ومواقف عظيمة مرَّ بها «زياد» فطال صمته، بينما «ليلىٰ» تنظر إليه متأثرة لا تدري بمَ تتحدث؟ أمَّا «حفصة» فقد كانت عيناها لا تكاد تجفان من فرط دموعها على ذكرياتها وأيامها وأبيها الذي فارقته، وبيتها الذي ما خرجت منه يومًا، وتحرك الثلاثة، وقلوبهم حائرة ونفوسهم حزينة، وقد حاولت «حفصة» التحدث وقطع الصمت فقالت:

- إلىٰ أين يا أخي هل سنغادر الأندلس؟

سحب «زياد» رسن «الورهاء» فأوقفها، وراح ينظر حوله كحمامة ضلت طريقها:

- لعلي لا أستطيع العيش بعيدًا عنها.

مسحت «حفصة» دموعها وقالت بصوت باكٍ:

- ولا أنا أستطيع ترك الأرض التي نشأت فيها.

شعرت «ليلىٰ» بالمسؤولية تجاههما، فخرجت عن صمتها الذي لن يجدي، وقالت بنبرة جادة:

- فلننزل إذن في «قُرْطُبَة».

نظر «زياد» صوب الغرب وأخذه الحنين لذكريات جده ونضال أبيه الذي قصته أمه عليه:

- أما والله قد سمعت عنها الكثير، ولكنها لا تصلح لنا ولا نصلح لها، فقد أضحت كـ«إشبيلية» تحت حكم «ابن عبَّاد» وأنا لن أخرج من عباءة «ابن ذي النُّون» لأكون تحت وطأته وهو من خان «طُلَيْطِلَة» ولكن إن

كان ولا بُدَّ فلنتجه صوب «بَطَلْيُوس» فلعل نصيبنا منها يكون خيرًا من نصيبنا في غيرها.

***

(6)

مُراكُش الحمراء

ازدحمت «قُرْطُبَة» بأُسر الفارين من «طُلَيْطِلَة» وأشاعت نكبة سقوطها ونحيبهم ذعر ويأس، بين سائر الزعماء، والفقهاء، وطبقاتِ الناس الكافة، وأدركوا خطورة الوضع، لعلمهم بعجز ملوك الطوائف عن صد خطر الممالك المسيحية، فعُقد اجتماع شعبي كبير في «قُرْطُبَة» وقالوا لقاضي القضاة «عبيد الله بن محمد بن أدهم» وكان شيخًا جليل القدر، وقور السمت، له نفوذ روحي قوي التأثير في العامة:

- ألا تنظر ما فيه المسلمين من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها، والبلاد غلب عليها الفرنج، ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية! وقد رأينا رأيًا نعرضه عليك.

- وما هو؟

- نكتب إلى عرب إفريقية ونبذل لهم إذ وصلوا إلينا شطر أموالنا، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله.

- المرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا.

توجس الزعماء خيفة، وقالوا:

- ولكنهم أقوى وقد ينظرون إلينا بعين الطمع.

- إن طمعوا فينا فهم مثلنا ولن يضرنا ذلك، سنعرض على أميرهم أمرنا، وننظر فيمَ يكون رأيه؟

وتحرك وفد منهم إلى ما وراء البحر في عدوة «المغرب»، يطالبون الغوث من إخوانهم المرابطين، وعاهلهم «يوسف بن تاشفين» وقدموا له تحفًا وهدايا وكتابًا فيه:

«أما بعد، فإنك إن أعرضت عنّا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحلّ الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استبقائك ذوي البيوتات ما شئت من دوام أمرك وثبوته والسلام».

كان «يوسف» ربعة، أميل إلى القصر، نحيف الجسم، أسمر اللون، لحيته شديدة البياض ناعمة وخفيفة، يشع نور الصلاح من وجهه، يجلس مع ثلة من أكابر رجال دولته في مجلس متواضع، مرتديًا عمامة كبيرة وبرنسًا من الصوف الخشن ويميل لون ثيابه إلىٰ اللون الأزرق وهو اللون السائد في مملكته، وكان لا يعرف اللّسان العربي، لكنّه يجيد فهم المقاصد، وله كاتب يعرف اللغة العربية والمرابطية، فقال له:

- أيها الملك، هذا كتاب من ملوك الأندلس يعظّمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك، ويلتمسون منك ألا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون ومن ذوي البيوتات، فلا تغير لهم، وكفاهم ما وراءهم من الأعداء الكفّار، وبلدهم ضيّق لا يحتمل العساكر، فاعرض عنهم إعراضك عمّن أطاعك من أهل المغرب.

- فما ترى أنت؟

- أيّها الملك، اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يردّ بابه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفى وأن يهب إذا استوهب، وكلّما وهب جزيلًا كان أعظم لقدره، فإذا عظم قدره، تأصل ملكه، وإذا تأصّل ملكه تشرّف النّاس بطاعته، وإذا كانت طاعته شرفًا جاءه النّاس ولم يقتحم المشقّة إليهم، وكان وارث الملك من غير إهلاك آخرته، واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك، قال: من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد.

فلمّا ألقى الكاتب هذا الكلام على الأمير «يوسف» بلغته، فهمه وعلم أنّه صحيح، فقال له:

- أجب القوم، وطمئنهم واكتب بما يجب في ذلك، واقرأ عليّ كتابك.

فلمّا كتب وفرغ، قرأ على «يوسف» بلسانه:

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من «يوسف بن تاشفين» سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحيّة من سالمكم، وسلم إليكم، وحكّمه التأييد والنّصر فيما حكم عليكم، وإنكم بما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصصون منّا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا باصلاح إخائكم، والله تعالى ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام».

استحسن الأمير «يوسف» الجواب، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط[1] التي لا توجد إلّا في بلاده وأنفذ ذلك إليهم. فلمّا وصل كتابه إلى زعماء الأندلس، أحبوه وعظموه وفرحوا بولايته، وتقوت أنفسهم على دفع الفرنج، وأزمعوا إن رأوا من «الفونسُ» ما يريبهم، يرسلوا إلى الأمير «يوسف» ليعبر إليهم أو يمدهم بإعانة منه، ولم يعلموا ما تخبأ لهم الأقدار.

***

(7)

كانت «كونستانزة» جالسة بمفردها تحاول مكابدة الغيرة المقيتة، وقد جَاشَ صَدْرُها غَيْظًا، فطالما ذاقت مرارة خيانة زوجها وعلاقته بعشيقته «شيمانة» التي أنجب منها ابنتين، وها هو يتركها في قصر «ابن ذي النون» بعد فترة وجيزة من دخولهم «طُلَيْطِلَة»، فحولت أجنحة القصر إلىٰ كنيسة

(1) من أكثر أسلحة بلاد المغرب شهرةً حيث كانت من عوامل قوة جيوش المرابطين، والدرق ضرب من الترسة، الواحدة درقة وهي الجحفة تتخذ من الجلود ليس فيها خشب ولا عقب وتكون في الغالب بيضاوية الشكل، واللمطة نسبة إلى حيوان اللمط الذي يعيش في بلاد المغرب ويعتبر من وحوش الصحراء وهو دابة دون البقر تشبه الغزال لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها، فهو من جنس الظباء إلا أنه أعظم خلقًا أبيض اللون.

كبيرة، وعلقتِ الصور في كل مكان، وطمست بعضًا من النقوش العربية، ومحت أثرها، وشوهت كثيرًا من معالم القصر لا لشيء، إلا بغضًا وكراهية للإسلام، واشتهرت بهذا التعصب الرهيب، فاستغل ذلك «برنار» ودخل عليها، وألقى التحية فأذنت له بالجلوس فقال لها:

- جئت أشكر الملكة على حسن ثقتها، فلولاها ما جعلني الملك رئيسًا لكنيسة «طُلَيْطِلَة» وهي أم الكنائس هنا.

كونستانزة بصوت ثابت:

- ما كنت لأنسى أننا من أصل واحد أيها الأب... ويكفي أن تكون فرنسيًا، لتكون على رأس الكنيسة، وقد كنت عند حسن ظني بك، فأنا الآن من يشكرك.

- كلنا نعمل من أجل الرب، والرب وحده من نشكره.

رسم علامة الصليب على وجهه، وصدره، وأكمل:

- ولأن الجميع يعلم حب الملكة لدينها، وربها، وبغضها لهؤلاء العرب البرابرة، وغيرتها على المسيحية، فقد أوكلوني الحديث إليك في أمر مهم.

- تفضل أيها الأب، كلي آذانٌ مصغية.

- هؤلاء العرب يا سيدتي، الذين سمح لهم جلالة الملك بالعيش هنا بيننا.

- تعلم أنه ما أبقاهم إلا لأنهم صناع ماهرون، ومزارعون مجتهدون، وأطباء متفوقون، وقد خشي إن هم تركوا «طُلَيْطِلَة» أن تضطرب أحوالها، ويختل نظامها، والقشتاليون لا يحسنون ما يحسنه هؤلاء العرب، ناهيك من تفرغهم للحرب.

- لكن هذا لا يعني أن يكون جامعهم الكبير أعظم من جميع كنائسنا هنا! فإن كان لا بُدَّ من وجودهم حفاظًا على العهود التي قطعها الملك، فلا أقل من أن نأخذ مسجدهم هذا، فإنها والرب سبة كبيرة أن يحتفظوا بمثله، وليس عندنا شبيهه.

أخذت «كونستانزة» نفسًا عميقًا، وأخرجته مرتاحة:

- أما في هذه، فقد نطقت عما في قلبي أيها الأب المحترم، ولكن كيف السبيل إلىٰ ذلك؟

- فقط باركي العمل، وسنقوم بتحويل المسجد إلىٰ كنيسة.

- أنا لا أمانع في ذلك، ولكن ماذا عن مواثيق الملك وعهوده؟

- لا أظن أن الملك سيغضب إن فعلنا، وحجته أنه غائب عن المدينة، وأن ما حدث لم يكن بأمره.

- وماذا عن المسلمين إن غضبوا؟!

قهقه «برنار» وخرج عن وقاره:

- أبعد دخولنا عليهم سيغضبون؟ فأين كان غضبهم ونحن على الأسوار؟

- ربما أنت على حق أيها الأب، ولتعلم أنني أبارك هذا العمل العظيم.

وهكذا وافقتِ «كونستانزة» على تحويل المسجد كنيسة، وعلم «سِسنانْدُ» بالأمر فاستأذن للدخول عليها، وعبثًا حاول أن يثني القس والملكة عن غيهما، وأن يبين لهما سوء العاقبة في مخالفة العهود المقطوعة على هذا النحو. فقالت له:

- لقد قُضيَ الأمر، ولا تتدخل في أمر لم نطلبك فيه، كل ما عليك أن تخبر «ابن أُردُنيو» ليكون على أهبة الاستعداد، وسحق المسلمين إن هم ثاروا.

وفي اليوم المحدد أرسل «برنار» مسلحين للسيطرة على المسجد الجامع بالقوة، وتحرك ومعه كبار الرهبان، وكان المسجد خاليًا إلا من الإمام «المغامي[1]» وطالب علم صغير، فسمعا أصوات ضجيج وصخب، وصوت أقدام تقترب، فارتجف الصبي وظل يحملق ويحدق إلى جنبات المسجد وسقفه دون أن يركز بصره، فعيناه زائغتان من الحزن والألم والدهشة، وقد اغرورقتا بالدموع، وفجأة سمع صوت الشيخ آمرًا إياه:

- اقرأ.

فهزه الصوت، ولكنه امتثل لأمر شيخه وأستاذه، وبدأ يتلو:

---

(1) هو العالم الفقيه المقرئ مُحَمَّد بن عيسى بن فَرَج، أبو عبد الله التُّجَيْبيّ المَغَاميّ الطُّلَيْطُلِيّ، وكان عالمًا بالقراءات ووجوهها ضابطًا لها متقنًا لمعانيها إمامًا ذا فضل.

- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا.

والشيخ يصحح له الأحكام والتجويد، وكأنَّ الشيخ أراد أن يكون في تلك اللحظات منعزلًا عما يدور حوله، وبعد هنيهة اقتحموا المسجد بأحذيتهم، وتكاثروا وحاولوا العبث بالموجودات، ولكن ما جسر أحد منهم على الاقتراب من الشيخ ومعارضته، وقد تملكهم الإعجاب والتقدير لشجاعته، وما إن رآهم حتى علم بنيتهم، فلم يعبأ بوجودهم، واستمر هو وتلميذه في القراءة:

- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا...

فأحاطه الجند وكأنهم مردة العفاريت، ولكنهم رهبوه كثيرًا، وكلما قالوا له:

- عجّل!

أشار هو إلى تلميذه الذي يختنق بالعبرات وترتعد شفتيه بأن أكمل:

- إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا.

ثم قام «المغامي» ما طاش ولا تهيّب، فسجد واقترب، وبكى على المسجد مليًا وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه، ويهابون مكانه، لم تمتد إليه يد، ولا عرض له بمكروه أحد، بل انتظروه حتى يكمل صلاته، فصلى وبكى كثيرًا، وما إنْ انتهى حتى نظر في وجوههم، وودع المسجد بعيونه، وخرج منه فكان بذلك آخر مسلم صلى بمسجد «طُلَيْطِلَة» قبل تحويله إلىٰ كنيسة، وما إنْ فعل حتى صاح «برنار»:

- تخلصوا من قذارة شريعة محمد.

وحطم المحراب وأمر بإقامة الهياكل فيه، فنصبوا مذبحًا مؤقتًا، وصعدوا المئذنة وهي من أعاجيب البناءات صناعة وعلوًا فبها ثلاثمئة درجة، منها مئتان إلى موضوع التأذين حيث وضعوا جرسًا كبيرًا، ومئة درجة إلى رأس الجامور حيث رفعوا صليبًا، وظل المسجد على هيكله الخارجي دون أي تغيير.

وفي اليوم التالي عُقد بالجامع قداسًا حافلًا، فهاج المسلمون وماجوا، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة بالمدينة، لاستحال هياجهم إلىٰ ثورة مدمرة.

وصل الخبر إلى «الفونسُ» فعاد على الفور غاضبًا، ولم يتمكن رئيس الأساقفة ولا الملكة من تهدئته، وذهبت إليه حشود المسلمين يريدون الوفاء بوعده لهم، فتظاهر أمامهم بأنه سيصدر حكَمًا بالإعدام على جميع المتورطين، ولكنه لم يكن ليفعل! وأراد «برنار» أن يجعل له مخرجًا من هذا الموقف الحرج، فقال:

- إن المسلمين قدموا وساطة حقيقية لتحقيق السلام، وقد تمثل لي شخصي الفقيه «أبو الوليد الباجي» حاملًا رسالة تسامح للملك قيل فيها إنهم قبلوا بالاغتصاب ومنحنا شرعية... وتخليدًا لذكرى هذه البادرة وامتنانًا وتكريمًا له، نطلب وضع دميته على أحد أعمدة الكنيسة الرئيسية.

وبهذا العمل خرج المسلمون وليس لهم في المسجد إلا تمثال لكاهن مسلم المظهر!

***

لم يمر كثيرٌ من الوقت حتى عقد «الفونسُ» حفلًا كبيرًا في المسجد الجامع يضم كل مؤيديه من مختلف فئات الشعب الطُلَيْطِلَي الجديد، والكل يقدم له التبريكات وينشد له الأشعار، وبينما هو في زهو وقد داخله من الإعجاب كل ما مشي على التراب، أتاه خبر اجتماع القضاة في «قُرْطُبَة» ولكنه لم يترك الحفل، وظل يستمع إلى قساوسة القوط المستعربين الذين قدموا لتهنئته ومباركته وقال كبيرهم:

- دع جوقات الملائكة تبتهج أخيرًا، لانتصار ملك قوي لدرجة أن الأبواق تعلن الخلاص، ولتنعم الأرض متألقة بتألق الملك الأبدي، ولتتحرر من الظلام الذي غطى الكرة الأرضية بأسرها.. آمل أن تفرح الكنيسة، أمنا، مرتدية مثل هذا النور الباهر؛ دع هذا المعبد يتردد صداه مع تصفيق الناس.. إنه حقًا عادل وضروري أن نهتف بأصواتنا وبكل مودة قلوبنا بالله غير المنظور، الآب القدير، وابنه الوحيد، ربنا يسوع المسيح.

كان رئيس الأساقفة «برنار» وحاشيته من رهبان وفرسان يتبادلون النظرات في ضيق واستحقار، فوقف «الفونسُ» على المنصة أمام الحضور، وصمت الجميع ليستمعوا قوله:

- لقد آن لمسيحي «طُلَيْطِلَة» من أهل القوط المستعربين، أن يطوروا من أنفسهم ليكونوا تحت حماية البابا في روما، ولأن الشعائر مختلفة، فمن الآن سنختار ممارسة طقوس الصلوات فإما روماني أو قوطي؟!

ارتفعت الهمهمات بين الحضور، وعلت أصوات المعارضة، وضجيج الخلاف، حتى كاد أن ينشب شجار مسلح بين الفريقين، ولكي يُحسم الأمر شكلوا دائرة صغيرة أشبه بحلبة مصارعة وجرت مبارزة عادية حيث اختار كل جانب فارسًا كممثل للبت في النزاع دون قتال، ونظر «توماس، ورامون» إلى «بلاجيوس، وموسىٰ» بتحدٍّ، وتجاهل «الفونسُ» انتصار البطل المؤيد للطقوس القوطية، وعاد مجددًا يقول:

- سنمتحن الكتابين المقدسين، ولنر أيهما سينجو من النار، ليكون هو الدستور الدائم على جميع أنحاء الإمبراطورية.

رُسمت على الأرض دائرتين من النار، وأُلقِي في كل واحدة منها كتاب، وحُبست الأنفاس وهي تنظر إلى تطاير شذرات النيران، تعرض الكتاب القوطي لأضرار طفيفة بينما احترق الكتاب الروماني، فحاول مرة أخرى برمي نسخ أخرى، ولكن الكتاب القوطي لم يصب بأذى بينما تفحم الكتاب الروماني في النار، تجاهل «الفونسُ» مرة أخرى النتيجة غير المواتية له، واقترب بنفسه من النار وركلها باتجاه اللهب معلنًا أن الطقوس الرومانية هي الفائزة!

ظهر استياء جلي بين نصارى المستعربين الذين كانوا معاهدين، وأدركوا أنهم وقعوا في فخ الغزو الفرنسي وليس فتح البلاد واستعادتها كما ظنوا، فقد كانوا تحت حكم المسلمين ينعمون بحرية ممارسة شعائرهم، ولم يكرهوا على غيرها، فصاحوا وهاجوا وبدأوا عبثًا في الاعتراض، كيف سيسلمون دورهم وكنائسهم لهؤلاء الفرنسيين ليكونوا رُؤَسَاءهم وسادتهم؟ وتحت هذا الضغط قال لهم «الفونسُ»:

- سأمنحكم بعض التسامح، وأتنازل لكم عن ستة مساجد داخل المدينة لتحولوها إلى أبرشيات، وتواصلوا ممارسة طقوسكم، وليعلم رهبانكم أنه لا يمكن أن تدخل شرائعكم في الكاتدرائية أو تأخذوا دور السلطة كالأسقفية، فتلك المناصب لمن يمارس الشعيرة الروماني حصرًا.

أدى هذا إلى انخفاض في صفوف رجال الدين المستعربين، وهزيمة معنوية لهم، ولكنهم أحضروا تاجًا مرصعًا بالجواهر وملابس كان قد لبسها من سلف من ملوك القوط في «طُلَيْطِلَة» قبل دخول المسلمين إليها، وقالوا للفونسُ:

- ينبغي أن تلبس هذا كمن كان قبلك في هذا الملك.

تحرج من أن يوافقهم فيصبح تابعًا لهم ويغضب الرهبان الفرنسيين، فاعتذر عن ذلك بحجة مقنعة:

- لا، حتى أطأ ذروة الملك، وآخذ قرطبتهم واسطة السلك، فلتعدوا لمسجدها الجامع ناقوسًا، وتأنقوا في إبداعه، والمسيح المخلص، لأرسلن إلى ملوك الطوائف أنني لن أترك في الجزيرة من الثوار أحدًا، ولن أبقي لهم ملتحدًا سوى من اكتنفته رعايتي، وشملته عنايتي.

قالها وهو لم ينس للمُعْتَمِد تحديه له وقد أقسم من قبل أن ينتقم منه، ثم نظر إلى الرجل الذي كان فقيهًا للمسلمين يومًا ما:

- يا بن الخياط اكتب إلى «ابن عبَّاد» رسالة ملؤها الوعيد والنذير، طالبه بتسليم أعماله، وحذره من مثل «طُلَيْطِلَة» ومحنتها، ولا تنس أن تبدأها بلقبي الجديد.

فكتب في رسالته:

«من الإمبراطور ذي الملتين، الملك المفضل، «أذفُنش بن شانجة» إلىٰ «المُعْتَمِد بالله» سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت في ربعه المنى، باغترار الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل بـ«طُلَيْطِلَة» وأقطارها، وما حاق بأهلها حين حِصارها. فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد سلف، بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى

بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشي الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليك الكونت «البار»؛ وعنده من التسديد الذي تلقى بأمثالك، والعقل الذي تدبر بلادك به ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك».

***

(8)

هوى «الفونسُ» بكلابه ووحوشه، هاجمًا على المدن والحصون التابعة لمملكة «طُلَيْطِلَة» يحمل إليها أعلام الدمار والموت، ويمزق أشلاءها، ويخضعها واحدة واحدة، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه، فشن غاراته على جميع أعمالها حتى فاز باستخلاص جميع أقطار «ابن ذي النون» واستئصالها، وذلك ثمانون منبرًا سوى البنيات والقرى، وحاز من «وادي الحجارة» إلى «طلبيرة، وفحص اللج، وأعمال «شنتمرية» كلها فلم يكن بالجزيرة كلها من يلقي الذي يلقي أقل كلب من كلابه.

وأثناء فرحه باقتحام المعقل الحصين «مدينة سالم» وعند مدخل قلعة المدينة، نصب على ضريح «الحاجب المنصور» خيمة كبيرة، وفيها سرير من الذهب أقامه فوق القبر، ونام عليه، معه زوجته متكئة، تملؤهما نشوة موت قائد الجيوش الإسلامية وأمير الأندلس في عصره الذي توفي منذ خمس وثمانين عامًا وهو عائد من إحدى غزواته على «برغش»، وكان يستعد لغزو حدود «فرنسا» بلاد الفرنجة، فكانت سيرته تملؤهما رعبًا حتى وهو تحت التراب، وقد نقش على قبره:

آثارهُ تُنبيــــكَ عن أخبــــارهِ ... حتى كأنــكَ بالعيــانِ تــراهُ

تالله لَا يَأْتِي الزَّمَان بِمثلِهِ ... أبـدًا ولا يحمـي الثغـورَ سِـوَاه

وبينما جند «الفونسُ» وحاشيته يرقصون ويقارعون الخمر من حوله وهو على هذا الحال، دخل عليه سفير عربي من سرقسطة يُدعى «شجاع[1]» فقال له:

- يا شجاع، أما تراني قد مَلَكْتُ بلاد المسلمين والعرب، وجلست على قبر أكبر قادتهم؟!

أجابه «شجاع» وقد حملته الغيرة:

- هدئ من صوتك، والله لو تنفس صاحب هذا القبر، ما سُمع منك هذا الكلام!

غضب الفونسُ، وقام يسحب سيفه عليه، حتى أمسكت «كونستانزة» ذراعه، وحالت بينهما تمنعه وفي قلبها رهبة:

- صدقك فيما قال؛ أيفخر مثلنا بالنوم فوق قبره؟! والله إن تنفس لما ترك فينا واحدًا على قيد الحياة، ولا استقر بنا قرار، إنَّ هذا ليزيده شرفًا حتى بموته لا نستطيع هزيمته، والتاريخ يسجل انتصارًا له وهو ميت قبحًا بما صنعنا، وهنيئًا له النوم تحت عرش الملوك!

***

(9)

في قصر «المبارك» كاد كل شيء يفقد بريقه، فالوجوه المجتمعة غائمة، وقد أحضر «المُعْتَمِد» الأكابر، وقريء الكتاب الذي قدم به «البار»، فبكى الشيخ القاضي «أبو عبد الله بن عبد البر» وقال:

- قد أبصرنا ببصائرنا أن مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة العين قوة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التلاف تحت ذل الخلاف، وما بقي إلا الرجوع إلى الله والجهاد!

وأما «ابن زيدون، وابن لبون» فقالا:

- الرأي مهادنته ومسالمته.

---

(1) القائد «شجاع بن عبد الله» مولى «المستعين أحمد بن المؤتَمَن بن هود» الذي ورث حكم «سرقسطة» بعد موت أبيه.

وقف «المُعْتَمِد» ونظر إليهم بقلب جسور:

- على أي شيء نهادن، يطالبنا بتسليم حصون الجبال، وليبقى السهل للمسلمين، والله إن تسليم روحي لأهون عندي!

ثم أخذ يكتب جواب «الفونسُ» بخطه من نظمه ونثره:

الــذُّلُّ تَأْبَــاهُ الْكِــرَامُ وَدِينُنَــا ... لَكَ مَــا نَدِيــنُ بِهِ مِــنَ الْبَأْسَــاءِ

سُمْنَاكَ سِــلْمًا مَا أَرَدْتَ وَبَعْدَ ذَا ... نَغْــزُوكَ فِي الإِصْبَاحِ وَالإِمْسَــاءِ

اللــهُ أَعْلَى مِــنْ صَلِيبِكَ فَــادَّرِعْ ... لِكَتِيبَــةٍ خَطَبَتْــكَ فِــي الْهَيْجَاءِ

سَوْدَاءَ غَابَتْ شَمْسُهَا فِي غَيْمِهَا ... فَجَرَتْ مَدَامِعُهَا بِفَيْضِ دِمَاءِ

مَــا بَيْنَنَــا إِلاَّ النِّــزَالُ وَفِتْنَــةٌ ... قَدَحَتْ زِنَادَ الصَّبْرِ فِي الْغَمَّاءِ

وبعد ذلك:

«من «المنصور بفضل الله المُعْتَمِد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبي عمر وابن عبَّاد»، إلىٰ الطاغية الباغية «أذفنش» الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإن أول ما يبدأ من دعواه أنه ذو الملتين، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، ومجبى المملكة، لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم، وإنما كانت سنة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل من النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك في كؤوس دعة، قلت في أثنائها ليس، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك! وإنا لنعجب من استعجالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، وتعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم تلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار، وينعاهم المنام في القفار، يريدون رحى النُّون بحركاتِ العزائم، ويشفون من خيط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلادًا رتبه الاتفاق، وشفارًا حدادًا شحذها الإصفاق، وقد

يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها.

ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين، يد صاعدة أو وقفة متساعدة؟ إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذي جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر، لا يقاتلونكم جميعًا، إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة، ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا؛ وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا، توبيخك وتقريعك، بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في مسيرنا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه».

بادر «الفونسُ» تنفيذًا لوعيده، فحشد جيشًا ضخمًا من «الجلالقة، والقشتاليين، والبشكنس» وتقاطرت الجيوش القشتالية لأول مرة منذ الفتح الإسلامي، عبر نهر «التاجة»، إلىٰ أراضي الأندلس، فعاثت سريا «الفونسُ» في أحواز «باجة، ولبلة» ثم عاث في أراضي «شذونة» وهو يحرق القرى، وينتسف الزروع، ويسبي كل من وقع في يده من المسلمين، وانحدر جنوبًا، وهو يخرب كل ما يقع في طريقه، حتى وصل إلىٰ مدينة «طريف» على مضيق جبل طارق فوقف على شاطئ «الزقاق» والموج يضرب قوائم فرسه قائلًا:

- هذا آخر بلاد المسلمين قد وطئته!

ثم بدأ يعد العدة للإغارة على مدينة «إشبيلية» نفسها، فجهز جيشين من رجاله وسار على رأس ثالث ليحاصر «المُعْتَمِد» في عقر داره!

***

و«المُعْتَمِد» طيلة هذه العاصفة الهوجاء يلتزم الدفاع، واستنهض رجاله وقد جدَّ في حشدهم، وتقوية جيشه، وإصلاح حصونه، واتخاذ كل ما يستطاع من الأهبة الدفاعية، وعرف أخيرًا أن ما فعله تجاه «طُلَيْطِلَة» كان فعلًا قبيحًا، وأن ما جرأ «الفونسُ» عليه إلا لخنوعه له، فلو أنه بادر إليه وهو يحاصرها، ما تقدم إليه ولا حاصره ولكن لم ينفع الندم يوما!

بعث «الفونسُ» إليه رسالة أخرى:

- إن لم تفتح أبواب «إشبيلية» فسأستأصل خضراءكم!

ومرت أيام الصيف على «الفونسُ» وبينما هو في خيمته مستهينًا بالمُعْتَمِد وساخرًا منه إذ لم يجرؤ على فتح الأبواب أو الخروج منها لقتاله، فأرسل له:

- لقد ألمّ بي ذبابكم بعد أن طال مقامي قبالتكم، واشتد الحر، فهلا أتحفتني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي، وأبعد الذباب عن وجهي؟!

وكان معنى الرسالة واضحًا جدًا، وهو أن أكثر شيء يضايقه في الحصار الذباب، أما المُعْتَمِد، وجيشه، وأمته، وحصونه كلها فهي أهون عنده منه، فأخذ «المُعْتَمِد» الرقعة، وتدفق الدم الحار في وجهه، وكتب بخط يده في ظهرها:

- قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش المرابطية تريح منك لا تروح عليك، إن شاء الله!

فما إن قُرأ لـ«الفونسُ» ذلك الرد القصير، حتى ارتعدت مفاصله، وطرق إطراق مَن لم يخطر له ذلك ببال، وارتجفت شفتاه، وهو يعطي الإشارة لجنوده بالانسحاب الفوري من أسوار «إشبيلية»، والعودة السريعة إلى حصون قشتالة!

***

(10)

في «بَطَلْيُوس» ابتاع «زياد» لنفسه دارًا نزل فيها بجوار مسجدها الجامع، وسرعان ما اشتهر بين أهلها بالتقوى والشهامة فقد كانت سمته تغلب عليه، وتعايشت «حفصة» مع «ليلىٰ» التي لم تدعها بمفردها، بل اهتمت بها، فأنستها جزءًا كبيرًا من فقدها، ولكن «بَطَلْيُوس» لم تنس «زياد» «طُلَيْطِلَة» وذكرياته فيها، فاعتُصر ألمًا، وكان يخرج إلىٰ نهر «التاجة» بين الفينة والأخرى يقعد على ضفته، ويتذكر خالي أيامه، ومرتِ الأيام وكعادة الأندلسيين يستطيعون بناء أنفسهم من جديد، ويضعون بصمتهم في كل مكان يرتحلون إليه، فأعاد تجارته في «بَطَلْيُوس» وابتاع لنفسه دكانًا ووضع بعض الأقمشة فيه..

وفي يوم بعد عودته إلى الدار، وبينما هو في غرفته الهادئة المضيئة بقنديل معلق، وقد أخذت شعلته تتراقص على النسمات التي تهب من النافذة المغلقة إلا نصفها، شارد يُفكر فيما مضى من عمره، وما ضاع من حياته إذ أقبلت عليه «ليلىٰ» وكانت في الشهور الأخيرة من حملها واقتربت قائلة:

- زارتنا اليوم زوجة القاضي، وأرادت أن تخطب «حفصة» لابنها.

- ماذا تقولين؟ أزوج حفصة! وهل بلغت سن الزواج؟

قالها، وكأنه ما يزال يراها في عينه صبية صغيرة، ضحكت «ليلىٰ» بخفة أنسته أحزانه وهي تردد بصوتها الدافيء:

- بل كثُر خطابها، وذاك لجمالها، وحسن خلقها، وشرف نسبهم بك يا سيد زياد.

تطلع إليها «زياد» وهو ينظر داخل عينيها التي كانت رغم كل ما جرى حولهما ما زالت ممتلئة بالحياة، فتبسم:

- زواج «حفصة» من شاب نبيل، سيجعلني أشعر أنني أديت الأمانة في حقها.

نهضت «ليلىٰ» ثم تناولت مشطًا، وبدأت تسرح شعرها الداكن الذي ما إن ترك رابطته حتى توجها جمالًا، فتابعها زياد بعينه وسرح مرة أخرى، ثم قال بنبرة ساخرة:

- أعلمتِ بما يستعد له المُعْتَمِد؟ الآن يدافع عن «إشبيلية»! لقد صدق فيه قوله ﷺ (إذا ترك قوم الجهاد، سلط الله عليهم ذلًا لا ينزعه، حتى يرجعوا إلى دينهم) وقد كان حريًا به أن يدافع عن «طُلَيْطِلَة» بوابة الأندلس الأولى! ولكنه رضي بالقعود، أفتراه رجع بعدما فرط وضيع؟ لا والله، إنه يدافع عن عرشه لا عن بلاد المسلمين، ولو أن أذفُنش قصد «بَطَلْيُوس أو سرقسطة» ما حرك ساكنًا!

احتجت ليلىٰ بلطف:

- أراك تقسو في حكمك على الرجل، لمَ لا تقل إن لطمة حليفه أعادته إلى الوعي؟

هزَّ زياد رأسه نافيًا:

- ما قسوت عليه، ولكنها الحقيقة الدامغة التي لا مفر منها، بل حتى صديقه «ابن عمَّار» لم يقتله لشيء إلا عندما تجاوز في هجائه، وقد غفر له كل زلاته فهذا رجل يثور لنفسه وعرشه فقط، أما ما عدا ذلك فلا شيء.

- مرحى مرحى وهل يعنى ذلك أنك لن تنخرط في الجيش المدافع عن «إشبيلية»؟

- لا أعلم يا ليلىٰ، ولكن ربما لو كنت تحت لواء «ابن الأفطس» سأفعل أو تحت راية الصحراويين لا راية «ابن عبَّاد» بعد الذي فعل.

***

(11)
قُرْطَبَة

أدرك «المُعْتَمِد» أخيرًا فداحة الأخطاء التي تردى فيها بمصانعة «الفونسُ» ومحالفته واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف، ولاحت له طوالع المصير المروع الذي سوف ينحدر إليه، إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة، وفكر عندئذ ولأول مرة، أن يستجيب لدعوة الباجي وأن يذيب الخلافات بينه وبين ملوك الطوائف، فقد أيقن، كما أيقنوا، أن ملك قشتالة يعتزم العمل على إبادتهم جميعًا، وأنهم بقواتهم ومواردهم المحدودة، وصفوفهم الممزقة، لن يستطيعوا له دفعًا في هذه الآونة العصيبة، لهذا قرر أن ينفذ فكرة الاستنصار بـ«يوسف بن تاشفين». فناقش الأمر مع ولي عهده ابنه «الرشيد»:

- هذا اللّعين أذفُنش إن نزل علينا كما نزل على «طُلَيْطِلَة» ما يرفع عنّا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك «العدوة» نستدعيه للجوار، ليدفع عنا هذا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا وقد أبغضنا الخاصة والعامة.

- يا أبتِ، أتُدخل على أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدّد شملنا؟

نظر إليه نظرة صارمة، وبكل حزم:

- أي بني، والله لا يُسمَع عني أبدًا أني أعدتُّ الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى، فتقوم عليَّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري.
- المُلك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمدٍ واحد.
- تالله إني لأوثر رعي الجمال لسلطان مُرَاكُش على أن أغدو تابعًا لملك النصارى وأن أؤدي له الجزية، إنَّ رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير! ثم إني من أمري على حالين: حال شك، وحال يقين، ولا بُدَّ من إحداهما... لأنني إذا استندت إلى ابن تاشفين، أو إلى أذفنش، فمن الجائز أن يفي لي كل منهما بعهده، ومن الجائز ألا يفي... فهذه حالة شك. ولكني إذا استندت إلى ابن تاشفين، أرضيت الله، وإذا استندت إلى أذفنش، أسخطت الله، فهذه حالة يقين، ولأن يغدر بي ابن تاشفين مع رضا الله، خير من أن يفي لي أذفنش مع سخطه.

ظهر الاقتناع على وجه «الرشيد» وفي غضون أيام قدم «المُعْتَمِد» إلى «قُرْطُبَة» على إثر اجتماع القضاة بها، وأقر ما ارتأته الجماعة، وانضم إليه في ذلك الرأي «المتوكل، وابن بلقين». واتفقوا على إرسال سفارة مشتركة إلىٰ عاهل المرابطين في المغرب، وعبرت سفارة الأندلس البحر.

***

(12)

«ميناء سبتة»

غرة جمادى الأولى 479هـ

وصل إلى شاطئ «سبتة» قاضي قُرْطُبَة أبو بكر عبيد الله بن أدهم، وقاضي بطليوس أبو إسحق بن مقانا، وقاضي غرناطة أبو جعفر القليعي، ووزير المُعْتَمِد ابن زيدون، الذي يحمل رسالته ونصها:

«إلى حضرة الإمام أمير المسلمين، إنا نحن العرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش، أسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، وليس لنا طاقة على نصرة

جاره ولا أخيه، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله ملك المغرب، استنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، والسلام على حضرتكم السامية، ورحمة الله تعالى وبركاته».

أحسن استقبالهم الأمير «يوسف»، واستمع إلىٰ مطالبهم، وقد تواترت عليه يومئذ السفارات من الأندلس باكية ترجوه الغوث والإنجاد، فيستمع إلىٰ قولهم، وإلىٰ ما حل بالجزيرة من هوان وألم وتحويل المساجد إلىٰ كنائس وغدر «الفونس» بعهوده، وهو يتألم لما يحدث من غي وطغيان، فوعدهم خيرًا وأنزلهم بجواره، ثم جمع مجلس شوراه من الفقهاء والأعيان والقادة، فوافقوا جميعهم على تلبية داعي الجهاد، إلا أنَّ واحدًا منهم وهو كاتبه[1] قال:

- إنَّ الأمر لله تعالى ولكم.
- ومع هذا فقل ما عندك؟

نظر حوله وقد خشي أن يظنوه معارضًا لرأيهم المجمع عليه:

- واجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، غير أنَّ لي كلامًا أنهيه إليكم.
- قل ما عندك يا عبد الرحمن.
- أيد الله الأمير تعلمون أن جزيرة الأندلس مقطوعة في البحر، وأن أرضها ضيقة عرجة وعرة البسائط تعترض طرقاتها جبال صعبة المسالك، وإنما يعمر المسلمون منها الثمن، وسبعة أثمان يعمرها النصارى، فهي أشبه بسجن، يندر على الداخلين إليه الخروج منه إلا تحت حكم صاحبها. وهذا الرجل الذي استدعاك ليس بينك وبينه صداقة قديمة، فربما إذا جُزت إليه، وقضي الغرض أمسكك بها، فيقطع عليك طريق العودة بأيسر أمر، فاكتب إليه إنه لا يمكنك الجواز إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء؛ وبذلك تملك موقعًا أمينًا، فتجعل فيها أثقالك وجندك ويكون الأمر حينئذ بيدك متى شئت الصدور عنها صدرت، وتبقى في كلِّ وقت على اتّصال دائم بالمغرب.

---

(1) «عبد الرحمن بن أسباط» وكان أندلسيًّا من أهل «المريّة».

استمع «يوسف» إلىٰ نصحه، وعلم أنه يشك في ملوك الطوائف بعد أن عرف عنهم الغدر وعدم التقيد بالعهود:

- لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، فاكتب إليه بذلك.

فكتب رسالة:

«من أمير المسلمين إلى المُعْتَمِد بن عبَّاد، أدام الله كرامته بتقواه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد، فإنه وصل خطابكم المكرم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء، تكون لنا، لكي يكون إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فأشهد به نفسك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وافق «المُعْتَمِد» على تسليم ثغر «الجزيرة» وأمر حاكمها ولده «يزيد الراضي» بإخلائها؛ لتكون رهن تصرف الأمير «يوسف» الذي نهض كشاب يحرض جنوده على القتال في سبيل الله، ويقول لمن يطلب منه الراحة:

- أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي.

واستنفر سائر قواته، والجيوش تتلاحق في إثره من أنحاء الصحراء، وبلاد «الزاب» بغرض الجهاد، وأقبل من بقي من جنده في مدينة «مُرَاكُش» حتى تكامل العدد، وقد أعدّ أسطولًا يتألف من مئة سفينة، وعددًا من المراكب ليعبر فيها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

(13)

بلغ «الفونسُ» استعدادات «ابن تاشفين» واعتزامه المجاز للأندلس، فأراد أن يجسّ النّبض، فكتب إليه يستحثّه على سرعة القدوم، وأغار على البلاد في تظاهرة عسكرية جرّارة، حتى وصل ساحل البحر عند الجزيرة، وكتب له من هناك بعض غواة أدباء المسلمين كتابًا يغلظ له في القول، ويصف ما معه من القوة والعَدَد والعُدَد وبالغ في ذلك.

«باسمك اَللَّهُمَّ فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعدُ: فإنه لا يخفى على ذي ذهنٍ ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وَأُمَثِّل بالرجال، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحد منكم، فالآن خَفَّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفًا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا، وقد حُكِيَ لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عامًا بعد عام، تُقَدِّم رِجْلًا وَتُؤَخِّر أخرى، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربُّك؟! ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلًا لعلَّةٍ لا يسوغ لك التقحُّم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وتُرسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَثُلَتْ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققتُ إمارة الملَّتَيْنِ والحُكم على البرَّيْنِ، والله تعالى يُوَفِّقُ للسعادة ويُسَهِّل الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلا خيره، إن شاء الله تعالى».

وفي نهار رائق رفرف على شاطئ «الجزيرة الخضراء»، مئة شراع يعبث بها النسيم، وتتخايل فوقها الرايات، وكانت السفن تعج بالمجاهدين من قبائل البربر، وعرب «زناته»، وتزخر بالخيل والجمال، ومعدات القتال: فكان الصهيل فيها يختلط بالهدير، وأصوات المقاتلين تمتزج بصليل السيوف وقعقعة الرماح، والركاب فوقها في حركة دائبة، وضوضاء صاخبة.

وأول ما هبط منها قوة من الفرسان بقيادة «داود بن عائشة» وأبناء الصحراء من البربر يطلون على شاطئ الأندلس في ذهول وإعجاب، وقد طرزت حواشيه الرياض والمروج، وانتثرت فيه الكروم وأشجار التوت والزيتون والتين.

واستقرت القواتِ في الثغر، وفقًا لما تم الاتفاق عليه، ثم أخذتِ الجيوش المرابطية تعبر تباعًا، حتى تم عبورها جميعًا إلىٰ شبه الجزيرة.

وفي يوم الخميس (منتصف ربيع الأول 479هـ / 30يونيه 1086م).

عبر البطل الشيخ في بقية قواته، وما كادتِ السفن العابرة تمخر عباب المضيق عبر بحر «الزقاق»، حتى اضطرب البحر وتعالتِ الأمواج، فنهض الزعيم المرابطي وسط سفينته، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء:

- اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيرة للمسلمين، فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه.

فما كاد يتم كلامه حتى سهل الله المركب، وقرب المطلب، وشاء الله أن تعبر السفن المرابطية، في ريح طيبة، وبحر هادئ، وأن تصل إلىٰ ثغر «الجزيرة» في سلام، وما كاد يطأ بقدميه أرض الأندلس حتى سجد لله شكرًا.

وكان «المُعْتَمِد» موجودًا على الشاطئ ينتظر الأمير الذي ما إن أتم سجوده، حتى تقدم إليه، واحتضنه ورحبَّ به، وقدّم إليه الهدايا والتّحف، وتسلّم الأمير قلعة «الجزيرة الخضراء» باحتفال حضره القضاة، والفرسان، كما تسلّم عدّة قلاع وحصون أخرى، قام بإصلاحها، وأعاد تحصينها، أتمّ تحصين، ونظمها حسب رأيه وخططه الخاصة، ورتب لها حامية مختارة من جنده لتسهر عليها، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات، والذخائر، والمؤن، لكِي تغدو ملاذًا أمنًا، يلتجئ إليه، إذا منيتِ الحملة بالفشل.

***

(14)

على أبواب سرقسطة

جمادى الأولى 479ﻫ/ أواخر يوليه أو أوائل أغسطس 1086م

تحت السماء الزرقاء الصافية إلا من نتف غيوم، وبينما «الفونسُ» مبتهج في قلب خيمته التي بلا جوانب وهو محاصر لسرقسطة، وقد أوشكت أن تفتح أبوابها له، فقد هيأ «السيد القمبيطور» الأجواء من الداخل، وأقنع الكثيرين

بحسن معاملة القشتاليين، وصلته أنباء عبور جيش المرابطين إلى الأندلس، كما أرسل إليه «يوسف»:

- بلغنا يا أذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}. وإني أعرض عليك الإسلام، أو الجزية عن يد وأنت صاغر، أو الحرب، ولا أؤجلك إلا لثلاث.

فاستشاط «الفونسُ» غضبًا وجاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره، وسرت رعشة ذهول في بدنه، وعلت ملامحه السخرية:

- أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني؟ وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل مِلَّته منذ ثمانين سنة! كيف يجرؤ هذا البربري المخبول؟! سأريك يا بن عباد أيامًا بلون الحداد!

وبعث إلى «المُعْتَمِد» يعلن الحرب:

- إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، أمضى إليكم، وألقاكم في بلادكم، رفقًا بكم، وتوفيرًا عليكم.

فأمر «يوسف» وزير «المُعْتَمِد» وكاتبه «أبا بكر بن القصيرة» أن يجيبه، فكتب وأجاد، فلما قرأه عليه، قال:

- هذا كتاب طويل، أحضر كتاب أذفُنش واكتب في ظهره: الذي سيكون ستراه! والسلام على من اتبع هدى، وأردف ببيت:

وَلا رُسُلٌ إلاّ الخَميسُ العَرَمْرَمُ — وَلا كُتْبَ إلاّ المَشرَفيّةُ عِنْدَه[1]

***

(1) بيت «أبي الطيب المتنبي» المشرفية: السيوف. والخميس: الجيش. والعرمرم: الكثير. يقول: إنه لا يرسل إلى مخالفيه رسلًا غير الجيوش. ولا كتب له إلا السيوف: يعني أنه لاقتداره لا يعمد في إخضاعهم إلى الملاينة، ولكن إلى القتال؛ لأنهم أعجز من أن يقاتلوه.

لحظة منتظرة

انتعشت الآمال في نفوس جميع مسلمي الأندلس، وتحرك فيها روح الجهاد، وتهللت الوجوه بعد طول اكتئاب، واصطحب القرويون أطفالهم على طول الطريق لمشاهدة الأمير «يوسف»، إنها لحظة لم يَتَذَوَّقُوهَا منذ سنوات وسنوات، ينهض جيش مسلم موحد، ويستعد لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية، ولا شكَّ أنها لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق، كاشتياقها إلى الشهادة، لحظات كلها خشوع لله فقد نصروه في أنفسهم، وتابوا إليه من كل الأهواء والبدع مستشعرين قول ربهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وتوافد المتطوّعة إلى الأمير «يوسف» من كلّ مكان، وجاءته الوفود مرحّبة، فتحرّك بالجيش الإسلامي من «الجزيرة الخضراء» باتّجاه الشّمال الشّرقي إلىٰ «إشبيلية»، ولما وصلها نزل بظاهرها، ولم يشأ أن يدخلها.

ولما رأى «المُعْتَمِد» رقة حاله وجيشه المرابطي، أراد أن يريهم ما هو فيه من رغد العيش، فأهدى إليه، الكثير من الحرير وفاخر الثياب، ولكنه أبى ذلك، واستخف بما يقدمه له، حتى إنه رفض مأدبة طعام كبيرة، وأصر على أكل الشعير واللبن فقط كما اعتاد على ذلك، وقال:

- إنّما جئت ناويًا جهاد العدو، فحيثما كان العدوّ توجّهت، هلّم إلىٰ ما جئنا له.

وأقام بظاهر «إشبيلية» ثمانية أيام، نظم فيها أموره، وصالح «المُعْتَمِد» على كثير من خصومه، وتمّ التخلّص من كلّ ما لا حاجة إليه في ساحة المعركة، وتمّت دراسة الجوّ، والأوضاع والنفوس، وتمّ التئام جيوش المسلمين وأمراء الأندلس التي قرّرت أن تشارك في المعركة المنتَظَرة، وقد تذكروا أيام النّصر التي سمعوا عنها الكثير، فشاركوا بقواتهم، وأعدّوا ما يمكن للبذل والتّضحية. ولم يبقَ منهم إلا من بادر أو أعان أو خرج، أو أخرج.

المُعْتَمِد بقواته، وبعض قوات بعثها «ابن صمادح» صاحب «المريّة» الذي اعتذر عن عدم استطاعته الشّخوص بنفسه بسبب العدوّ الملاصق له بحصن «لييط»، واعتذر بكبر السن مع الضعف، وساهم «عبد الله بن بلقين» وأخوه

«تميم» صاحب «مالقة» بقواتهم، وكان «المُتَوكِّل» أشدّهم حماسًا، قد أعمل جهده، ووطَّن على الموت نفسه، وكان «زياد» ممن تطوعوا فما استطاع أن يتأخر عن داعي الجهاد، فانضم إلىٰ الحشود المقاتلة تحت راية «المُتَوكِّل» وهو يستشعر الفخر والاعتزاز، وتحدث إلىٰ الورهاء:

- أخيرًا يا ورهاء! تخرجين للغزو لا للدفاع، تخرجين للحرب في الميادين المفتوحة لا خلف الأسوار.

وكان «يوسف» خلال هذه الأيام صائم النّهار، وقائم اللّيل، في تهجّد، وتلاوة لآيات كتاب الله الكريم، وقد أكثر من الصّدقات، وأعمال البر، فتملّك نفوس أهل الأندلس، وكسب قلوب جنده بالنّصفة، وإيثار الحقّ، وإنشاء العدل.

***

(15)

أجفل «الفونسُ» بعد رؤية كتابه الذي رُدَّ، وارتاع له وعلم أنه بُلي برجل له دهاء وحزم يفعل ولا يقول! فترك الحصار على عجل، وتنفس صاحب «سرقسطة» الصعداء، وكسر «الفونسُ» حاجز العداواتِ السياسية بينه وبين الممالك المسيحية المجاورة، فبعث إلىٰ ابن عمه «سانشو بن راميرو» ملك أرَغون يستدعيه لإنجاده، وكان يومئذ قائم بحصار «طرطوشة»، وكاتب أمير «برشلونة» الذي كان يتأهب لغزو «بَلَنْسِيَة» فانضم إليه بقواته، واستنفر الصغير والكبير ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، فحشد كل ما استطاع من قوات «جليقية، وأشتوريش، وبسكونية (نبرة)»، واستدعى «البار» بقواته من «بَلَنْسِيَة».

وبعث كذلك إلىٰ أمراء ما وراء جبال «البرنيه»، فتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبي «فرنسا، وإيطاليا» فأصبح جيشه كبيرًا متفوِّقًا في العُدَة والعَدَد والإمكانيات.

فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يحصى عدده؛ وفي حصن قلعة «الحزام» بطُلَيْطِلَة عقد اجتماع لأهل وده ووزرائه، فقال «البار» الذي حمل على عاتقه حشد الجيوش والمؤن:

- لم يتبق سوى تحديد مكان المعركة، هل سنزحف إليهم أم ننتظر قدومهم؟

رفع «الفونسُ» عنقه، وقال بنبرة توحي بالثقة:

- إني رأيت إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي، ناجزوني بين جُدرها، وربما كانت الدائرة عليَّ، فيكتسحون البلاد، ويحصدون من فيها في غداةٍ؛ لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت عليَّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبةٍ أخرى، فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسرى! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم، وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون منهم في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها!

- ونعم الرأي يا سيدي.

- هل أتى رد من روي؟

- لا يا سيدي، فقد أرسل أنه لن ينضم إلينا ولكنه يصلي من أجلنا.

ثم برز «الفونسُ» من فوق أسوار القلعة ينظر إلى المختار من أنجاد فرسانه على باب الحصن، وفي الربض المقابل بقية جموعه، فرأى جيوشه تسد الأفق، فبلغ به الزّهو مبلغًا، والتفت إلى«البار»:

- بهؤلاء أقاتل الجنّ والإنس، وملائكة السماء! بل بهذا الجيش ألقى إله محمد (ﷺ).

***

أضاء القمر عباءة الليل السوداء، وبعد يوم صاخب لجأ «الفونسُ» إلى مخدعه، وكانت عيناه مشبعتين بالخمول، فألقى به النوم سريعًا، لكن بعد فترة وجيزة من نومه، ارتجف قليلًا، ثم انفتحت نصف عينيه، ومع ذلك، لم يرفع رأسه ولم يغير حركته، ولكن قلبه يضطرم خوفًا، وفي نفسه يشعر أنه ضائع، وفي أذنه ضجيج كاد أن يصمه، فقد رأى في منامه: أنه يركب فيلًا، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتًا مرعبًا كلما قرعه.

ظلَّ فزعًا مذعورًا، ولما أصبح بعث إلى «برنار» وأحبار اليهود، وذكر الرؤيا لهم ثم تابع:

- ما هالني ولا أفزعني إلا أن الفيل ليس في بلادنا، ولا هو بقربها، ولا عايناه قبل، فمن أين لنا به؟ ثم إن الطبل ما هو من شكلنا، ولا من زينا فمن أين لنا به؟ فانظروا في تأويل هذه الرؤيا وفسروها لي... فقد أفزعني ما عاينت منها.

تشاور «برنار» والقساوسة لحظات، ثم تحدث وعلى وجهه ابتسامة سرور:

- رأيت خيرًا أيها الملك، تدل رؤياك على أنك تهزم جميع المسلمين، وتغنم أموالهم، وتسبي محلاتهم، وتأخذ بلادهم، وترجع إلى وطنك عزيزًا مظفرًا، وأما الفيل الذي تركبه فهذا هو الملك القادم صاحب البر الكبير المشترط لقاءك، تركبه برغم أنفه، وتذلله، فمثل لك بالفيل لعظمه، ولكون الفيل من الصحراء وهذا من الصحراء.

نظر إليه «الفونسُ» بشيء من الاشمئزاز وهو أدرى الناس بخبث سجيته:

- نفسي تحدثني وهي صادقة أنكم في تفسيركم على باطل وما تعرفون شيئًا!

ثم رد رأسه إلى الوراء، ومسح جبهته مضطربًا، وسأل جماعة اليهود ممن حضر مجلسه من بقايا المستعربين:

- أتعلمون هنا أحدًا من علماء المسلمين؟

- نعم، هنا رجل من فضلاء المسلمين وعلمائهم ويعرف بالشيخ «المغامي» يقرئ في مسجده كثيرًا من فقهاء المسلمين.

- انطلقوا إليه وآتوني به.

***

(16)
الزَّلَّاقة

بعد شهر

أقبل الأمير «يوسف» من ظاهر «إشبيلية» يُحيط به جنده الملثمين، وقد نظمَّ الجيش فجعل القواتِ الأندلسية في المقدمة بقيادة «المُعْتَمِد» لمعرفتها التّامّة بأرض الأندلس، في حين جعل الجيوش المرابطيّة في المؤخرة، ثمّ أمر بالتّحرّك إلىٰ «بَطَلْيُوس»، وجعل «المُعْتَمِد» ابنه «عبد الله» على مقدمته، وهو يتفاءل لنفسه وينشد:

لا بُـدَّ مِـن فـرَجٍ قَـريبْ	يأتيـك بالعجـب العَجيـبْ
غـزوٌ عَـلَيـكَ مُـبـارَكٌ	فـي طَيِّـهِ الفَتـحُ القَريـبْ
لِلَّهِ سَـيـفُـك إِنَّهُ	سُخـطٌ عَلـى ديـنِ الصَليـبْ
لا بُـدَّ مِـن يَـومٍ يَكـونُ	لَـهُ أَخٌ يَـومَ القَـليبْ

فتلقّاهم «المُتَوكِّل» بما يجب من الضّيافات والأقوات، وبذل المجهود، فأقام الجيش هناك ثلاثة أيام للراحة في «طرطوشة» بالقرب من «بَطَلْيُوس».

وسار «الفونسُ» بجيشه اللّجب مزهوًّا بتفوّقه في العَدَد والعُدَة، وجاء يجر الشوك والشجر وذلك ليتهيبوا قدومه، واتّخذ شكل الحروب الصّليبيّة، فرفع القسّيسون والرّهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم أمام القواتِ، وباركهم البابا وحثّهم، ووجّههم، وتبايع رهبانهم على الموت.

ما إن علم «يوسف» بتقدّم الجيوش الصّليبية، حتى أمر الجيش الإسلامي بالتّحرّك، إلىٰ مكان مناسب، اختاره مع القادة ليكون موقع المعركة الفاصلة، وهكذا حال الأبطال دائما يختارون مواقع القتال بأنفسهم ويفرضونه على العدو بإرادتهم، وكان هذا المكان موضعًا سهليًّا[1] وفيه وضع «يوسف»

---

(1) من عمل «بطليوس» وأحوازها على مسافة 12 كم شمالها الشرقي، في العدوة الشمالية «للوادي اليانع» وبينه وبين نهر «تاجة» تتخلله الأحراش، ويقع على حدود البرتغال، ويسميه المسلمون «الزّلاقة»، ويسميه الأوروبيون (ساكر الياس).

ترتيبًا جديدًا للجيش الإسلامي استعدادًا للمعركة الفاصلة، فجعل الفرسان المرابطون وعددهم عشرة آلاف في طَليعة الجيش، بقيادة «أبي سليمان داود بن عائشة» أشهر قادته الكبار، وذلك ليتلقّوا الصدمة الصليبية الأولى.

وجعل قواتِ الأندلس تليهم، وكانت تؤلف وحدها جيشًا خاصًّا، منفصلًا عن جيوش المرابطين، يقودها «المُعْتَمِد» في قلب المقدّمة، و«المُتَوكّل» في الميمنة، وأهل مشرق الأندلس في الميسرة، وباقي الأندلسيين في السّاقة.

وتولى «يوسف» قيادة الجيش الاحتياطي المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من «لمتونه، وصنهاجة» وغيرهما من قبائل البربر. وجعلهم في المؤخرة، وعلى مسافة كبيرة من جيش الأندلس، وراء أكمة ليوهم العدو أنّ الجيش الذي يواجهه هو الأوّل والثّاني فقط. وككمائن لتفاجئ العدو بعد اصطدامه بالجيشين، وأيضًا لمنع الأندلسيين من اَلتَّرَاجُع أو الفرار، وضرب معسكره وراء ربوته العالية منفصلًا عن مكان القواتِ الأندلسيّة.

وهكذا اختار الموقع، ووضع خططه على أساس ذلك، ونظمّ الاتّصالاتِ السّريعة بينه كقائد أعلى للجيش، وقواد الجيشين بحيث تأتي الأخبار سريعة.

ثم أمر «المُعْتَمِد» التّقدّم إلىٰ سفح الجبل أمام «الفونسُ» بحيث يتراءون، فلما اطلع المُعْتَمِد على جيشه، هاله من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة:

- ما كنت أظن أن هذا الخنزير -لعنه الله- يبلغ هذا الحد!

وظن «الفونسُ» أنّ عساكر المسلمين ليس إلا الذي يراه، فنجحت خطة الأمير الأوّليّة.

وقام «الفونسُ» بترتيب جيشه، فقسمه إلىٰ قسمين: الأوّل بقيادة الكونت «غرسية» والكونت «رودريك» وخُصّص لمهاجمة «المُعْتَمِد بن عبَّاد».

والثاني: جناحا الفونسُ بقيادة «سانشو بن راميرو» والكونت «ريموند»، وقاد «الفونسُ» القلب.

وهكذا كانت احتياطات وخطط الفونسُ لا تقلّ في أهمّيتها عن خطط الأمير «يوسف»، وانتظم الجيشان الخصيمان وتصافّا كل منهما تجاه الآخر لا

يفصلهما إلا فرع صغير من نهر «الوادي اليانع» ولبثا مدى أيام ثلاثة، والرسل تتجاوب بينهما.

واختلفتِ الرّسل بين الفريقين في تحديد يوم القتال، ووعظ الأمير «يوسف، والمُعْتَمِد» أصحابهما، وقام الفقهاء والعبّاد يعظون الناس، ويحضّونهم على الصّبر، ويحذّرونهم الفرار، وأمر «يوسف» بقراءة سورة الأنفال، وأمر الخطباء بتحفيز الناس على الجهاد.

***

كان «زياد» وأمثاله من المتطوعة ومعهم الفقهاء قوة لا يستهان بها، وكانوا أداة تحفيز كبيرة، فقام في الناس يرغبهم في الشهادة، وذكرهم بأيام الله «اليرموك، القادسية، نهاوند، شذونة» وغيرها من المعارك الفارقة في التاريخ الإسلامي وكان مما قاله ناصحًا:

- الحازم يحذر عدوه على كل حال، المواثبة إن قرب والغارة إن بعد، والكمين إن انكشف والاستطراد إذا ولى. من استضعف عدوه اغتر، ومن اغتر بقوته فقد وهن، ومن وهن ظفر به عدوه. أشعروا قلوبكم في الحرب الجراءة فإنها سبب الظفر، واذكروا الظغائن فإنها تبعث على الإقدام، والتزموا الطاعة فإنها حصن المحارب. وإذا وقع اللقاء برز القضاء، وإذا لقي السيف السيف ذهب الخيار. الصبر سبب النصر. إن الظفر مع الصبر، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تغلوا عند الغنائم، نزهوا الجهاد عن غرض الدنيا!

ما إن أنهى «زياد» خطبته حتى هرول صوب رجل كهل كان يقف في آخر الصفوف وهو لا يكد يصدق نفسه، ثم عانقه بشدة، وخرَّ على يده يقبلها، ويبللها بدموعه، وهو يتحسس موطن جرحه، ويقول:

- أبي! كيف... كُنت أظنك قد...

قاطعه جعفر باسمًا:

- قد متُّ.

تقافرت دموع فرحة من عين زياد، وأخذته رجفة الشوق:

- ولكن كيف ذلك؟

- تلك قصة طويلة يا ولدي.

- أريد أن أعرف كيف لي أن أتركك و...

رفع «جعفر» يده مقاطعًا، فصمت، ثم جذبه من يده وتحرك الاثنان حتى ابتعدا عن باقي الجيش وزياد متطلع إلى وجهه يريد أن يعرف الذي كان، نظر «جعفر» في الفضاء الممتد حوله ثم قال:

- بعد أن حدث الذي حدث وظن الجميع بي الموت، حملني بعض من جيراننا؛ ليقوموا بتغسيلي وتكفيني، فلما وضعوا الماء البارد على جسدي، انتفضتُ، فعلموا أن بي قلبًا ينبض، فاهتموا بي، واستدعوا لي طبيبًا داواني، وقام على تطبيبي، حتى شفي جُرحي، وما استفقت حتى أخبروني بما كان، وبخروجك من طُلَيْطِلَة، ووصيتك لهم بالقيام على مراسم دفني، وهم يحاولون التخفيف عني، ثم سألتُ كثيرًا عنك وعن أختك؛ علني أهتدي إليكم، ولكن لم يكن أحد يعلم وجهتك، فلما انقطع أملي تركت منزل الجيران؛ لأجلس عند قبر «فاطمة» تؤنسني، وبينما أنا هناك إذ جائني الخبر أن اللعين أذفُنش يتأهب للخروج من «طُلَيْطِلَة» لينازل وجيشه جيش الصحراويين، فإذا بي قد تبدل حالي، وتغير يأسي وسرت في جسدي روح العزيمة، فودعت «فاطمة» وأنا أقول لها:

- حق على كل من عاش على تلك الأرض أن يدافع عنها! وإني لأرجو الله أن أنال الشهادة اليوم يا بني، فاحمل معي عليهم لا يؤتى المسلمون من قبلنا.

- وإني والله أتوق إلىٰ قتال هؤلاء، وأرجو من الله ما ترجو يا أبت، فإما نصر يعيد للإسلام السيادة في الجزيرة، وإما شهادة ألقى بها وجه الله مقبلًا غير مدبر!

ابتسم «جعفر» وقد توقد وجهه بشرًا، ولمعت عيناه سرورًا:

- إنَّا منصورن بإذن الله يا بني، ومعي لك بشرى بذلك!

أخذه «زياد» وسار به إلى داخل خيمته، وما إن تربعا على الأرض حتى قال جعفر:

- بعد أن ودعت قبر فاطمة، توجهت إلى «مسجد الدباغين» وقد نجا من أيدي النصارى، واعتكفت فيه مع الإمام «المغامي» أستنصحه وأودعه قبل أن أخرج من طُلَيْطِلَة وبينما أجلس معه إذ دخل علينا يهودي يسأل عنه، فلما جالسنا، قال:

- رأيت رؤيا أريد تفسيرها...

ثمَّ همس للشيخ قرب أذنه، وما إن انتهى، حتى قال المغامي:

- كذبت أيها اليهودي! ما هذه الرؤيا لك، ولا بُدَّ أن تخبرني عن صاحبها، وإلا لم أعبرها لك.

- اكتم ذلك... هو الأذفُنش.

- قد علمت أنها رؤياه، ولا ينبغي أن تكون لغيره.

- إذن تدبرها في نفسك، حتى تلقي إلينا نص تفسيرها له.

- الأمر فيها قريب؛ اعلمه أنه سيهزمه المسلمون هزيمة قبيحة يخرج منها مفلولًا في نفر يسير من أصحابه، والدليل على ذلك من كتاب الله العزيز في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (عنى بها الباري عزَّ وجلَّ «إبرهة الحبشي» وأمَّا الطبل الذي كان يضربه فمن قوله تعالى) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ* فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

بُهت اليهودي ولم يدر كيف سيخبره بذلك؟ فقال بعد حيرة:

- لتأت معي، وتخبره بتأويلك.

- والله، لا آتي كافرًا أبدًا!

- اتق الله على نفسك من سطوته.

- إنَّ الله وليي وحافظي، والخير والشر بيده.

ولما رجع اليهودي إلى الفونسُ، وأعلمه بنص ما عبر له، قطَّب وجهه، وصاح:

- ودين المسيح لأن كذب، لأمثلن به!

بلغ الخبر إلى المغامي، فقال محتسبًا:

- والله ما يقدر عليَّ ذرة إلا بإذن الله وقضائه، وأنا واثق بالله ربي، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

استبشر «زياد» وهاجت عاصفة شجونه، وهو يتذكر «طُلَيْطِلَة» التي لم تغب عن قلبه لحظة:

- أخبرني يا أبا حفصة كيف «طُلَيْطِلَة» وأحوالها؟

- رحل من أهلها الكثير، فلم يبق إلا أصحاب الحرف، وكتبوا على البيوت والمساجد ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حتى المعاهدون لم يجدوا فيها متنفسًا، وقد اضطهدوا في شرائعهم.

نهضا وسارا معًا بعض الوقت في المعسكر، فرأيا «المُعْتَمِد» يذكي عيونه في محلاتِ المرابطين؛ خوفًا عليهم من مكائد «الفونسُ» وكان قد خبره، وهم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولّى ذلك بنفسه فقال «جعفر»:

- إنّ الرّجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلّة لقضاء أمر أو حاجة، إلا ويجد ابن عبَّاد بنفسه مطيفًا بالمحلّة.

هزّ زياد رأسه وغمر وجهه الأسى:

- لقد أضاع ابن عبَّاد على نفسه شرف إنجاد طُلَيْطِلَة، ولو أنه فعل مع طُلَيْطِلَة ما يفعله اليوم لما سقطت منا!

وبينما هما كذلك إذ جاءتِ الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم **الأربعاء 10رجب 479هـ**

فنظر «جعفر» بعينيه صوب الجبال المحيطة من الأفق البعيد:

- قريبًا يا «فاطمة» سيكون اللقاء، وإني لأشم رائحة الجنة هنا في هذا المكان!

***

(17)

عاد «الفونسُ» إلىٰ أعمال الخديعة، وعاد النّاس إلىٰ محلاتهم وباتوا ليلتهم، وكانت هذه مناورة من «الفونسُ» لمعرفة الجيش الإسلامي.

يوم الخميس 11 رجب479هـ

اندسّ «زياد» بين جيوش النصارى متنكرًا؛ ليتعرّف على مخطّطاتِهم، ونجح في الاقتراب من خيمة «الفونسُ»، واسترق السمع وكان يقول:

- «ابن عبَّاد» مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ، وذوي بصائر في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنّما قادهم «ابن عبَّاد» فاقصدوه، واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم غيره... اكتبوا إليه أن الجمعة لكم، والسبت لليهود، وهم وزراؤنا، وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان ما نريده من الزحف.

أدرك «زياد» أنه يحدد أن تكون المعركة يوم الاثنين وينوي بذلك الغدر بالمسلمين ومباغتتهم، لم يفوت «زياد» الفرصة، وأراد العودة لتحذير الأمير «يوسف»، وبينما هو خارج من معسكرهم الذي بدأ يستعد للهجوم، إذ لمح «توماس» يسير مختالًا مع الجنود، ففار الدم في عروقه، وأراد أن ينقض عليه، ولكنه آثر الذهاب كي لا يُكشف أمره، وبالفعل نجح في إيصال ما سمع إلىٰ المعتمد الذي استحثّ بدوره «يوسف» لنصرته، وبات المسلمون ليلتهم على أهبة احتراس، وبقوا شاكي السلاح بجميع محلاتهم، خائفين من كيد العدو.

***

البشرى

انتثرت النجوم اللامعة في فضاء السماء الشاسعة، وبعد مضيّ جزء من اللّيل انتبه الفقيه «أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي» وكان في محلّة «المُعْتَمِد» فرحًا مسرورًا يقول:

- رأيت النبي ﷺ يبشّرني بالفتح والشّهادة في صبيحة غد! يقول «يَا ابْنَ رُمَيْلَةَ، إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلاقِينَا».

وتأهب ودعا، ودهن رأسه، وتطيب، وانتهى ذلك إلىٰ «المُعْتَمِد»، فبعث إلىٰ «يوسف» فخبَّره تحقيقًا لما توقّعا من غدر «الفونسُ». وشاع ذلك في عسكر المسلمين كلّه، فشعَّ في قلوبهم الأمل الكبير بالنّصر، وأعطتهم البشرى معنويات عالية، وتأكّدوا أن المعركة ستكون يوم الجمعة، فاستعدّوا لذلك، فكانت تعبئة نفسية جيّدة.

وصحّ ما توقعوه ففي السحر من يوم الجمعة 12رجب479هـ/23 أكتوبر 1086م

ارتقى «الفونسُ» في ربوة مع جماعة من زعماء قومه ليبصروا أعداد جيوشه، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولمعان دروعهم، وقال لأحد قواده وهو ابن عمه «غرسية»:

- هذا اليوم لنا فيه الغلبة على المحمديين!

«غرسية» مستدركًا:

- إن كان سبق لك بذلك القضاء.

تشبع «الفونسُ» بالغرور، ومازج حركاته بخيلاء:

- أنا الغالب... سبق، أو لم يسبق.

تقزز «غرسية» من كبره الطافح، ولوى عنان فرسه:

- إني لا أحضر معك هذا اللقاء.

واعتزل «غرسية» بناسه، وكانوا نحو ألف فارس، وتقدم «الفونسُ» بجيشه قاصدًا محلة المسلمين، وغشيهم بخيله كالسيل، رآهم «زياد» فأقبل مع الطلائع ينادي ويقول:

- يا معشر المسلمين، إن النصارى في أذيالنا والناس على طمأنينة!

فلما أعلم «المُعْتَمِد» بقدوم الطاغية عليه، بادر الركوب، وزحف النصارى، وابتدأ القتال، واشتبك الجيشان في معركة عامة، فهجمت مقدمة «قشتالة، وأرَغون» التي يقودها «البار»، على مقدمة الأندلسيين التي يقودها «المُعْتَمِد» وكان هجومًا عنيفًا ردها عن مواقعها، واختل نظامها، وعمتهم كقطع الليل،

وظنوا أنها لا تدفع، واستمرت الهزيمة على رؤساء الأندلس، فارتد معظمهم نحو «بَطَلْيُوس».

ولم يثبت منهم غير «المُعْتَمِد» وفرسان «إشبيلية» فقاتلوا النصارى بشدة، وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام، فبذل جهدًا مشكورًا، وأثبت كفاءة عالية، وأثخن أميرهم الباسل جراحًا، وتفرق معظمهم من حوله، وكثر القتل في جنده، وكادت تدور عليهم الدائرة، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد، واستبسل القوم في القتال وهم واثقين في نصر الله.

وفي الوقت نفسه كان «الفونسُ» قد هاجم مقدمة المرابطين، التي يقودها «داود بن عائشة» وردها أَيْضًا عن مواقعها، وقد ظن أنها كل الجيش، فاستهان بالصحراويين كثيرًا بعد أن شتت شمل جيش «داود» وسخر منهم كثيرًا، وظن أنه انتصر وأن الأندلس قد آن قطافها.

ومن ثم عاد إلىٰ ساحة القتال ليجهز على جيش «المُعْتَمِد» وينهي الأمر، وصبر «المُعْتَمِد» فعندما اشتدت صدمة النّصارى، وانكشف بعض أصحابه، وفيهم ابنه «عبد الله» ضُرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلىٰ صدغه، وجُرحت يُمنى يديه، وطُعنَ في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قُدّم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يمينًا وشمالًا، وتذكّر في تلك الحالة ابنًا له صغيرًا كان مُغرمًا به تركه في «إشبيلية» عليلًا، وكنيته «أبو هاشم» فقال:

أَبـا هاشِـمٍ هَضَّمتَني الشِـفارُ   فَلِلَّـهِ صَبـري لِـذاكَ الأوارْ
ذَكَـرتُ شُـخَيْصَكَ مـا بَينَهـا   فَلَـم يَدعُنـي حُبـه للفـرارْ

وفي تلك الآونة العصيبة، دفع «يوسف» بقواتِ البربر التي يقودها أبرع قواده، وهو «سير بن أبي بكر اللمتوني» لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معًا، ونفذ «سير» بقواته إلىٰ قلب النصارى بشدة، وسرعان ما تغير وجه المعركة، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم، وعاد الفارون إلىٰ صفوفهم.

واضطرمتِ المعركة في هذا الجناح رائعة، ترجح بها كفة المسلمين، وأظلم النهار بالعجاج والغبار، وخاضت الخيل في الدماء، وكان «الفونسُ»،

في ذلك الوقت قد تقدم في هجومه، حتى صار أمام خيام المرابطين، واقتحم الخندق الذي يحميها، ولكن حدث في نفس الوقت، أن لجأ «يوسف» إلىٰ خطة مبتكرة، إذ تقدم في قواته الاحتياطية من «لمتونة، وصنهاجة»، وتجاوز النصارى المهاجمين، وقصد إلىٰ المعسكر النصراني ذاته، وهاجمه بشدة، وكانت تحرسه قوة ضعيفة، ففتك بها، ووثب إلىٰ مؤخرة القشتاليين، وأثخن فيهم من الوراء، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء، وزعقتِ البوقات، فاهتزّتِ الأرض، وتجاوبتِ الجبال والآفاق. ودوّت:

- اللَّهُ أَكْبَرُ!

ثم أضرم النار في محلة القشتاليين، فارتفعت ألسنتها في الهواء، وقتل مَنْ كان بها من الأبطال والرجال والفرسان الذين تركهم «الفونس» بها يحرسونها ويحمونها، وفرَّ الباقون منهزمين نحوه، فأقبلت عليه خيله من محلته فارّين، والأمير «يوسف» في أثرهم بساقته وطبوله وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يحكمون في الكفرة سيوفهم، ويروونها من دمائهم، ولما رآهم «الفونس» مقبلين عليه، زعق بفزع:

- ما هذا؟!

- معسكرنا حرق ونهب، وقُتل حماته، وسبيت حريمنا.

ارتد «الفونسُ» من فوره لينقذ محلته من الهلاك، فاصطدم بمؤخرة المرابطين، وصمم أمير «يوسف» نحوه، فأفرج لهم عن محلتهم، ثم كرَّ عليهم، فأخرجهم منها، ثم كرّوا عليه فخرج لهم عنها، وانتشبت الحروب بينهما، فكانت حروب عظيمة لم يُسمع قط بمثلها، ولم تزل الكرّات تتوالى في خطة محكمة للأمير «يوسف» لإضعاف فرسان النّصارى، وإنهاك رجّالتهم، تمهيدًا للقضاء عليهم جميعًا.

ثم قدّم الإبل التي عبرت معهم من المغرب، فقد كان هذا أول نزل للجمال في كل أوربا! فعبر منها ما أغص الصحراء، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة قد رأوا جمالًا قط، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق، وكان هذا قصد الأمير «يوسف» في عبورها، فكانت خيول فرسان النصارى تحجم عنها وتجفل منها، وتلوي أعناقها عندما تسمع رغاءها، لعدم تعوّدها على رؤيتها، كما كان لقرع الطّبول

أثر في تخلخل أفئدة النّصارى، فتوالى استنزاف قوّتهم، و«يوسف» يحمل بنفسه وهو على فرسه يرغب في الصبر والاستشهاد ويقول بأعلى صوته:

- يا معشر المسلمين، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشّهادة فله الجنّة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة.

وتمتّع المسلمون بمعنويّات عالية، فقاتلوا قتال من يطلب الشهادة ويتمنّى الموت، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا، وكانت كلمات «يوسف» مع بسالته تعمل عملها في إذكاء حماس المسلمين، وكان لصموده وقوته وسرعة حركته ما أذكى سيوف المسلمين من حوله، حتى قتلت تحته في هذه المعركة ثلاث أفراس.

***

وهكذا اتّبع «يوسف» في قتاله أسلوب الكرّ والفرّ بالصّفوف المتراصة المتماسكة وهو نظام أربك النّصارى لأنهم لم يعهدوه من قبل، وتقدم «توماس» يقاتل ببسالة عجيبة، وكان «زياد» يتمنى أن يلقاه فما إن رآه، حتى تقدم منه، وصاح به:

- بيننا سجال لم ينته في طُلَيْطِلَة، وها سيفي يلقاك غير أني لم أقتحم دارك.

لوح «توماس» بسيفه في الهواء في حركة استعراضية:

- تعال نفصل الأمر بسيفينا، فإمَّا أن أقطَّ رأسك أو تقطَّ رأسي.

ثم انقض، وضربه ضربة قوية تلقاها «زياد» برشاقة سيفه، حتى اقتربا من بعضهما بعضًا والشرر يتطاير من عيونهما، دفعه «زياد» بعزم جسده إلى الوراء مما جعله يترنح قليلًا، ولم يفوتها فرصة فهوى بسيفه على عنق «توماس» فأذاقه طعم المنية، حتى إذا عاد للخلف، وجد «جعفر» يلقي بنفسه عليه ليصد عنه رمحًا قد وجه نحوه، وأخذ «جعفر» الطعنة مكانه، فتلقاه «زياد» على يديه وهو بين الفزع والدهشة و«جعفر» يتردد بصره بين التلال والجبال ثم نظر إلى السماء مبتسمًا باطمئنان قبل أن يقول:

- اثبت يا ولدي الله الله في الإسلام، وفي الأندلس.

ثم نطق الشهادتين والدم يتفجر من فمه، وفاضت روحه الطيبة إلىٰ السماء، فقبل «زياد» جبهته وحمله على يديه بعيدًا عن موطن أقدام الخيل، ثم عاد إلىٰ المعركة، وكانت قد ازدادت شراسة، وكانتِ الشمس قد أشرفت على المغيب، وحمل «زياد» قوسه، ونيته قتل «الفونسُ السادس» كما قتل جدُه جدَه، ثم ومن بعيدٍ أشار «يوسف» إلى أربعة آلاف فارسٍ من رجال «السودان» المهرة، وهم حرسه الخاص فترجلوا عن خيولهم، ليقتحموا –فيما يشبه المهمة الخاصة- قلب جيش النصارى، وقد أدرك «يوسف» تضعضعهم، فعندئذ ضرب ضربته الأخيرة، وبالفعل نفذوا إلى قلب المعمعة، ودخلوا المعترك بدرق اللمط، وسيوف الهند، ومزاريق الران، فطعنوا الخيل، فرمحت بفرسانها، وترجّل معهم عدد آخر من الأجناد: فآمّن الله المسلمين، وقذف الرّعب في قلوب المشركينِ، وطُحِنوا بين العسكرَيْن المسلميْن.

ودارتِ الدّائرة على «الفونسُ»، وانكشف لزياد الذي يترصده، وقد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وجذب سهمه ليقذفه به، ولكن غلام أسود يدعى «بلاطس» سبقه إليه، إذ لصق بــه، وقبض على عنان فرسه، وانتضى خنجرًا معوجًا يُدعى «الأفطس» كان متمنطقًا به، فأثبته في فخذ «الفونسُ»، فهتك حلق درعه، وقطع جرزه، ونفذ من فخذه مع بداد سرجه، فانفجر دمه، وجرح جرحًا بالغًا، ولكن «الفونسُ» عاجله بسيفه فقضى عليه، وتجمع حوله قادته وفرسانه، وأدركوا أنهم يواجهون الموت، إذا استمروا في موقفهم، وعندئذ بادر «الفونسُ» في فل من صحبه وأشرافه إلىٰ التراجع، والطبول تصم أذنه، وأسرعوا فوقَ الكُثبان العشبية مُنهزِمين نحوَ تل صخري قريب، فاعتصموا به لتعذر مرتقاه، ولحِقَتْ بِهم خُيول المسلمين غير مُتردِّدة، وقد أحدقت بهم، حتى دخل الليل.

وكانت صفوف النصارى قد مُزقت عندئذ في كل ناحية شر تمزيق، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى، وطُورد الفارون في كل مكان، وهَلك كثيرون منهم أثناء المطاردة، ولم ينقذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام وأمر «يوسف» بوقف المطاردة، وأمضى المسلمون الليل في ميدان الحرب، يرقبون حركاتِ النصارى.

وعند زوال الشمس ومن فوق الربوة الصخرية العالية، نظر «الفونسُ» متحاملًا على جراحه إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة، فلم يرَ إلا نكالًا محيطًا به وبأصحابه، وقد أبادهم القتل والأسر، وإذ بمشهد كأعجب كابوس، فيد المسلمين ترتب الجماجم أكوامًا، وتكدسها تكديسًا، وتعمل من رؤوسهم صوامع يؤذنون من فوقها للصلاة.

جزَّ آلامه المشتدة، وقال لـ«البار» بصوت أقرب لبكاء طفل، وهو يتذكر من طعنه، ولم يكن يعرف السلاح الذي رآه بيده:

- التصق بي عبدٌ أسود... أراق دمي... ضربني في فخذي بمنجل!

***

(18)

استمرّتِ المعركة يومًا واحدًا لا غير، حطّم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين، وأجزل لديهم نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه، وكل الدلائل كانت تشير أن خطّة الأمير «يوسف» هي حسم المعركة بسرعة، حتّى وإن كَثُرَتِ الخسائر، وذلك لاستغلال حماس المسلمين، وقبل أن تفتر همة أمراء الطّوائف، وتحقّقت خطّته بأمر الله.

أقبل «المُعْتَمِد» على «يوسف» فصافحه بحرارة:

- هنيئًا لك النصر، وشكر الله صنيعك، يا أمير المسلمين!

- بل الشكر لك على مقامك، وحسن بلائك، وجميل صبرك، لا أدري كيف كان الحال عندما أسلمتك رجالك بانهزامهم؟

ابتسم «المُعْتَمِد» وقال برحابة صدر، وقد عاد بعضهم:

- هم هؤلاء قد حضروا بين يديك، فليخبروك.

ثم نظر إلى الربوة الصخرية، وأشار تجاهها بحماسة:

- أمرُنا الآن أن نتبع الطاغية ونقطع دابره!

أبى «يوسف» واعتذر:

- إن اتبعناه اليوم، لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين، فيهلكهم! بل نصبر بقية يومنا، حتى يرجع إلينا أصحابنا، ويجتمعون بنا، ثم نرجع إليه، فنحسم داءه.

- بل أرى العجلة في هلاكه؛ إن فر أمامنا، لقيه أصحابنا المنهزمون، فلا يعجزون عنه.

أشار «يوسف» بيده رافضًا:

- يا أبا القاسم، الكلب إذا أُرهِق لا بُدَّ أن يعض، وقد سلم الله المسلمين من معركته، ولم يُقتل منهم إلا القليل، فإن هجمنا على هؤلاء، أبلوا بلاءً عظيمًا، ولكن اتركوهم، ولاحظوا حالهم.

ولما جن الليل تسلّل «الفونسُ» مع جماعته فارًّا في جنح الظلام وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدًا بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل معه «طُلَيْطِلَة» إلا حوالي مئة فارس.

أصبح يوم السبت، ولا يوجد للفونس وجنده أثر، وأخذت فرسان المسلمين في مطاردة المتخلفين، وعمدت قوة أخرى إلىٰ جمع الأسلاب، وكانت عظيمة وافرة من الآلات، والسلاح، والدواب، والمضارب، والأواني، وغير ذلك.

ثم ثنى أمير المسلمين عنانه، فنزل الناس بنزوله، وقد أبان الله بصارمه تلك الشوكة، واستأصل أولئك الجموع المشركة، ولم يفلت منهم أكثر من أصحاب «غرسية» الذي اعتزل عن القتال وهم نحو أربعمئة.

***

ولما فرغ الناس من هذا الفتح المبين تناول «المُعْتَمِد» إضبارة كاغد على عرض الإصبع وكتب فيها سطرين، وعلقها في جناح حمامة كان قد احتملها معه:

«إلىٰ ابني الرشيد وفقه الله، اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أذفُنش اللعين، ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين، والحمد لله رب العالمين! فاعلم بذلك من قبلك من إخواننا المسلمين، والسلام».

طارت الحمامة بين السحاب وتجاوزت الجبال والسهول والوديان، وهي تخفق بشدة من شدة الفرح وتحمل البشرى، إلى أهل «إشبيلية» فقد كان الناس أقنط ما يكون في ذلك اليوم، فوصلت الحمامة من يومها، وأُعْلِنَ الخبر من على منبر المسجد الجامع، فعمَّ السرور، وكثر الدعاء، ثم بعد ذلك وردت الكتب تشرح مجمل هذا الفتح الجليل وكتب «المعتمد، والمتوكل، وعبد الله بن بلقين» وكل من شاهد الحرب من الملوك كتبهم إلى الآفاق مبشرين بما شفى الله به الصدور، وأذهب غيظ القلوب، وبما أفاء عليهم من أنفالهم.

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام؛ حتى جمعت الغنائم، واستُؤْذِن في ذلك السلطان «يوسف» فعفَّ عنها، وآثر بها ملوك الأندلس، وعَرَّفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلمَّا رأتْ ملوك الأندلس إيثار «يوسف» لهم بالغنائم استكرموه، وأحبُّوه وشكروا له ذلك، وكانوا ثلاثة عشر ملكًا، فسلّموا عليه بـ«أمير المسلمين»، وكان يُدعى «الأمير».

وطُيّرت أنباء النّصر الحاسم إلىٰ سائر القواعد الأندلسية، وشاعت أنباؤه في سائر الجنبات، فاستبشر المسلمون بما آتاهم الله من عزيز نصره، وكتب أمير المسلمين رسالة عن الموقعة، وتفاصيلها، وأوصافها إلىٰ «المعز بن باديس» صاحب إفريقية، وتجاوبت أصداء النّصر في سائر مدن «المغرب» وإفريقية، وعمّ الفرح والبشر سائر الناس، فأخرجوا الصدقات، وأعتقوا الرّقاب.

ووصلت إلىٰ الخليفة العباسي «المقتدي بأمر الله» ببغداد، فأتت الخلع، والأعلام، ولقّب «يوسف» بأمير المسلمين، وناصر الدين وضرب السّكّة من يومئذ وجدّدها، ونقش ديناره: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وتحت ذلك: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين». وعلى الوجه الآخر: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وتحت ذلك: «الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي». وفي الدائرة: تاريخ ضرب الدينار وموضع سكّة.

فكانت «الزَّلّاقة» يومًا مشهودًا من أيّام الإسلام، محتِ العار الذي لحق ملوك الأندلس من مذلّة «الفونسُ السادس» لهم. وفيه يقول بعضهم:

لم تعلم الروم إذ جاءت مصممة ... يوم العَرُوبة[1] أنّ اليوم للعرب

---

(1) العرب تسمي الجمعة (العَرُوبة).

وقف «زياد» مصليًا على عدد كبير من شهداء المسلمين بينهم عدد من العلماء[1] الفضلاء وأعيان النّاس. وهكذا كان العلماء على المقدّمة في كافّة الميادين، حصون الأمة وقادتها، ومثالها، قدوة للمسلمين، مثالًا صافيًا نقيًّا دائمًا، لا ينزوون عن الأحداث، ويبرزون في صفاء الجود والنّعمة، لا سيّما علماء القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، وعلماء الشّريعة، والتّاريخ، والقضاء، لأن العلم إيمان وعمل، وصدارة العلم لها مسئوليتها وتكاليفها، فرحمهم الله وأجزل لهم المثوبة.

وما إن أنهى صلاته، حتى جال ببصره فيمن حوله يبحث عن صديقه القديم، كان يتمنى أن يشاركه فرحة النصر، وكان يتمنى أن يعودا كما كانا، فكر كثيرًا في تلك اللحظة، فكر متى سيعود إلى داره في «طُلَيْطِلَة»؟

لم يكن يعلم أنَّ «موسىٰ الطويل» حينها كان هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ في طريقه إلى «بَلَنْسِيَة» بعدما شعر أنه خسر دينه ودنياه، وضاقت عليه الحياة، فخيَّر «نيفادة» إمَّا البقاء في «طُلَيْطِلَة» والفراق، وإما الذهاب معه، فاختارت الأولى.

فيا تُرى كيف ستكون حياته في «بَلَنْسِيَة»؟ وهل سيجتمع الصديقان مجددًا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) منهم «ابن رميلة» صاحب البشرى، واستشهد بالزّلاقة مقبلًا غير مدبر، واستشهد العالم «أبو مروان عبد الملك المصمودي» قاضي «مرّاكش»، والفقيه «أبو رافع الفضل» ولد الحافظ العالم الأندلسي الفقيه الأديب «أبي مُحَمَّد بن حزم» قضى في معركة الزَّلَّاقة شهيدًا.

شكر وتقدير

إلى الأندلسية الباحثة المجتهدة الأستاذة
«ابتهال محمد الدسوقي»
والتي أعتبرها شريكة لي في هذا العمل،
فلولاها ما خرج بهذا الشكل،
فقد أضافت له الكثير من وقتها،
ومداد قلمها.

وداعًا طليطلة

كانت بدايةً، وبداية نهايةٍ. فَرحةٌ رَحْبةٌ رخاءٌ، بوابةُ شمسٍ نبضُها ضياءٌ، وصِمَامُها نهرٌ جِوَاءٌ، وأخرى شقراء لمعَت في دُروبها الذكرياتُ، وغابت بين سراديبها الحكاياتُ، وتاهَت في عيونها الكلماتُ، واختبأ المجدُ بين حجارتها الصمَّاءِ، فخفقتُ بأنين العَبَرَات: «طُلَيْطِلَة» صمدَت بقَدْر ما كانت صابرةً، وبقيت إلى أبد الدهر شاهدةً، ورغم كل الزحام، ما زالت هادئة وادعة، ولها في الفؤاد قصة أندلسية خالدة.

telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف: إسلام أحمد

9 789779 921785

عصير الكتب

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb